السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الرابع

العبيكان
Obeikan

بسم الله الرحمن الرحيم

زعيم اليمامة يحاول اغتيال النبي ﷺ

اسمه (ثمامة بن أثال الحنفي) سيد اليمامة وبني حنيفة.. يعلنها صريحة للنبي ﷺ: «ما وجه أبغض إلي من وجهك، ولا دين أبغض إلي من دينك، ولا بلد أبغض إلي من بلدك»[1]

لم يقنع ثمامة بتلك المشاعر فقط، بل حاول تجسيدها على أرض الواقع.. حاول أن يشفي غليله وغليل قريش والأصنام بسفح دماء النبي ﷺ، لكن محاولته فشلت، فدعا النبي ﷺ ربه أن يمكنه منه.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ دعا الله حين عرض لرسول الله ﷺ بما عرض له، أن يمكنه الله منه، وكان عرض له وهو مشرك، فأراد قتله»[2] لكنه خاب، أما النبي ﷺ فكان كعادته لا يكتفي بالدعاء فقط دون الأفعال، فالتوكل عنده هو القيام بالعمل بطريقة صحيحة، مع جعل النتائج كلها على الله لا على العمل، وهذا بالضبط ما قام به للإمساك بهذا المشرك، الذي ملأ الحقد قلبه فأعماه عن رؤية شمس التوحيد ونهاره، ويبدو أنه كان مدفوعاً بمفكر اليمامة ومنظرها (مسيلمة الكذاب) الذي بدأ يستعد لإعلان نفسه نبياً، ونداً للنبي ﷺ، في الوقت الذي كان ﷺ يعد جيشاً ذكياً لـ:

غزو نجد

ويبدو أن هذه الغزوة مرت بمرحلتين:

الأولى: مواجهة جماعية غنم فيها المسلمون الكثير، حيث يقول عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما «بعث النبي ﷺ سرية وأنا فيهم قبل نجد، فغنموا إبلاً كثيرة، فكانت سهمانهم اثنا عشر بعيراً، أو أحد عشر بعيراً، ونفلوا بعيراً بعيراً»[3]

أما المرحلة الأخرى: فتتلخص في القبض على سيد أهل اليمامة (ثمامة بن أثال الحنفي) الذي يستعد الآن للانطلاق من بلاده.. متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة، ليفاجأ بقوة عسكرية تأسره، وتأخذه معها إلى المدينة.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٧٩: حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وسعيد بن أبي سعيد تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢٣٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٦٨.

قصة مثيــرة تحمل حِكماً وأحكاماً عندما «بعث رســول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجــاءت برجل من بني حنيفة يقال له (ثمامة بن أثال) ســيد أهــل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟

فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شــاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟

قال: ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط ما شئت.

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك.. إن تنعم، تنعم على شاكر، وإن تقتل، تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت»(١).

كان أبو هريرة ومن معه من المساكين يستمعون إلى هذا الحوار، ويتمنون لو ينتهي الأمر إلى شيء يفرحهم ويدخل السرور والفسحة على حياة الفاقة التي يمرون بها في صفتهم تلك.

يقول رضي الله عنه «فجعلنا -المســاكين- نقول -بيننــا-: ما يصنع بدم ثمامة؟! والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة»(٢)

أما النبي ﷺ، فيرى أن الدنيا بحذافيرها لا تســاوي شــيئاً أمام هداية رجل أو امرأة، فكيف بســيد اليمامة هذا. أقبل رسول الله ﷺ على أسيره فقال: «عفوت عنك يــا ثمامة»(٣) «أطلقوا ثمامة. فانطلق إلى نخل قريب من المســجد، فاغتســل ثم دخل المسجد فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي.

---

(١) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٢) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

(٣) حديث صحيح سيأتي تخريجه بعد الحديث التالي.

والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي.

والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر»[1] «فيسره رسول الله ﷺ في عمرته، وعلمه، فخرج معتمراً»[2] بعد أن اعترف بذنبه واستحقاقه لعقوبة القتل.. أطلق النبي ﷺ ثمامة من أسره، ليقع في أسر آخر.. أسر الحب.. حب الله ورسوله ودينه وحتى أرضه وبلاده.

رافع الطائي وثمامة الحنفي وبنو المصطلق، وكثير من البشر.. قد لا يتأثرون بكثرة صلاة المسلم أو صيامه، ولا بشكل لحيته وطول ثوبه، بل قد يرونها - قبل أن يسلموا- نوعاً من تعذيب الذات من أجل الخلاص.. هذه النوعية من البشر لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها.. هي منساقة خلف خلق جميل، وتعامل راق.. مأخوذة بالدين المعاملة، لا بالدين العبادة، وهي نوعية لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها.. لا تجد أفضل من محمد يتهادى خلف كلمات ربه التي تقول: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3] ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾[4]

تعامل ﷺ بهذا المستوى مع ثمامة فحقق قول الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[5] وقد حولت الأخلاق ثمامة إلى ولي حميم، بعد أن كان عدواً مبغضاً.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤-٨٠ حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة وأخبرني سعيد عن أبي عن أبي هريرة وقد مر معنا.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٤) سورة النحل: ١٢٥.

(٥) سورة فصلت: ٣٤

ودع ثمامة نبيه ﷺ وأحبابه الجدد متجهاً إلى مكة بقلب آخر، وشخصية أخرى، وأهداف أرقى وأسمى، وكأنه اغتسل بنهر حياة جديدة، وتوجه نحو مكة بعد أن «اغتسل وصلى ركعتين، فقال النبي ﷺ: « لقد حسن إسلام أخيكم»[١]

سار ثمامة نحو عمرته بقلب آخر «فلما قدم مكة قال له قائل:

أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ»[٢]

عندها استفزه بعض الحمقى من المشركين، واحتج على إسلامه، فانتفض سيد اليمامة على سدنة الأصنام مهددا إياهم كما هددهم سعد بن معاذ رحمه الله قبل غزوة بدر.. صرخ فيهم ثمامة وعزة الإيمان تملؤه: «ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ»[٣] قالها فكان:

أول من سن المقاطعة الاقتصادية

سيد بني حنيفة يحاصر مكة اقتصاديا، غضباً لله ورسوله، ودفاعاً عن الظلم الذي لحق بأصحاب نبيه، فقال لقريش: «وأيم الذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة -وكانت ريف مكة- ما بقيت حتى يأذن فيها محمد ﷺ، وانصرف إلى بلده ومنع الحمل إلى مكة حتى جهدت قريش»[٤]

علم النبي ﷺ بذلك فأقره ولم يعترض، فكانت سنة نبوية، وسلاحاً فعالا في وجه الظلمة والمتسلطين.. وافقه ولم يقل له: مهلا يا ثمامة فإن في مكة أناس ممن يخفون إسلامهم.. لم يقل: ما ذنب عمي العباس وعمتي عاتكة.أما ثمامة العظيم فـ«رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز»[٥] أي الدماء.

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٦-٩ أخبرنا عبيد الله وعبد الله ابنا عمر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة، سعيد تابعي ثقة معروف التقريب ١-٢٩٧ وتلميذاه أحدهما ضعيف وهو عبد الله لكن أخاه ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٣٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٨٦.

(٥) سنده قوي كما قال الحافظ رحمه الله في الإصابة ١-٤١١ وعزاه لابن منده من طريق علباء بن أحمر ووجدته في دلائل البيهقي ٤-٨١ من طريق علباء عن التابعي الثقة عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وعلباء صدوق من رجال مسلم: التقريب ٣٩٧

(ادفع بالتي هي أحسن) كلمات قليلة حولت أرض اليمامة إلى ربيع في قلب النبي ﷺ وسيف في يده، أما قريش فـ:

قريش تأكل الدم
بسبب حصار اليمامة الاقتصادي

بعد أن دعا النبي ﷺ عليها، فكان ثمامة استجابة الدعاء، وعندما أشرفت قريش على الهلاك انطلق زعيمها أبو سفيان كارهاً.. مستغيثاً بالمدينة.. باحثاً عن مخرج لأزماته المتسارعة والثقيلة مستغلاً قرابته ومصاهرته للنبي ﷺ علها تنقذه مما هو فيه.

أبو سفيان في المدينة

يطلب الرحمة من هذا الحصار ويستغيث وقد علم عبد الله بن مسعود بمجيئه فقال: «إن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأخذتهم سِنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴾»[1]

استمر الوضع على ما هو عليه «حتى جهدت قريش فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم، أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ»[2] وعفا عنهم.

لكن قريشاً لم تنتفع بذلك العفو ولم تتعظ.. لم تستوعب الدرس جيداً، فقد فقدت مبررات البقاء على جاهليتها ووثنيتها، ولم يبق لها سوى العناد.. العناد آخر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٧٩١.

(٢) حديث صحيح وهو آخر حديث ابن إسحاق السابق.

أســوار قريش التي بقيت لها، لكن العناد تحول إلى قشــرة خفيفة تســتر بها فضيحة الشرك وعيوبه.

كانت الجزيرة العربية وما حولها تترقب نهاية حاســمة وقريبة، فلم يبق في صف قريــش إلا حلفاء الأصنام.. الذين وقعوا معها حلفاً بعد صلح الحديبية وهم (بنو بكر) لكن يبدو أن الظروف لا تســاعد قريشاً كثيراً، فحتى هؤلاء الحلفاء لم تعد لهم أهمية تذكــر. فقــد تحولوا إلى فخ يدني قريشــاً كل يوم من حتفها. حتى جــاءت تلك الليلة المشؤومة على قريش، و على حليفتها بكر.. عندما قررتا الانتحار عند نبع الوتير.

ليلة المؤامرة على خزاعة عند نبع الوتير

في ساعة كالغدر اتفق الطرفان قريش وبنو بكر على استغلال الليل، للغدر بالقبيلة التي حالفها المسلمون عند توقيع صلح الحديبية، وهي قبيلة (خزاعة) ومباغتتها. وقد خطط طرفا المؤامرة لتتم العملية بسرية لا يعلمها النبي ﷺ ولا حتى خزاعة، وبسرعة خاطفة وكأنها من بقايا السلب والنهب الجاهلي.

يقول أحد الصحابة «كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش: أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل. فتواثبت خزاعة فقالــوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده. وتواثبت (بنو بكر) فقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.

فمكثوا في تلك الهدنة نحو الســبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم.. وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ وعهده ليلاً، بماء لهم يقال له (الوتير) قريب من مكة.

فقالت قريش: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد. فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ»[1] والنيل منه ولو معنوياً.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن إســحاق ومــن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثنــي الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمســور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً وهذا الســند هو ســند البخاري في روايته لأول القصة.

لكن ذلك الليل لم يستطع طمس بعض وجوه المجرمين الذين مزقوا معاهدة الحديبية.. تلك المعاهدة التي تطرفوا في شروطها، وأملوا ما شاءوا من ظلم، وتغطرسوا، ومع كل هذا لم يلتزموا بها.. لم يستطع الظلام إخفاء تلك الجريمة، فقد تمكن بعض رجال خزاعة من التعرف على بعض المجرمين، فأمرت خزاعة أحد رجالها واسمه: عمرو بن سالم كي ينطلق نحو المدينة لطلب النجدة من النبي ﷺ، ففعل. ولما وقف أمام النبي ﷺ انطلق الشعر من أعماقه جمراً ومراراة واستغاثة.

الشعر يستغيث النصر لخزاعة

يقول أحد الصحابة «أن عمرو بن سالم ركب إلى رسول الله، عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير، حتى قدم المدينة إلى رسول الله ﷺ يخبره الخبر، وقد قال أبيات شعر، فلما قدم على رسول الله ﷺ أنشده إياها:

اللهم إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
كنا والدا وكنت ولدا ... ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً عتدا ... وادعوا عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إن قريش أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
فهم أذل وأقل عددا ... قد جعلوا لي بكداء مرصدا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... فقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم.

فما برح حتى مرت عنانة في السماء، فقال رسول الله ﷺ: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب. وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يعمي عليهم قريش خبره حتى يبغتهم في بلادهم»[1] فهذه الجريمة لن تمر دون

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الكبرى ٩-٢٣٣ حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة أنهما حدثاه جميعاً قالا.. وهذا السند صحيح مر الحديث عنه عند صلح الحديبية، وهو سند البخاري في روايته لصلح الحديبية. والزهري وعروة تابعيان إمامان ثقتان ثبتان من أشهر الأئمة.

عقـــاب رادع يوقف قريش ومن معها عند حدهم، فلقد تمادت كثيراً، وكثيرا جداً، ولن يوقفهم عن تهورهم إلا إجراء بالغ الصرامة.. لن يوقف تآمرهم وكفرهم إلا:

فتح مكة

فهذا النوع من البشـــر يســـتنفذ منك كل طاقات الإقناع والسلام، والعفو والحلم والحكمة، بل إنه ينظر إلى هذه الألوان الســـلوكية الإســـلامية الرائعة على أنها ضرب من ضروب الســـذاجة، والسطحية والغباء تستحق الانتهازية والاستغلال والمماطلة ما أمكن، هذا النوع من البشـــر لا يخضع للحق رغم ســـطوعه كالشمس في عينيه، لكنه يسرع إليه إذا رأى شعاع الشمس منعكساً على شفرة سيف حاد.

ولأهمية هذا الأمر لم يعلن النبي ﷺ لأصحابه كيف سيكون الرد، ولا متى.. حتى أهل بيته.. حتى أبو بكر وبقية الصحابة.

لا أحد يعلم هدف هذا الاستعداد ولا وجهته، فقد دخل أبو بكر الصديق على ابنته «عائشة وهي تغربل حنطة لها، فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ فقالت: نعم، فتجهز. فقال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز»(1)

ثم صـــدرت أوامر النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار جميعاً بالتأهب، فامتثلوا، وبعث ﷺ إلـــى قياداتـــه من بني ســـليم ومزينة، فتطوع من بني ســـليم حوالي الســـبعمائة، أما مزينة فتجـــاوزوا هـــذا العدد ليصلوا إلى ألف مقاتل، وتداعت القـــوات من كل مكان في الجزيرة، حتـــى توافر لدى النبي ﷺ قوة ضاربة قوامها عشـــرة آلاف مقاتل.. كل ذلك وهم لا يدرون إلى أين سيتوجه بهم النبي ﷺ.

المدهش في الأمر أن شهر رمضان قد دخل على الأمة، فلم يتزحزح النبي ﷺ عن قراره بغزو مكة وتخليصها.

يقول أحد الصحابة عن عدد القوات المتوافرة: «مضى رســـول الله ﷺ وأصحابه عام الفتح حتى نزل مر الظهران في عشـــرة آلاف من المسلمين، فسبعت سليم، وألفت

---

(1) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٥-١٢ حدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة فجعفر ثقة وعروة إمام ثقة مر معنا كثيراً.

مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وقد عميت الأخبار على قريش، فلا يأتيهم خبر رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو صانع»[1] وهو مؤشر على مدى السرية التي أحاط بها النبي ﷺ هدف كل هذا الاستعداد الضخم.. الذي لم تشهد له الجزيرة العربية مثيلاً، ولا أستبعد أن يكون كبار الصحابة يرجحون أن مكة هي الهدف القادم، لكنهم لا يستطيعون البوح بذلك، لأن التلفظ به يعني مزيداً من البلبلة والإشاعات والإرجاف، وإعطاء العدو فرصة للتأهب، وهم يعلمون أن النبي ﷺ لا يريد ذلك كله.

لكن أحد أفاضل الصحابة من المهاجرين، وأحد رجال بدر العظماء قام بعمل خطير جداً.. لا يقوم به إلا منافق، أو عدو لهذه الدولة. لقد كان هذا الصحابي الجليل لماحاً، ففهم من هذه الجموع والترتيبات أن النبي ﷺ لا يمكن أن يقصد بها قبيلة ضعيفة، أو غزوة عادية في الجزيرة، فقد انتصر على كل القبائل التي واجهها بسرايا محدودة العدد.. محدودة التجهيز، لكن الأمر اليوم يحمل خلف صمت الهدف ضربة حاسمة.. ستغير وجه الجزيرة وأعماق من يسكنها، فلا يمكن أن تكون إلا أعظم قبيلة على أرض الجزيرة، ولا يمكن أن تكون إلا أقدس أرض على سطح الأرض، وهذا ما جعل انتقام قريش من ذوي المسلمين الضعفاء متوقعاً، وكان أهل حاطب في مكة معرضين لانتقام طواغيت قريش في حالة مداهمتهم، وربما يستغلونهم كرهائن في حالة الانكسار، وأشياء عديدة وثقيلة، كالهموم تغرز حرابها في رأس حاطب. لكن حاطباً يعلم من هذه الجموع، ومن معنويات قريش أن النصر محسوم للإسلام وأهله، فلن يضرهم أن يتصرف بطريقة تحمي أهله، وهو يجزم أنها لن تعيق انتصار النبي ﷺ:

حاطب ينذر قريشاً معركة فاصلة

فقد كتب خطاباً «فيه من حاطب بن أبي بلتعة، إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ»[2] ثم تسلل رضي الله عنه إلى مكان إحدى

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ حدثني الزهري عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس.الزهري وشيخه ثقات أثبات التقريب ٣٧٣ و٥٠٦

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٠٩٥.

النساء المسافرات إلى مكة، أو أرسلها هو بذلك الخطاب، لكن ومن باب السرية أيضاً أمرها أن تخفي كتابه بضفائر شعرها، لكن جبريلاً عليه السلام نزل يخبر النبي ﷺ بصنيع حاطب، فاستدعى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم فجاءوا.

هاهو علي سوف يخبرنا بما حدث.. يقول رضي الله عنه: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة[1] معها كتاب فخذوه منها.

فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب.

فأخرجته من عقاصها[2] فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة.. يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ»[3]

أخذ الفرسان الكتاب، ثم عادوا إلى المدينة دون أن يمسوا المرأة بسوء، فهي لا تعلم عما بداخله شيئاً، ولما سلموه إلى النبي ﷺ أمر بقراءته، ثم استدعى حاطباً لمساءلته عن هذا الخطأ الشنيع.. الذي لا يفعله إلا أعداء هذا النبي ودولته وأعداء هذا الدين.

مساءلة حاطب

حاطب الآن بين يدي النبي ﷺ دون قيود.. دون ضرب، أو إهانة أو سجن على ذمة التحقيق، لكن عمر بن الخطاب كان متأهباً بالسيف لفصل رأس حاطب عن جسده، فهو في نظر عمر منافق مرتد، لكن للنبي ﷺ قولاً آخر وحلماً آخر.

خاطب صاحبه بكلمات قليلة.. «قال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ.. إني كنت امرأ ملصقاً في قريش، كنت حليفاً ولم أكن من

---

(١) الظعينة هي المرأة، ويقال هي المرأة في الهودج.

(٢) شعرها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٥٥.

أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم.

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾»[1]

ما قام به حاطب رضي الله عنه خطأ شنيع للغاية، لكنه لم يكن مقروناً بنية فاسدة تحمله معها إلى حيث مراتع الردة وسيف عمر.. كان الدافع خوفاً على الأهل.. كان تصرفاً تمليه حالة ضعف بشرية يمر بها الجميع، ويتجاوزها القليل، ومع ذلك لم تفلح تلك النية السليمة في تمرير ذلك الخطأ، لكن في هذه القصة منهج للدولة الإسلامية والقضاء فيها، وردع لأي حكم بالردة والسيف، أو حتى السجن قبل المساءلة والتثبت واكتشاف الدوافع الحقيقية.

تلك الدوافع التي اكتشف حاطب أنه كان ضعيفاً جداً أمامها، واكتشف أيضاً كم هو مخطئ، وكم هي ثقيلة تلك المسؤولية التي يحملها تجاه أمته وأسرار دولته.

ندم حاطب ندماً شديداً، فوجد النبي ﷺ واحة تقول: «الندم توبة»[2] ووجد الإسلام يحتفظ له برصيد جميل أودعه أيام بدر، وما زال يتنامى، ولا يزال إلى يوم البعث، له ولبقية الصحابة الذين بذلوا كل شيء من أجل هذا الإسلام، ولا يمكن شطب

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٥٧.

(٢) حديث صحيح رواه ابن حبان ٢-٣٧٩ وغيره من طريق مالك بن مغول عن منصور عن خيثمة عن بن مسعود عن النبي ﷺ والحاكم ٤-٢٧٢ وغيره عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن حميد عن أنس مرفوعاً وأحمد ١-٣٧٦ وغيره عن عبد الكريم أخبرني زياد بن أبي مريم عن عبد الله بن معقل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ وهذه الأسانيد صحيحة.

ما بذلوه لخطأ، فهم بشر يصيبون ويخطئون، ولو كانوا غير ذلك لما بعث لهم نبي وأنزل عليهم قرآن، فرضي الله عنهم وأرضاهم ما أجملهم وأبهاهم.

أما النبي ﷺ فقد اطمأن إلى عدم وجود أي قناة تتسرب منها أخباره إلى أهل مكة، وزاد من طمأنينة الوضع دخول شهر رمضان بروحانيته وسكينته وجماله، ليضفي كل تلك الأشياء العذبة على أفراد جيشه.. ليغسلوا حماسهم بها، حتى لا يتحول الحماس إلى ثأر أو تهور، وللقوم ثارات لا يجتثها سوى تجذر الإسلام في أعماقهم، ولا يطفئ جحيمها سوى مطر الاحتساب.

ولما جاء اليوم العاشر من رمضان، وكمل احتشاد الجموع.. نادى ﷺ رجلاً من أصحابه اسمه (كلثوم بن عتبة بن خلف الغفاري) ويلقب بأبي رهم، ولما جاء عينه ﷺ أميراً على المدينة حتى يعود:

أبو رهم خليفة رسول الله ﷺ في المدينة

يقول أحد الصحابة «مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وخرج لعشر مضين من رمضان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد (ماء بين عسفان وأمج) أفطر.

ثم مضى حتى نزل بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين»[1] و«الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تنسب إلى هذا الوادي فيسمونها: مر الظهران»[2]

ويحدد رضي الله عنه العام الذي خرج فيه النبي ﷺ فيقول إنه «خرج في شهر رمضان من المدينة معه عشرة آلاف من المسلمين، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة. فسار بمن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون، حتى بلغ الكديد وهو ماء بين عسفان وقديد، فأفطر وأفطر المسلمون معه، فلم يصوموا من بقية رمضان شيئاً»[3] طوال مدة سفرهم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الإمام أحمد ١-٢٦٦ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس وهذا السند صحيح مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) انظر معجم البلدان ٤-٦٣.

(٣) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٧٣ عن معمر عن الزهري فأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ومعمر ثقة ثبت التقريب ٥٤١ والبقية كالحديث السابق.

إذاً فقد «نزل مر الظهران في عشـــرة آلاف من المســـلمين فسبعت سليم، وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإســـلام، وأوعب مع رســـول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلـــم يتخلف عنه منهـــم أحد، وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم خبر رســـول الله ﷺ، ولا يدرون ما هو صانع»[1] لكن بعض فرســـان قريش يشـــعرون بسكون يسبق إعصاراً مدمراً.. يشـــعرون بسكون مخيف مقلق، وتحركات يجهلون هدفها بعد جريمة ارتكبها بعضهم.. تســـتحق انتقاماً فظيعاً مجهـــول التاريخ. كان ليل مكة مخيفاً، وكأن الجـــن تطل عليها مـــن رؤوس جبالها، وكأن تلك النجوم بريـــق عيون غيلان ووحوش. لـــم يطق بعضهم هذا الجو الخانـــق، فهرب يبحث عن محمد الذي لا ينضب عفوه ولا تنقطع أمطار تسامحه.

أبو سفيان يهرب من مكة المختنقة

إلـــى أجـــواء أكثر رحابة، لكنه ليس أبا ســـفيان بن حرب والـــد معاوية وزوج هند بنت عتبة وصهر رســـول الله. إنه (أبو ســـفيان بن الحارث) وهو ابن ابن عم النبي ﷺ (الحـــارث بن عبد المطلب) وقد أخذ معـــه ابناً له صغير، كما خرج معه أيضاً ابن عمة للنبي ﷺ اســـمه (عبد الله بن أبي أمية بـــن المغيرة) وخرج آخرون يبحثون في الأرض عن شيء يريح هذه الأنفس والأرواح المتعبة، وكأن حجارة ستهوي عليهم من السماء، أو بركاناً سينفجر من تحت أقدامهم، وذلك عندما «نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلم يأتهم عن رســـول الله ﷺ خبر ولا يدرون ما هو فاعل. خرج في تلك الليلة أبو ســـفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون، وينتظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به. وقد كان العباس بن عبد المطلب أتى رسول الله ﷺ ببعض الطريق، وقد كان أبو ســـفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رســـول الله ﷺ فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه. فكلمت أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك؟

قال: لا حاجة لي بهما.. أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٤٦ وهو السند السابق.

فلما أخرج إليهما بذلك ومع أبي سفيان ابن له، فقال: والله ليأذنن لي، أو لآخذن بيد ابني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا وأسلما»[١] وعفا عنهما ﷺ تلك القائمة الطويلة من الجرائم بحقه، فكان ذلك العفو جمراً قذفه ﷺ في مجمرة بين أضلع أبي سفيان بن الحارث، فتعالى الشعر من صدره ذكريات وزفرات ومشاعر حركت مشـاعر النبي ﷺ فقام بحركة تنضح بالعتاب على ابن عمه وقسوته معه، وهو الذي لم يؤذه يوماً ولم يؤذ مشاعره.

«أنشده أبو سفيان قوله في إسلامه، واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك أني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوان الحق أهدي واهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلني ... إلى الله من طردت كل مطرد»[٢]

«فلما أنشد رسول الله ﷺ (إلى الله من طردت كل مطرد) ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: أنت طردتني كل مطرد»[٣]

ضربة العتاب تلك جعلت صدره ينزف المزيد من المشاعر والشعر، ففاض أبو سفيان ندماً وحزناً وقال:

«أفر سريعاً جاهداً عن محمد ... وأدعى ولو لم أنتسب لمحمد
هم عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأي يلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلافظ ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامرا ... ولا كل عن خير لساني ولا يدي

(١) سند صحيح وهو حديث ابن عباس السابق وهذا لفظ الطبراني ٨-١٠.
(٢) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.
(٣) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

قبائل جاءت من بلاد بعيدة تـوابـع جـاءت مـن سـهـام وسـردد

وإن الـذي أخـرجـتـم وشـتـمـتـم سيسعى لكم سعي امرئ غير قعدد »[1]

لم يكن الشعر وحده هناك..

الطفولة أيضاً في طريق النبي ﷺ

لئن كانت الطفولة أحد الأشياء التي يستسلم قلب النبي ﷺ لها، فإن الحديث عنها وعن براءتها يذهب عناء الطريق إلى مكة. فعلى ذلك الطريق كانت القبائل العربية تتوجس حدثاً يرفعها، أو يحطها.. كان التساؤل ممتداً على طول الطريق يرصفه حيناً، ويثير غباره أحياناً، وكان على الطريق طفل عذب كالمطر.. شغوف كعينيه البريئتين يبلغ السادسة من عمره اسمه (عمرو بن سلمة) يشده مرأى المسافرين ما بين مكة والمدينة، لكن توقد ذهنه وحافظته لا يقنع بالدهشة والتأمل كقومه.. كان يستدعي المزيد، ويحفظ الآيات بشكل ملفت، ويبدو أن ثوبه القصير جداً والوحيد يتيح له المزيد من خفة الحركة، والانطلاق لطرح الأسئلة البريئة على القوافل والمسافرين، أما والده فكان سفير قومه للمسير خلف جيش الإسلام المتوجه نحو مكان مجهول.

يقول هذا الطفل عن نفسه وعن قومه وعن عرب الجزيرة: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس.. ما للناس.. ما هذا الرجل؟فيقولون: يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا.

فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم[2] بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم»[3] أي ذهب قبل قومه للاستفسار عما يجري.

---

(١) سنده صحيح وهو سند الحديث السابق لكن اللفظ هنا للحاكم.

(٢) يعني ينتظرون.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.

ماذا عن العباس بن عبد المطلب

لقد خرج رضي الله عنه، وقد أخرجه من مكة خوفه على تاريخ قريش ومستقبلها، ولعله بقي كل هذه المدة يخفي إيمانه للإبقاء على مكانة أهل بيت النبي ﷺ وسط قبيلة قريش، فهو آخر من تبقى من أبناء عبد المطلب العشرة، ولا يمكن أن يفرط بتلك المكانة لعبدة الأصنام من حوله فقط، فخرج العباس بن عبد المطلب خائفاً على مدينته وقبيلته من تهور تدفع ثمنه غالياً وغالياً جداً.

هاهو العباس يتحدث عن تلك اللحظات التي تحبس الأنفاس، وتزهق الأرواح وذلك «لما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران، قال العباس: واصباح قريش.. والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال (العباس): فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت: لَعَلِّي ألقى بعض الحطابة أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قط نيراناً ولا عسكراً!!

يقول بديل: هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب.

يقول أبو سفيان: خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال (العباس): فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة. فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقلت: ويحك يا أبا سفيان.. هذا رسول الله ﷺ في الناس، وا صباح قريش والله.

قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك، فركب خلفي ورجع صاحباه»[1] إلى مكة.

أما العباس فكان خائفاً على صديقه أبي سفيان، وكان خوفه في موضعه، فقد رآه عمر بن الخطاب ففرح فرحاً شديداً بتمكنه منه، لكنه لا يستطيع أن يقدم على

---

(١) سنده صحيح وتخريجه في نهايته.

مس هذا التاريخ الطويل من الأذى والحرب على الله ونبيه إلا بإذن من رسول الله ﷺ. لذلك ركض نحوه طالباً الإذن بتصفية أبي سفيان فلن يجد فرصة كهذه.

عمر يريد قتل أبي سفيان بن حرب

والعباس يريد إنقاذه، ويقول: «فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من هذا؟ وقام إليّ.

فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيء الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عمر فقال: يا رسول الله.. هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قلت يا رسول الله: إني أجرته.

ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني.

فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر.. أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف!

قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: اذهب به إلى رحلك يا عباس، فإذا أصبح فائتني به.

فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله.

قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً.

قال: ويحك يا أبا سفيان.. ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن»[1]

---

(١) تخريجه في نهايته.

كان العناد والزعامة والأوهام المتكلسة تغلق قلبه عن الحقيقة، لكن حد السيف جعله يتخلص منها، لأن السيف سيبيده معها كما أباد أبا جهل على أرض بدر، ثم نسي الناس من يكون أبو جهل، ونسوا زعامته وبقي محمد ومن معه، لذلك تم:

إسلام أبي سفيان

وذلك عندما «قال العباس: ويحك يا أبا سفيان أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد بشهادة الحق وأسلم.

قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً قال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[1]

لكن النبي ﷺ لم يكن يتمنى إيماناً كإيمان ابن سلول، فأبو سفيان زعيم، وإيمان هذا الصنف من الناس لا يمكن أن يتم إلا إذا واجهته بعاصفة من الحقائق يستحيل بقاؤه معها، وقد أحب ﷺ أن يقدم لأبي سفيان برهان ما قاله هرقل زعيم الروم أمواجاً تتلاطم على وجه الأرض، وتغرق الأصنام ومن يعبدها. لذا قام ﷺ بتقسيم جيشه إلى أربع كتائب أو أقسام:

كتيبة تمثل جناحاً أيمن يقودها الزبير رضي الله عنه

وكتيبة أخرى تمثل جناحاً أيسر ويقودها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وقسم يقوده أبو عبيدة وهم الحسر الذين لا يملكون دروعاً ويبدوا أنهم في المؤخرة.

وقسم يقوده النبي ﷺ وهو قلب الجيش وأكثره، وهو عبارة عن معظم القبائل العربية.

وفرقة مدرعة ضخمة لقبت بالخضراء، لشدة سوادها من كثرة الدروع، وهي مكونة من المهاجرين والأنصار..

أما قريش فقد جمعت لها جيشاً من المرتزقة.. من بعض أفراد القبائل في محاولة كالمقامرة، بحيث إذا ما تمت المعجزة وانتصروا.. شاركوهم في الغنائم، وإن انهزموا فاوضوا المسلمين. لكن النبي ﷺ كان أكثر حزماً هذه المرة، فقد قرر حصد كل

---

(١) حديث صحيح تخريجه عند نهايته.

من يقاوم من تلك القوات المرتزقة أو من غيرهم، وخص الأنصار وحدهم دون غيرهم بتنفيذ هذه المهمة. هذا الحصد هو ما بقي من خيارات استنفذتها قريش كلها.

أبو هريرة رضي الله عنه كلف بمهمة تجميع الأنصار.. ها هو يقول: «أقبل رسول الله ﷺ فدخل مكة، فبعث الزبير على أحد الجنبتين، وبعث خالد بن الوليد على اليسرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر فأخذوا الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبته، وقد بعثت قريش أوباشاً لها وأتباعاً لها فقالوا: نقدم هؤلاء فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا ما سألوا.

فنظر رسول الله ﷺ فرآني فقال: يا أبا هريرة.. اهتف بالأنصار، فلا يأتيني إلا أنصاري.

فهتف بهم: يا معشر الأنصار أجيبوا رسول الله ﷺ.

فجاؤوا كأنما كانوا على ميعاد، ثم قال: اسلكوا هذه الطريق، ولا يشرفن لكم أحد إلا أنمتموه[1]. فجاؤوا فأحاطوا برسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أما ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، وضرب بيده اليمنى مما يلي الخنصر وسط اليسرى وقال: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما يشاء أحد منا أن يقتل من شاء منهم إلا قتله، وما يوجه أحد منهم إلينا شيئاً»[2]

أما النبي ﷺ فقد أمر عمه العباس أن يأخذ زعيم قريش أبا سفيان إلى مكان، ليطل على ممر الجيش كله فيرى بعينيه قوات المسلمين، ويتأكد بنفسه من عدم جدوى المقاومة، والأهم.. حتى يتطاير ما تبقي لديه من شك في صدق محمد ونبوته.

يقول العباس مكملاً قصته: «قال رسول الله ﷺ: يا عباس احبسه بمضيق الوادي.. عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.

فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، ومرت به القبائل على راياتها.. كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم.

---

(١) أي من قاومكم فاقضوا عليه.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وابن حبان ١١-٧٤ والبيهقي ٩-١١٧ وابن أبي شيبة ٧-٣٩٧ وغيرهم واللفظ لابن حبان والزيادة للدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق سلام بن مسكين عن ثابت عن عبد الله ابن رباح عن أبي هريرة وهي زيادة صحيحة.

ثــم تمــر القبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقــول: مزينة. فيقول: ما لــي ولمزينة؟ حتى تعدت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان. فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى»[1]... حتى ماذا؟

كان أبو ســفيان ينتظر مرور النبي ﷺ محاطاً بالمهاجرين والأنصار، لأنه لا يزال يــرى أن تلــك القبائل ما هي إلا عبيد لمن غلب، وهــو يريد رؤية هذا الذي غلب، وهل بالإمكان مقاومته؟ بقي أبو سفيان متحرقاً حتى مر به سيل أسود كالموت.

النبي يمر أمام أبي سفيان

«مر رسول الله ﷺ في الخضراء، كتيبة فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منها إلا الحدق، قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟

قلت: هذا رســول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل.. لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً.

قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن»[2]

إلى هذه اللحظات الحاسمة وأبو سفيان لا يزال يصر على أن الأمر زعامة وملك، وقــد أعمى العنــاد بصيرته كما هي حال الكثير من أمثال أبي ســفيان، ممن يحملون أفكاراً معادية الإســلام.. إذا رأوا انتصار الإسلام ومده ينتشر كالطوفان، ويجرف ما تبنوه من أفكار متهالكة.. برروا انتشــاره وانتصاره بكل شــيء، إلا الاعتراف بأنه حق، ولا يمكن أن يسلم أمثال هؤلاء إلا إذا رأوا حكم الإسلام واقعاً مطبقاً، وقوة تحطم تلك الأكــداس والكثافة الغليظة من العناد، والتي لا يمكــن معها أن يصبح الفرد إلا معيقاً لكل إبداع، وفي الوقت الذي كان فيه أبو سفيان متحسراً على مجد وثني.. ينهار أمام عينيــه.. كان أول الناس إســلاماً أبو بكر الصديق رضي الله عنه أســعد الناس بهذا النصر العظيم، الذي شــارك في كل لحظة مــن لحظاته، وفي كل خطوة من خطواته، وها هو اليوم يحوم على الخيل يرتبها، وينظمها، ويشرف على تحركاتها.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس وقد مر معنا تحت عنوان فتح مكة.

(٢) سنده صحيح وهو الطريق السابق وقد تابع ابن إسحاق جعفر بن برقان.

لكن شيئاً ما يكدر صفو هذا النصر على أبي بكر.. ذلك هو والده الشيخ الطاعن في السن والعمى والشرك.. فأين هو الآن؟

أين والد الصديق

في الوقت الذي كلف النبي ﷺ أبا بكر بالإشـــراف على الخيل.. كان والده يرقبه مـــن بعيد رغم أنه أعمى، وبصحبته طفلة هي أصغـــر أخوات أبي بكر الصديق وذلك «لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لأصغر بناته: أظهريني على الجبل. وكان يومئذ أعمى.

قالت: فأشرفت به عليه، فقال: ما ترين؟ فقالت: سواداً مجتمعاً. فقال: تلك والله الخيل. قالت: وأرى بين يدي ذلك السواد رجلاً يسعى مقبلاً ومدبراً. فقال: ذاك الوازع -يعنـــي الذي يأمـــر الخيل ويتقدم إليها- وكان الوازع يومئذ أبـــو بكر ابن أبي قحافة. فقالت: وأرى أن ذلك السواد قد انتشر. فقال: قد والله دفعت الخيل فأسرعي.

فانحدرت به من الجبل وتلقته الخيل قبل أن يصل إلى بيته، وكان في عنق الجارية طوقاً لها من ورق، فمر عليها رجل فاقتطعه منها»[1] وذهب العقد ولكن هناك ما هو أهم من العقد بالنســـبة للعباس ابن عبد المطلب.. هناك قريش وأهل مكة، لكن يبدو أن أبا سفيان لا يزال مشدوهاً.. مأخوذ العقل بما يجري على ساحة كانت قبل ساعات ساحة يظللهـــا نفوذه، وتخضع لكلمته، وها هو اليوم لا يملك نفوذاً ولا كلمة. فأراد العباس أن يوقظه مما هو فيه من أوهام، فالخيل إلى مكة ومن عليها أكثر شوقاً ولهفة.

يقـــول العباس رضـــي الله عنه: «قلت النجاء إلى قومـــك. فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشـــر قريش.. هذا محمد قد جاءكم بما لا قبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس فبئس من طليعة قوم.

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن راهويه ١-١٣٢ والطبرني ٢٤-٨٨ وأحمد ٦-٣٤٩ حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر وقد مر معنا .

قال: ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا: ويلك وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن.. ومنْ دخل المسجد فهو آمن.

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد»[1] يطاردهم الموت في كل شبر طاردوا فيه النبي ﷺ وأصحابه..

ها هو الموت يحمله عشرة آلاف محارب تغص بهم مكة، وها هي طرقات مكة تخلو من أهلها الذين طالما نشروا الرعب والتعذيب والاضطهاد فيها.. هاهي طرقات مكة لا يسير فيها إلا مؤمن، وهاهي ساحاتها التي عذب فيها بلال وعمار وخباب تهتز فرحا وربيعاً بهم، وهاهو الشرك وأهله يفرون كالفئران إلى مساكنهم، وإلى المسجد الحرام، فقد عزلوا كالطاعون والأوبئة في تلك البيوت.

أحدهم يحمل متاعه، ويتسلل هارباً نحو آخر معاقل المشركين.. إنه وحشي قاتل حمزة عم النبي ﷺ وحبيبه.. لم يستطع أن ينعم بحريته التي حصل عليها، والتي دفع ثمنها غالياً جداً، ومع ذلك فهو يشعر بجبال مكة تتحول إلى حتف يكاد يطبق على صدره، ويشعر بفداحة جرمه، وكأن هؤلاء العشرة آلاف قد جاءوا للأخذ بثأر حمزة. لذلك فر وحشي إلى الطائف.

لنترك وحشي ولنتجه إلى الصحابة الذين يعودون إلى بيوتهم، ومراتع طفولتهم، وبيت ربهم دون قيد أو شرط، أو طعنة، أو ضربة سوط. أين أبو جهل وأبو لهب وأمية وعقبة ليشهدوا هذا المنظر، الذي عاشوا لاغتياله واغتيال من يتمناه؟

أما أبو سفيان فبعد أن لفته الفاجعة ذهب هذه المرة بنفسه خائفاً بعد أن قال ﷺ «احصدوهم حصداً.... فقال أبو سفيان: يا رسول الله أبيحت خضراء قريش.. لا قريش بعد اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فأغلقوا أبوابهم»[2] لكن:

(١) سنده صحيح مر معنا تخريجه تحت عنوان فتح مكة رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني ٨-٩ حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٤٠٥ وغيره مر قبل قليل وهو حديث أبي هريرة.

هذا الأمان لا يشمل أربعة من مشركي قريش

ربما لرفعهم السـلاح ومقاومتهم للمسلمين، وربما لجرائم شنيعة ارتكبوها، وقد استثناهم ﷺ وذلك «يوم فتح مكة.. أمن رسـول الله ﷺ الناس إلا أربعة وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح»[1].

ما مصير هؤلاء الأربعة الذين أهدر دمهم

خبر ورود هذه الأسـماء ضمن لائحة المطلوبين أمواتاً ينتشر الآن في مكة، وكلما انتشـر الخبر في مكان خسر هؤلاء مساحة من الأمن والأرض، حتى أصبحت مساكن مكة وطرقاتها، ووديانها وجبالها تضاريس للموت، والرعب الذي لا يطاق.

أما عكرمة بن أبي جهل وخليفة والده في حمل لواء العنف ضد الإسلام والمسلمين، فقد فر على وجهه من مكة حتى وجد نفسه أمام البحر«فركب البحر»[2]

وأما مقيس فيبـدو أنه لم يأخذ وقتاً طويلاً حتى قضي عليه، فقد «أدركه الناس في السوق فقتلوه»[3]

أما ذلك المرتد المدعو عبد الله بن أبي سرح، والذي كان أحد كتبة الوحي الذين تم الاستغناء عنه وعن كتابته، فهو مختبئ نادم على ما صدر عنه من سخافات، فالنبي ﷺ مازال حياً، والوحي لم ينقطع ينزل كل يوم، وجبريل يراجع لمحمد عليهما السلام كل عام ما نزل من القرآن، وبالتحديد في هذا الشهر (رمضان) من كل عام.. أما ابن أبي سرح

---

(١) حديث حسن وسنده ضعيف رواه ابن أبي شيبة وغيره عن طريق أسباط بن نصر عن السدي عن مصعب ابن سـعد عن أبيه. وأسباط له أخطاء وهو من رجال مسـلم وهو صدوق التقريب ٩٨ وشيخه أوثق منه: صدوق يهم أي أن حديثه حسـن إذا لم يخالف وهو من رجال مسـلم أيضاً ومصعب تابعي ثقة: التقريب ٥٣٣ لكن الحديث له شـاهد وهو مرسـل عكرمة ولم يذكر فيه عكرمة ويشـهد لذكر عكرمة حديث ابن أبي شيبة ٧-٤٠٢ وللحديث شاهد عند الطبراني ٦-٦٦ وغيره من طريق عمرو بن عثمان المخزومي وهو مقبول عند المتابعة حسب التقريب ٤٢٤ ثم وجدت له شاهداً يرفعه إلى درجة الحسن عند البزار: زوائد ٢٣٤٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس ومبارك والحسن ثقتان لكنهما مدلسان وقد عنعنا وحديثهما في هذه الحالة حسن بالشواهد.

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فقد خسر شرف الكتابة، وشرف الأمانة، وشرف الفروسية والنصر، وهو الآن يفتش عن ثقب إبرة يهرب من خلاله.

أما الشقي الرابع ابن أخطل فقد أغلقت في وجهه أبواب الهروب، ففر إلى الكعبة كخيار أخير للنجاة من الموت، وهو الآن متعلق بأستار الكعبة، وسنتركه معلقاً لنعود إلى النبي ﷺ كي نعرف آخر تحركاته.

إنه الآن على أبواب مكة، وهو يهم بدخولها هذه المرة من مكان يقال له: (كداء)، وهو في أعلى مكة، ومعه الرجل الذي حدد مكان الدخول.. صاحبه وشاعره حسان رضي الله عنه، وذلك قبل سنة أو أقل من هذا اليوم.

الشعر يحدد مكان دخول النبي لفتح مكة

تقول عائشة رضي الله عنها «إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخل من أعلاها»[1] «من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء»[2]

وركز رايته بجبل من جبال مكة يقال له (الحجون)، وأمر الزبير بن العوام رضي الله عنه بركزها هناك، كما أمر قوات خالد بن الوليد بالدخول من كداء أيضاً، لكن خالداً لقي مقاومة هناك، وقد خسرت قواته اثنين من الرجال رضي الله عنهما..

ها هو «العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبد الله هاهنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية. وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء، ودخل النبي ﷺ من كداء، فقتل من خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذ رجلان: حبيش ابن الأشعر، وكرز بن جابر الفهري»[3]

أما عن قصة ذلك التحديد فترويه لنا عائشة بنت الصديق رضي الله عنها فتقول: «إن رسول الله ﷺ قال: اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق بالنبل.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧٢ واللفظ الثاني عن ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٥٩ والصواب من أسفل مكة بالنسبة لخالد.

فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجهم فهجاهم. فلم يرض. فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه[1] فجعل يحركه فقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم.

فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله.. قد خلص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله. وسمعت رسول الله ﷺ يقول: هجاهم حسان فشفى واشتفى

قال حسان:

هجوت محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
هجوت محمد براً تقياً	رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء
ثكلت بنيتي إن لم تروها	تثير النقع من كنفي كداء
يبارين الأعنة مصعدات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات	تلطمهن بالخمر النساء
فإن أعرضتموا عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم	يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً	يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرت جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد	سباب أو قتال أو هجاء

(١) أخرجه من بين شفتيه.

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء»[1]

بهذا المستوى من الشعر يفتح الشاعر الإسلامي المستقبل على مصراعيه.. يرسم أشكالاً أرقى للحياة، ويعمق الشعور باللا مستحيل في حياة طاقتها يقين كالوحي. عندما قال حسان هذه الأبيات.. لبى شيئاً من طموح النبي ﷺ الذي لم يرتق إليه شعر ابن رواحة، ولا شعر كعب رضي الله عنهما، ومازال هذا الطموح حياً يطلق الشعر إلى تلك المستويات الغائبة المأمولة، ولئن كان للقرآن مسافات هائلة ومذهلة ومعجزة، إلا أنه لم يزح الشعر عن عرشه.. ترك له عرشه، لكنه قدم له تحدياً قاسياً أن يردم تلك المسافات الشاسعة بينهما. إذاً فالشعر في الإسلام إما أن يكون قطعاً لمسافات جديدة أو لا يكون.

القرآن اليوم يفتح مكة لينطلق منها إلى غيرها، فماذا سيقدم الشعر؟، وماذا سيفتح.؟ لا أدري لكنني اليوم أرى النبي ﷺ يفسح للشعر طرقاته.. هاهو يقول في طريقه لفتح مكة كلمات تحتفي بالشعر.. سمعها ابن عمر ورواها فقال: «لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح، رأى نساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم فقال: يا أبا بكر كيف قال حسان بن ثابت؟ فأنشد أبو بكر:

عدمت بنيتي إن لم تروها تثير النقع من كنفي كداء

ينازعن الأعنة مسرجات يلطمهن بالخمر النساء

فقال رسول الله ﷺ: ادخلوا من حيث. قال حسان»[2]

حسان الذي لم يكتف بجعل الشعر تعبيراً عن تجربة شعورية بصورة موحية، بل تجاوزها إلى جعله كشفاً وإضاءة للقادم، وتشكيلاً له. لا على طريقة المأخوذين

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٩٣٥.

(٢) سنده قوي الطحاوي في شرح المعاني ٤-٢٩٦ واللفظ له وآخره للحاكم ٣-٧٦ من ن قوله فقال رسول الله. من طريق إبراهيم بن المنذر بن الحزامي ثنا معن بن عيسى حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما نافع وعبيد الله ثقتان معروفان ومعن ثقة ثبت: التقريب ٥٤٢ وتلميذه صدوق من رجال البخاري: التقريب ٩٤ .

بالسياحة في الحلم، بل بأسلوب المأخوذين بإنجاز الحلم؛ كيف لا وهو يسير خلف هذا النبي العظيم، الذي ينحدر كالسيل نحو مكة العطشى، ولما وصلها لم يجد في طرقاتها سوى الهواء النقي، والذكريات الجميلة والمريرة. هنا ولد، وهنا كان يتهادى طفلاً نحو آمنة، وهنا كان يلعب مع أبي بكر وأصحابه، وهنا كانت أمه الحبيبة تناديه وتحمله وتلاعبه. هنا كان يسير مع جده وعمومته وأبناء عمومته.. هنا التقى بخديجة، وهنا تزوجا، وهنا ولدت زينب وفاطمة وأم كلثوم ورقية. من هنا جاء يركض.. يخبر خديجة عن جبريل، وهنا دعا الناس، وهنا كذبوه، وهنا صدقوه وناصروه، وهنا خذلوه وعذبوه.. هنا مكة.. ما أطيبها وأطيب ريحها.

ذكريات تطوف لا شك بروح أبي بكر وبلال وعمر وعمار وعلي وعثمان وخباب وصهيب، وبقية المهاجرين من مكة.. لا بد أن بعض الدموع والزفرات خالطت فرح السير في طرقاتها الجميلة، ومواكب الإيمان الجارفة ونشوة النصر العظيم لا تسكر الفرسان المؤمنين عن شكر الله وذكره..

يقول أحد الصحابة الذين كانوا يرقبون النبي ﷺ يوم الفتح وينصتون إليه: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع»[1] أي يردد القراءة.

كان لسانه وقلبه امتنان لله الذي أكرمه بنصره، وكانت طريقته وهو يتقدم ذلك الجيش الضخم.. المتزج بعظماء الرجال تنضح بالتواضع في أرقى صوره وأعظمها.. لم يكن ﷺ وحده على ناقته.. لم يكن مردفاً أبا بكر سيد المهاجرين، ولا سعد بن عبادة سيد الأنصار، ولا حتى سيداً من سادات العرب.. كان ﷺ يردف أميراً من أمراء الإسلام وشبابهم.. شاباً أسوداً صغير السن اسمه (أسامة بن زيد بن حارثة) وبجانبه صاحبه الحبشي بلال بن رباح، وهم في طريقهم نحو تحطيم الأصنام وتطهير الكعبة، لكنه كان أثناء الطريق يحطم أصنام الجاهلية داخل النفوس.. يحطم الفخر بالآباء والأجداد، ليشيد التنافس على الإنجاز والإبداع.. كان ﷺ وفي لحظات النصر يؤكد تمسكه بمبدأ المساواة التي طالما اختبأ خلفه الأدعياء، فإذا ما انتصروا تنكروا له.. مشهد جميل ورائع للنفوس المؤمنة والمتحضرة، لكنه لا شك يؤذي نفوساً غارقة في دبق الجاهلية والتخلف.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٠.

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلال»[1]

كان ذلـــك المنظر مفزعا لصناديد قريش وطغاتها، فشـــعر بعضهم بالموت رغم كل التطمينات التي قدمت لهم، فما المخرج من هذا الرعب الذي

طواغيت قريش يلوذون بالكعبة

فقد تفاقم الرعب داخلهم حتى ملأ أجوافهم، بعد أن ســـمعوا بقصة ابن أخطل، والتي يرويها لنا أنس فيقول: «إن رســـول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأســـه المغفر، فلما نزعه جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال: اقتلوه»[2]، فقتل، فالرجـــل لم يعلن توبته عما بدر منه ولم يطلب الرحمة، ولم يقبل دين الإســـلام.. كان عناداً كأبي جهل، وقد اســـتجار بقماش مطروح علـــى الكعبة، فلم يمنعه ذلك القماش من السيوف.

لكن صرخة دوت فطارت قلوب طواغيت قريش من الهلع.. صرخ صارخ من جيش المسلمين و(نادى مناد: لا قريش بعد اليوم.

فقال رسول الله ﷺ: من دخل دارا فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن.

وعمد صناديد قريش فدخلوا الكعبة فغص بهم)[3]وضاق برائحتهم وشركهم. لكن النبي عليه الســـلام أراد طمأنة مكة وتهدئـــة روع قريش، التي بدأت ترتعد من مصير ابن خطل، طمأنها مرة أخرى بحديث جميل.. ســـمعه ورواه لنا أحد المعنيين، واســـمه العاصي بن الأسود، فيقول: «سمعت النبي ﷺ يقول يوم فتح مكة: لا يقتل قرشي صبراً بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»[4] «لا تغزى مكة بعد هذا اليوم»[5] وقد قبض ﷺ على

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٦٥٥ ومسلم ٢-٩٨٩.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي في الكبرى ٩-١١٨، والطحاوي في شرح المعاني وسيمر معنا.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٤٠٩ وكلمة أبي عند الحاكم.

(٥) ســـنده صحيح رواه الحميدي ١-٢٦٠ ثنا ســـفيان قال ثنا زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي عن الحارث بن مالك بن البرصاء قال سمعت رسول الله يوم فتح مكة.. وهو سند مسلم في الحديث السابق مع اختلاف تلميذ زكريا وهو أحد الأئمة الثقات وكذلك الصحابي.

العاصي فعفا عنه، وغير اسمه، حيث يقول ابنه عبدالله: «لم يكن أسلم أحد من عصاة قريش غير [أبي] مطيع، كان اسمه العاصي، فسماه رسول الله ﷺ مطيعاً»(١)

لكن إذا كانت مكة لن تغزى كدولة غير مسلمة بعد اليوم، فإن حلفاء الإسلام بني خزاعة.. يريدون الاحتفال بفتحها على طريقتهم المفضلة، فتقدموا للنبي ﷺ بطلب أخذ الثأر من سبب كل هذا الذي يحدث اليوم، أي من بني بكر:

ثأر خزاعة من بني بكر

أرادت خزاعة الثأر ممن غدروا بها ونقضوا العهد والميثاق دون سابق إنذار وهم بنو بكر، فتقدموا بطلب إلى النبي ﷺ أن يأذن لهم بغزو بني بكر على ما فعلوه، فأذن لهم، لكنه حدد لهم فترة زمنية قصيرة تبدأ من الآن وحتى وقت العصر فقط. وقد أعلن ﷺ ذلك على الملأ مطمئناً قريش على أموالها ودمائها وأعراضها فقال «يوم فتح مكة: كفوا السلاح إلا خزاعة من بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال لهم: كفوا السلاح»(٢)

ويقول أحد الصحابة من بني خزاعة واسمه أبو شريح: «أذن لنا رسول الله ﷺ يوم الفتح في قتال بني بكر، حتى أصبنا منهم ثأرنا وهو بمكة، ثم أمر رسول الله ﷺ برفع السيف»(٣) وذلك بعد أن تم التخلص من ابن أخطل، وتنفس المشركون حياة أخرى، وخرجوا من بيوتهم آمنين، فانطلقوا للتفرج على مكة وهي مدينة إسلامية.. أما النبي ﷺ فتوجه نحو الكعبة، ليخلصها من أغلالها التي خنقتها ودنست طهارتها مئات السنين، ولم يكن يعلم أنها تغص بالظلمة والمجرمين، وكان برفقته هذان الأسمران العظيمان بلال وأسامة ابن زيد. فكم هو حجم الغيظ في قلوب أهل الأصنام، وهم يرون الإسلام يحتفي ببلال

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٩ وكلمة أبي عند الحاكم.

(٢) سنده قوي رواه ابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي.. يزيد ثقة متقن التقريب ٦٠٦ وشيخه ابن ذكوان ثقة: التقريب ١٦٦ وعمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده سند قوي مشهور.

(٣) في سنده ضعف رواه أحمد ٤-٣١ ثنا وهب بن جرير حدثني أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن مسلم بن يزيد أنه سمع أبا شريح. وسبب الضعف هو التابعي ابن يزيد فلم يوثقه سوى ابن حبان، لكن حديثه مقبول عند الشواهد فيشهد له ما قبله.

وأســـامة كل هذا الاحتفاء، ويقدمهما في ســـاعات النصر التي يتطاول لها زعماء العرب كلهم؟! وهم يرون الأحساب والأنساب لا تنفع مشركاً، ولا ترفع أنفه عن الوحل.

لكـــن ذلك كله يهون أمـــام تلك الخطوات التي كان ﷺ يمشـــيها نحو «ثلاث مائة وســـتون صنماً»[1] حول الكعبة وفوقها.. كان يمشـــي نحوهـــا، والمؤمنون ينتظرون هذه اللحظات منذ ســـنوات طويلة، لتفيق قريش ومن معها على حقيقة الوهم الذي عاشوه مئات السنين.

أما المشركون فينتظرون فاجعتهم بأصنامهم، ويطرقون السمع إلى صوت متوقع.. صوت:

تحطيم الأصنام

فقد «أقبل رســـول الله ﷺ عام الفتح على ناقة لأســـامة بن زيد حتى أناخ بفناء الكعبة»[2] ثم «أقبل رســـول الله ﷺ إلى الحجر فاســـتلمه، وطاف بالبيت في يده قوس أخذ بسية[3] القوس، فأتى في طوافه صنماً في جنبة البيت يعبدونه، فجعل يطعن بها في عينيه ويقول: جاء الحق وزهق الباطل»[4]

ربما كان هذا هو هبل الذي تغنى باســـمه أبو سفيان على أرض أحد.. ربما، لكن هـــذا الصنم ليس الوحيد الذي يزعج الكعبة والحرم ومكـــة. لم يكن وحده يلوث نقاء الحياة فيها، فقد كان «حول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً، فجعل يطعنها بعود في يده، وجعل يقول: جاء الحق وزهق الباطل»[5]..

ولمـــا انتهى ﷺ مـــن الطواف، وتم كنس بقايا تلك الأخشـــاب، ونثار تلك الحجارة التي كانت ملقاة على الكعبة وحولها.. اكتشـــف الوثنيـــون أنهم كانوا يعبدون نفايات..

---

(١) حديث صحيح رواه الشيخان وابن حبان ١٣-١٧٢ ولفظهما هو نصباً بدل صنماً.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٣) طرفها.

(٤) ســـنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٢٣٠ ثنا عبد الله بن هاشـــم ثنا بهز يعني بن أسد ثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال ثنا عبد الله بن رباح وقد سمعه من أبي هريرة ورواه أيضاً من طريق الربيع حدثنا سليمان.. به وســـليمان بن المغيرة ثقة من رجال الشـــيخين وكذلك ثابت وعبد الله ثقة من رجال مسلم فقط وقد مر الحديث تحت عنوان إسلام أبي سفيان.

(٥) صحيح البخاري ٢-٨٧٦ ومسلم ٣-١٤٠٨.

أجل نفايات، واليوم هو يوم النظافة.. جمعها المسلمون وقذفوها خارج الحرم، وربما في إحدى المزابل.

هذا هو الشرك ببساطة.. غابة من الكلام والهشيم والعناد ليس لها جذور، ويكفي للقضاء عليها عود ثقاب صغير.

كان المشهد عظيماً، وكان المسجد يغص بالمؤمنين المزينين بنصر الله وفتح مكة، وبالمشركين اللائذين ببيت الله من الموت، وكان هؤلاء المشركون على أحر من الجمر ينتظرون

بيان النصر الأول

فقد تناثرت الأصنام، وسيطر الجيش المؤمن على كل شيء فما هي لغة هؤلاء المنتصرين الجديدة، وما مصير هؤلاء الخائفين داخل الحرم وخارجه..؟

أسئلة أجاب عنها النبي ﷺ بعد أن صلى لله وحمده وأثنى عليه، وهو يمسك بخشبتي باب الكعبة عن اليمين والشمال، وذلك بعد أن «فرغ وصلى جاء فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: يا معشر قريش ما تقولون؟

قالوا: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم عاد عليهم القول..؟ قالوا مثل ذلك «يا معشر قريش ما تقولون؟ قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: يا معشر قريش.. ما تقولون؟ قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم»

قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم.. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[1]

سمع الطواغيت البيان رقم واحد، فكادت فرحتهم تفجر جدران الكعبة، فالأرض.. كل الأرض لا تتسع لهذا الفرح، ولا يجدون خجلا وحياءً، أو حتى أعذاراً تصمد أمام عفو محمد.

إذا كان لعظمة محمد عليه السلام مقاييس فتلك هي مقاييسها.. لا انتقام للذات، ولا للأهل والعشيرة.. لا انتقام لمن مزق أجساد حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله

---

(١) حديث صحيح مر معنا رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

ابن جحش، ولا نواح على تلك الطريقة الشنيعة التي شوهوا بها.. لم يأخذ سبايا ولا أموالاً، لكنه أخذ القلوب والعقول والأرواح.. ترك كل شيء لله، فمن أجله دعا، وفي سبيله حارب وحورب وانتصر، وهاهو يشرع أبواب الله لمن يريد الدخول فيها.. يشرعها بالعفو والصفح وطي الماضي بآلامه، والبدء من جديد لإعادة تشكيل الأرض ومن عليها.. هرول المشركون الطلقاء إلى النبي ﷺ «فبايعوه على الإسلام»[1] بعد أن تناثرت الأصنام وطهرت الكعبة من الخارج، فأراد النبي ﷺ تطهيرها من الداخل، فطلب مفاتيح الكعبة من العائلة التي شرفها الله بحجابة بيته وخدمته وسدانته.

من هذه العائلة وما هي قصة السدانة

باختصار شديد: كان في قريش زعيم يقال له (قصي)، حيث يتم في بيته كل أمر يهم القبيلة ويؤثر في مسارها، وكان له أربعة أولاد أكبرهم (عبد الدار) وأحدهم جد النبي ﷺ واسمه: (عبد مناف) فجعل قصي أمر الكعبة من اختصاص ابنه عبد الدار، الذي يقف حفيده بجانب النبي ﷺ واسم حفيده هذا: «عثمان بن عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار».. وهو يلقب الآن «الحجبي»[2] وكانت المفاتيح عند أمه، وهي مشركة وترفض تسليمها، فاستأذن لإحضارها.

يقول أحد الشباب المتشوقين لدخول الكعبة أن نبي الله ﷺ «دعا عثمان بن طلحة فقال: ائتني بالمفتاح فذهب إلى أمه.. فأبت أن تعطيه فقال: والله لتعطينه أو ليخرجن هذا السيف من صلبي.. فأعطته إياه فجاء به إلى النبي ﷺ فدفعه إليه ففتح الباب»[3] وكانت المفاجأة عندما خرج صناديد قريش من الكعبة وكأنما خلقوا من جديد.. (فخرجوا [كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام]»[4] فوجدوا رسول الله أرحم

---

(١) حديث صحيح مر معنا رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي هريرة وسلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٤) حديث صحيح مر معنا رواه النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢ والزيادة للبيهقي في الكبرى ٩-١١٨ من طريق سلام بن مسكين ثنا ثابت البناني عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة. سلام ثقة. التقريب ١-٣٤٢ وكذلك شيخه وشيخ شيخه التابعي ابن رباح.

بهم من أمهاتهم بعفوه وصفحه عنهم، ولم يكتف بذلك، بل دعا لهم بالمغفرة قائلا: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين..

وفتحت الكعبة له عليه السلام لكنه رفض دخولها.

لماذا رفض النبي دخول الكعبة

لقد شاهد مناظر كدرته.. شاهد الشرك متعفناً داخل الكعبة يلوثها، ويخنق براءتها.. شاهد صوراً وتماثيل هي بالنسبة لكثير ممن يعمرون القبور وينسون الإنسان تحفاً وآثاراً يجب الحفاظ عليها، لكن النبي ﷺ يقدم درساً علمياً لمن يجعلون من تلك الآثار وحياً لا يكذب.. درساً يقول إنها أعمال بشرية محضة تنبع من ميول الإنسان وخياله، وهواه وأساطيره وخرافاته، ولا تعدو إطلاقاً كونها عملاً فنياً يصدر عن ذات وميول من رسمها ونحتها.

رفض ﷺ دخولها حتى يتم تطهيرها تماماً و«أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت. فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال النبي ﷺ: قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها»[1] هذا هو مصير التماثيل، أما الصور المرسومة على جدران الكعبة «فوجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم، فقال: أما لهم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة. هذا إبراهيم مصور فما له يستقسم»[2] و«لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت»[3]

ثم دخل النبي ﷺ الكعبة.. لم يدخل معه أبو بكر ولا عمر ولا سعد بن عبادة، ولا غيرهم من كبار الصحابة.. دخل معه أسامة وبلال وسادن الكعبة « دخل النبي ﷺ وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة، وأمر بالباب فأغلق فلبثوا فيه ملياً»[4] «فكبر في نواحي البيت»[5]

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٦١.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٢٣.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٢٣.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٦٦.

(٥) صحيح مسلم ٤-١٥٦١.

يقول الشاب عبد الله بن عمر: «فمكثوا فيه ملياً، ثم فتح الباب فخرج النبي ﷺ، ورقيت الدرجة فدخلت البيت»[1] «فكنت أول من دخل فلقيت بلالاً، فقلت: أين صلى رسول الله ﷺ؟ فقال: بين العمودين المقدمين.

فنسيت أن أسأله كم صلى رسول الله ﷺ»[2].

استطاع الشاب ابن عمر أن يسبق غيره إلى الدخول إلى الكعبة، فقد كان نموذجاً حرفياً لسنة النبي ﷺ لا يحب الزيادة عليها ولا النقصان، فهي الكمال وهي النموذج، والناس تتأرجح صعوداً ونزولاً حولها. وبينما كان ابن عمر مأخوذاً بتطبيق سنة النبي ﷺ هرول من في المسجد نحو النبي ﷺ، أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد هرول خارجاً من المسجد.. يدفعه البر وتحمله الصلة. ثم عاد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، فوجده بعدما خرج من المسجد.. «أتاه أبو بكر بأبيه يعوده، فلما رآه الرسول ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟

قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه.

فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره ثم قال له: أسلم.

فأسلم ودخل به أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ ورأسه كأنه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: غيروا هذا من شعره.

ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد بالله وبالإسلام طوق أختي. فلم يجبه أحد. فقال: يا أخية احتسبي طوقك»[3]

ثم أخذ أباه «فأمر به إلى نسائه قال: غيروا هذا بشيء»[4]، أما عثمان بن عفان رضي الله عنه هذا الرجل المثال في صلته بأرحامه، فقد تهادى نحو النبي ﷺ، وبصحبته رجل يسحب خجله وعاره معه.. ذلك الرجل الذي خان الأمانة والثقة، ورضي بأكوام الحجارة، لكن السيف أعاد له رشده وما شرد من صوابه.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٦٧.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٧.

(٣) إسناده صحيح رواه ابن إسحاق حدثني يحيى بن عباد، عن أبيه عن جدته أسماء. وشيخه ووالده ثقتان، وقد مر السند في بدايات فتح مكة.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٦٦٣ أي غيروا لون الشيب الأبيض.

عثمان بن عفان يسحب عبد الله ابن أبي سرح للنبي ﷺ ذليلاً خائفاً تائباً معتذراً، ويلخص أحد الصحابة مصيبته وتوبته بكلمات فيقول «كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان، فلحق بالكفار فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره رسول الله ﷺ»(١).. وفي يوم آخر ولما انتهى ﷺ من مبايعة من بقي من الطلقاء الحاضرين، نهض نحو موعده مع الأنصار الكرام.. نهض نحو جبل الصفا ولما «أتى الصفا لميعاد الأنصار»(٢) حسب اتفاقه مع أبي هريرة أن يجمع له الأنصار عند ذلك الجبل، وتحت ذلك الجبل أحس الأنصار بمرارة لا تطاق.. شعروا بلهف النبي ﷺ على مكة وبيت ربه، وأشعرهم عفو النبي ﷺ عن قريش وكأن المدينة والأنصار في حالة وداع لا يحتمل، فكانت هذه القصة التي ترتب:

حب الأنصار ثم باقي البشر

أبو هريرة كان هناك.. حول الصفا يروي ويرتوي من ينابيع الحب فيقول أن النبي ﷺ: «أتى الصفا فعلاها حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه وجعل يحمد الله ويذكره، ويدعو بما شاء أن يدعو، والأنصار تحته..

يقول الأنصار بعضها لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي. فلما قضي الوحي قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار.. قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: قلتم أما الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟ قالوا: قد قلنا ذلك يا رسول الله. قال فما أسمى إذاً؟! كلا إني عبد الله ورسول الله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون يقولون: والله يا رسول الله ما قلنا الذي قلنا إلا للضن بالله ورسوله.

---

(١) سنده حسن رواه أبو داود ٤-١٢٨ حدثنا أحمد بن محمد (بن حنبل) ثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس. يزيد ثقة عابد: التقريب ٦٠١ والحسين ثقة: التقريب ١٩٦ وابنه حسن الحديث إذا لم يخالف. التقريب ٤٠٠.

(٢) هو حديث أبي هريرة السابق عند النسائي وغيره.

قال: فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم»[1] «فوالله ما منهم أحد إلا بل نحره بالدمــوع»[2] «قــال أبو هريرة: فرأيت الشــيوخ يبكون حتى بل الدمــوع لحاهم»[3] في حضرة هذا الوفاء الذي تسيل فيه الدموع، بعد أن عجزت الكلمات عن التعبير.

بهذا الوفاء غســل ﷺ قلوب الأنصار من الحزن، بعد أن غســل المســجد الحرام والكعبة من الشــرك والأصنام، وبتلك العبارات شــعر الأنصار أنهم سادة الدنيا، وأن مدينتهم غدت عاصمة الإسلام، حتى مكة أفضل بقعة على وجه الأرض.. غدت مدينة تابعة للمدينة المنورة.

أدرك الأنصــار كم هو وفي وعظيم هذا النبــي، وأن مصطلحات تعامله لا تعرف شــيئاً عن الجحود والنكران، وأدرك أبو سفيان ومن معه كم يرفع الإسلام أهله ويعلي قدرهم، فهو اليوم يرى نفسه ومن معه من صناديد قريش دون من سبقهم إلى الإسلام.. دون من تخلوا عن العناد والمكابرة وإغلاق العقول، وأدرك كذلك أن الإسلام وضع اليوم قدمه وقدم من أســلم معه على أول المضمار، وعليهم أن يبذلوا الكثير ليلحقوا بهؤلاء العظماء الذين اصطحبهم محمد ﷺ معه من المدينة وغيرها.

أمــا النبي ﷺ فقد أنهى كلماته تلك حيــث كان الوقت ضحى، ثم توجه نحو بيت ابنة عمه أبي طالب وهي أخت علي وتدعى (أم هانئ) كي يرتاح ويغتسل، ويغسل غبار الســفر والتعب عنه، وأخذ بصحبته ابنته فاطمة وزوجها علياً رضي الله عنهما، وقد جرت بعض الـ:

أحداث في بيت أم هانئ

تقول رضي الله عنها: «إنه يوم فتح مكة اغتســل في بيتها ثم صلى ثماني ركعات. قالت لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود»[4] وتقول رضي الله

---

(١) حديث صحيح رواه مســلم وأحمد ٢-٥٣٨ وابن أبي شــيبة ٧-٣٩٧ واللفظ له من طرق عن ســليمان بن المغيرة عن ثابت قال هاشم قال حدثني ثابت البناني ثنا عبد الله بن رباح.

(٢) هــذه اللفظــة صحيحة عند الدارقطني والحاكم ٢-٦٢ من طريق محمد بن الفضل عارم وهدبة بن خالد قالا حدثنا ســلام بن مســكين عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي هريرة وسندها صحيح. سلام ثقة: التقريب ٢٦١ وعارم ثقة ثبت التقريب ٥٠١.

(٣) هو جزء من حديث أبي هريرة السابق وهذه اللفظة عند النسائي في الكبرى ٦-٣٨٢.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

عنها عندما «كان نازلاً عليها: إن النبي ﷺ ستر عليه، فاغتسل في الضحى فصلى ثمان ركعات، لا يدري قيامها أطول أم ركوعها أم سجودها»[1]

وأثناء ذلك جاء رجل يرتجف من المشركين يقال له (ابن هبيرة) إلى أم هانئ، فاراً من الموت طالباً اللجوء والحماية، لكن كيف سينجو وعلي بن أبي طالب هو من يلاحقه!

تقول أم هانئ: «ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، فسلمت. فقال: من هذه؟ قلت: أم هانئ بنت أبي طالب. قال: مرحباً بأم هانئ.

فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فلما انصرف قلت: يا رسول الله.. زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرته (فلان بن هبيرة)؟

فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ. قالت أم هانئ: وذلك ضحى»[2] فالإسلام لا يفرق بين الرجل والمرأة في هذا الشأن، وللمرأة أدوارها العظيمة في الحياة الإسلامية، بشرط أن تعيها وترتقي إلى مستوى الإسلام في تفكيرها واهتماماتها.

ولما جاء وقت العصر أمر ﷺ بني خزاعة بالتوقف عن القتال.

يقول أحد الصحابة: «لما فتح على رسول الله ﷺ مكة قال كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال كفوا السلاح»[3] فكفوا السلاح.

انقضى العصر وانقضى القتال وجاء الليل فأين سينزل رسول الله ﷺ؟

طرح أسامة هذا السؤال على النبي عليه السلام فقال: «يا رسول الله أين تنزل غداً قال النبي ﷺ: وهل ترك لنا عقيل من منزل؟ ثم قال: لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن»[4]. أي أن النبي ﷺ لم يرث نصيب أبيه من تلك الدار، وكذلك علي رضي الله عنه لم يرث نصيب والده أبي طالب، فاستولى عقيل على نصيبيهما، لأنه لم يسلم.

(١) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٣٠ عن ابن جريج حدثنا ابن شهاب عن عبد الله ابن الحارث عن أم هانئ ابن جريج لم يدلس وابن الحارث قال علي بن المديني عنه: ثقة سمع من عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ... ومن أم هانئ - الجرح والتعديل ٥-٣٠.

(٢) صحيح مسلم ١-٤٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٢.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٥٦٠.

بحث ﷺ عن مكان يبيت فيه.. لم يصادر بيت زعيم أو صنديد، ولم يغتصب أرضاً ولا بيتاً ولا حتى خيمة بحجة أنه رأس الدولة الإسلامية، أو بحاجة أنه فاتح منتصر.

فقط نام حيث يسـر الله له، ولما جـاء الغد حدث خرق لذلك الأمر الذي أصدره النبـي ﷺ بوقف القتل والقتال، وقد قام بارتكاب تلك الحماقة رجل من خزاعة، ضد أحد رجال بني بكر، ولما وصل الأمر إلى النبي ﷺ غضب غضباً شـديداً، وأنكر ذلك العمل وأصدر:

البيان رقم (٢) للدولة الإسلامية في مكة

يقـول أحـد الصحابة: «لما فتح على رسـول الله ﷺ مكة قال: كفوا السـلاح إلا خزاعة عن بني بكر. فأذن لهم حتى صلوا العصر ثم قال: كفوا السلاح. فلقى من الغد رجل من خزاعة رجلاً من بني بكر بالمزدلفة فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ.

فقام خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله عز وجل كرم مكة يوم خلق السـماوات والأرض، فهي حرام من حرام الله تعالى إلى يوم القيامة..

لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد بها شجراً.. لـم تحلل لأحد كان قبلـي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه السـاعة غضباً على أهلها.

ألا ثـم قد رجعت كحرمتها بالأمس.. ألا فليبلغ الشـاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسـول الله ﷺ قد قاتل بها، فقولوا إن الله عز وجل قد أحلها لرسـوله، ولم يحللها لكم.

يا معشـر خزاعة.. ارفعـوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقـع. لئن قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قُتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله»(١)

«إن أعدى الناس على الله من عدا في الحرم

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه أحمد ٤-٣٢: حدثني سـعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الخزاعي. سعيد تابعي ثقة: التقريب ١-٢٩٧ وشيخه صحابي.

ومن قتل غير قاتله.

ومن قتل بذحول الجاهلية[1]

فقال رجل: يا رسول الله إن ابني فلاناً عاهرت بأمه في الجاهلية[2].

فقال: لا دعوة في الإسلام.. ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش[3]، وللعاهر الأثلب.

قيل: يا رسول الله.. وما الأثلب؟

قال: الحجر

وفي الأصابع عشر عشر[4]

وفي المواضح خمس خمس[5]

ولا صلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس.

ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها.

ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها[6]

وأوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة.

ولا تحدثوا حلفاً في الإسلام»[7]

وبعد أن انتهى من خطبته «ودى رسول الله ﷺ الرجل الذي قتلته خزاعة»[8] أي دفع دية الرجل المقتول من بني بكر، ثم حدد ﷺ عقوبة جنائية للقتل خطأ.

---

(١) أي قتل أحداً ثأراً.

(٢) أنه أنجب هذا الولد عن طريق الزنا.

(٣) الولد للفراش أي أن ولد الزنا ينسب لأمه فيقال فلان بن فلانة أما العاهر أي الرجل فله الرجم بالحجر.

(٤) أي من قطع إصبع أحد فدية كل أصبع عشر من الإبل.

(٥) الجرح الذي يوضح العظم.

(٦) لا يجوز للمرأة أن تنفق من مال زوجها إلا بإذنه.

(٧) حديث حسن رواه أحمد ٢-٢٠٧ وابن أبي شيبة ٧-٤٠٣ والحارث «زوائد» ٢-٧٠٩ وغيرهم من طرق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند قوي مشهور.

(٨) هو حديث ابن إسحاق وأحمد السابق وهو صحيح.

«فقـــال: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وهـــزم الأحزاب وحده.. الحمد لله الذي صـــدق وعده، ونصر عبده. ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي[١] هاتين، إلا ســـدانة البيت وســـقاية الحاج، ألا وإن قتيل خطـــأ العمد بالســـوط والعصا والحجر ديـــة مغلظة مائة من الإبـــل، منها أربعون في بطونها أولادها»[٢]

توالت التوبة تلو التوبة، والبيعة تلو البيعة، وأعطي الطلقاء فرصة كبيرة للتفكير والتروي ومراجعة النفس، والتعود على حياة صافية دون أصنام أو أوثان أو خرافات، لذلك:

قرر النبي ﷺ البقاء في مكة

لمدة تكفي لإذابة ما بقي في نفوس الطلقاء من بقايا الجاهلية.

يقول أحد الصحابة «أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين»[٣] الظهر ركعتين، والعصر والعشاء كذلك، أما المغرب والفجر فليس فيهما قصر، وكان من عادة النبي ﷺ أن يقصر الصلاة إذا خرج من المدينة مسافة تقارب الثلاثين كيلومتراً.

يقول أنس بن مالك «كان رســـول الله ﷺ إذا خرج مســـيرة ثلاثة أميال، أو ثلاثة فراســـخ صلى ركعتين»[٤] والقصر هو أن يؤدي الصلاة ذات الأربع ركعات ركعتين بدلاً من أربع طوال أيام السفر، وهذا ما فعله النبي ﷺ مدة بقائه في مكة، حيث كانت تلك الأيـــام عبارة عن إعطاء الطلقاء فرصة لتغييـــر الزاوية التي كانوا ينظرون من خلالها

---

(١) أي باطلة لا قيمة لها.

(٢) بين كلمة: بالعمد والســـوط قال الراوي: «قال هشيم مرة». سنده قوي رواه أحمد ٣-٤١٠ من طريق خالد الحذاء عن القاسم بن ربيعة بن جوشن عن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: وعقبة تابعي صـــدوق التقريب ٢-٢٦ وتلميذه تابعي ثقة: التقريب ٢-١١٦ وخالد بن مهران تابعي صغير ثقة: التقريب وللحديث شواهد تقوية.

(٣) رواه البخاري ٤-١٥٦٤.

(٤) صحيح مسلم ١-٤٨١. وبعد كلمة فراسخ قال الراوي: «شعبة الشاك» أي الذي تردد في الجزم بأنها ميل أو فرسخ هو شعبة بن الحجاج وليس أنس فيؤخذ بالأكثر لأنه لا شك فيه والفرسخ مسافة تقارب ثمانية كيلومتـــرات. أمـــا الحديث الذي يرويه عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه وعطاء بن أبي رباح عن بن عباس أن رســـول الله ﷺ قال: يا أهل مكة لا تقصروا الصلاة في أدنى من أربعة برد من مكة إلى عســـفان، أي ثمانين كيلو متر، فهو حديث مكذوب، لأن عبد الوهاب كذاب

إلى النبي ﷺ.. زاوية الحسب والنسب والقبيلة، والعادات والتقاليد والتنافس والثأر، لينتقلوا إلى زاوية أخرى.. حيث الصفاء والعقل والاتزان، والتجرد من أثقال الموروثات البالية. تسعة عشر يوماً يفز فيها أكثر من عشرة آلاف مؤمن للصلاة يحيطون بالكعبة، ويملأون البيت الحرام خمس مرات في اليوم والليلة في سكون، وحركات خاشعة رائعة موحدة راكعة ساجدة، خلف رجل واحد هو محمد ﷺ.

مشهد مهيب وجليل اختفت فيه الأصنام والأزلام، وبقي فيه التوحيد نقياً دون شوائب.. مشهد مهيب أخذ عقول الطلقاء إلى المقارنة بين صلاة هؤلاء المؤمنين الخاشعين الراكعين الساجدين، وبين صلاتهم المليئة بالجهل والتخلف والهمجية ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي ما كانت صلاتهم إلا تصفيراً وتصفيقاً كما كانت تعرياً أيضاً، وقد تمكن ﷺ من استمالة كل مكة إلى الإسلام في تلك الفترة القصيرة، حتى هذه المرأة.. زوجة أبي سفيان التي كانت تحمل ضد النبي ﷺ وأصحابه ثارات وأحقاداً سوداء.. تتجه إليه مختارة طائعة، لتبايعه بعد أن أذهلتها أخلاق النبي ﷺ وسماحته وعدالته عن كل ما مضى.

تقول عائشة رضي الله عنها: «جاءت هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله.. ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك.

قال: وأيضاً، والذي نفسي بيده. قالت: يا رسول الله.. إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: لا أراه إلا بالمعروف»(1) أي خذي من ماله قدر ما تعارف عليه الناس من مصروف.

إن إسلام هذا الكم من البشر دون إكراه.. دون تصفية حساب أو ثأر في هذه الفترة القصيرة التي لا تتجاوز الأسبوع.. يوحي بأن ثقافة هذا المنتصر مقنعة وجميلة ومعجزة، وأنها لا تحتاج إلى الكثير من العناء للقبول بها، فكل أدوات العناد الهزيلة لا تستطيع التماسك أمامها، أما إذا كان من يحملها دون سلطان أو دولة، فالثقافة المقنعة تحتاج إلى رجال كمحمد ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار يحملونها بسلوكهم،

---

(1) صحيح البخاري ٣-١٣٩٠. ومعنى مسيك: أي بخيل

وتعاملهم ورحمتهم، لا بالتزامهم في جانب العبادات فقط. فالعبادة بين الإنسان وبين ربه، وقد تقنع فئة قليلة من أصحاب العقول وممتازي البشر، أما دهماء الناس فتنتظر وتنظر دائماً إلى من يقدم لها شيئاً يروي غليلها، ويحقق أحلامها بسلوكه وإنجازه.. عندها يجد التوحيد دروباً فسيحة نحو النفوس، وهذا ما يفعله محمد ﷺ وصحبه الكرام اليوم على أرض مكة وتحت سمائها.

هاهو أحد الرجال القادمين لرصد الأحداث يعود إلى قومه محملاً بالإيمان، فيروي ابنه الصغير بغبطة قصة عودة والده، وقصة المجد الذي توجه به قومه رغم صغر سنه.. أتذكرونه، إنه عمرو بن سلمة ذلك الطفل قصير الثوب المشغول بملاحقة القوافل وحفظ هذا الكلام الجديد (القرآن). ها هو يحدثنا عن براءته وثوبه القصير فيقول: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله.. أوحى إليه أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح[١] فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق.

فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقاً. فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآناً. فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني، لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين. وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني[٢]. فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا است[٣] قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»[٤]

فرح الطفل الإمام بثوبه الجديد كعادة الأطفال، ولم يأنف قومه من إمامة طفل لهم في الصلاة، لأن الإسلام يريد ذلك ويستحبه، أما على أرض مكة فما زال المبايعون

---

(١) أي كانت القبائل تنتظر فتح مكة لتعلن إسلامها.
(٢) أي انكشفت عورته لأن ثوبه كان قصيرا جداً.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.
(٤) أي عورته.

والطلقـــاء يتوافـــدون على النبي ﷺ، أما المهاجرون والأنصـــار فلم يكن همهم الاحتفال بانتصارهـــم على أرض مكة، ولا اســـتعراض ســـبقهم على طرقاتها.. كانت أنفاســـهم وابتســـاماتهم أطواق نجاة لمن حولهم، وكانت كلماتهم بســـاتين كرم للمتعبين.. ينطلقون في اتجاه كل عقل حائر، وكل قلب متعب بالشرك والضياع، فكما نجح أبو بكر مع والده أسرع البقية إلى من بقي من أرحامهم، بل إن من دخل منهم الإسلام يقوم بعرض قناعته على غيره، وهاهو أحدهم ويدعى مجاشـــع بن مســـعود يبايع النبـــي ﷺ ويقول: «أتيت النبـــي ﷺ أبايعه على الهجرة، فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإســـلام والجهاد والخير»[1] ثم يتجه مجاشع إلى أخيه فيقنعه ويأخذ بقلبه إلى النبي ﷺ، ويقول: «جئـــت بأخي أبي معبد إلى رســـول الله ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رســـول الله بايعه على الهجـــرة. قال: قد مضت الهجرة بأهلها. قلت فبأي شـــيء تبايعه؟ قال على الإســـلام والجهاد والخير»[2] فقد «قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا اســـتنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق الســـماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة مـــن نهار، فهو حـــرام بحرمة الله إلى يوم القيامة.. لا يعضد شـــوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها[3] ولا يختلى خلاها، قال العباس: يا رســـول الله.. إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم قال: قال: إلا الإذخر»[4] وهو (حشيش طيب الريح أطول من الثيل)[5]

وقد وافق ﷺ على استثناء الإذخر لحاجة أهل مكة له، أما ما عدا ذلك فلا يجوز لأحد داخل منطقة الحرم قطع شجر، أو مطاردة صيد، أو حتى التقاط شيء ضائع إلا لإيصاله إلى أهله، أو تسليمه لمن يتولى إمارة الحرم.. كان الصحابة يستمعون بإنصات إلى تلك التعليمات وفجأة قال النبي ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٣) أي من وجد شيئا ضائعا في مكة فلا يجوز له أن يأخذه، إلا لكي يبحث عن صاحبه. ومعنى يختلى خلاها أي لا يقطع ولا يزال نباته الذي ينبت من نفسه.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦٥١.

(٥) لسان العرب ٤-٣٠٣.

اكتبوا لأبي شاه

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين:

إما أن يفدى وإما أن يقتل.

فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إلا الإذخر. فقام أبو شاه "رجل من أهل اليمن" فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه»[1]

وهو إذن منه ﷺ لمشروع تدوين أقواله وأفعاله وتقريراته، حتى لقد تحدث راوية الإسلام أبو هريرة عن امتثال المأخوذين بالرواية فقال «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»[2]

وبعد أيام بيضاء في مكة، هاجت الذكريات بالحبيب ﷺ، وهزه الشوق إلى مراتع الصبا وذكرياتها الجميله.. اهتز قلبه إلى ذكرى آمنة الحنون، فاتجه إلى قبرها، فكانت الدموع هي الكلمات، وكان الحزن يملأ الجميع.

أحد الصحابة حضر الحدث ورواه فقال: (لما فتح رسول الله ﷺ مكة أتى حرم قبر، فجلس إليه فجعل كهيئة المخاطب، وجلس الناس حوله فقام وهو يبكي. فتلقاه عمر وكان من أجرأ الناس عليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ قال: هذا قبر أمي سألت ربي الزيارة فأذن لي، وسألته الاستغفار فلم يأذن لي، فذكرتها فذرفت نفسي فبكيت. فلم ير يوما كان أكثر باكيا منه يومئذ)[3]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٨.

(٢) صحيح البخاري ١-٥٤.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٣ - ٢٩ حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال، وفي حديث الأسدي عن سفيان الثوري شيء رغم أنه ثقة ثبت، لكنه لم ينفرد، فقد توبع. والحديث مر معنا في وفاة آمنة

طوى عليه السلام ذكرياته وأحزانه، واتجه إلى مكة ليجعل منها واحة للمتعبين.. ينشر فيها التوحيد والعدل والحب والنظافة، يعيد تكوينها بالإسلام، ويعيد لها طهرها، وفي سط هذا الاسترخاء الجميل على سواحل الإسلام، وتحت أشعة شمسه الساحرة كان التوتر يسود مناطق قريبة من مكة، وبالذات تلك المناطق التي تقطنها قبيلة هوازن الهادئة المسالمة.. والشجاعة أيضاً.

هوازن متوترة

فقد أربكتها الإشاعات التي ترددت حول جمع النبي ﷺ لعشرة آلاف مجاهد، وأثارت مخاوفها تلك الحشود.. كانت التخمينات قد ذهبت بهوازن بعيداً، فظنت أن النبي ﷺ يقصدها بذلك الجيش الكاسح، فاستعدت لنزاله استعداداً انتحارياً، ولا أدري من الذي وسوس لها وحرضها، وهي القبيلة التي لم يشهد تاريخها أي تصرف يحسب ضدها. وقد شاركتها هذا الخوف قبيلة ثقيف، وهي أيضاً لم تقم بأي نشاط معاد للنبي ﷺ، سوى ذلك الموقف الذي صدر من بعض رجالها قبل الهجرة. لكن المبادرة جاءت من هوازن فهي الآن «على بكرة أبيها، بظعنها ونعمها وشائها هي في وادي حنين»[1] لم يبق منها ذكر ولا أنثى إلا توجه نحو وادي قريب من مكة يسمى وادي حنين، وقد اختبأوا «في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[2]

كل هذا كان يجري في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه ينعمون بأجواء مكة الهادئة الجميلة، ويقترب عيد الفطر فيخرج المسلمون زكاة الفطر للفقراء والمساكين في مكة، ويواسونهم بطريقة لطيفة لم يتعودوا رقتها من قبل، ويأتي العيد فيصلي المسلمون ﷺ العيد، ويخطب النبي ﷺ بأكثر من عشرين ألفاً من المسلمين والمسلمات، ثم يحتفلون بعيد

---

(١) سنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٤-١٠٦ والنسائي في الكبرى ٥-٢٧٣ وغيرهما من طريق: معاوية بن سلام عن جده أبي سلام عن أبي كبشة السلولي عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه فأبو كبشة تابعي كبير ثقة: التقريب ٢-٤٦٥ وتلميذه تابعي ثقة أيضاً من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٧٢ ومعاوية ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢-٢٥٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه: عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ١-٤٧٥ وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٨٥.

الفطـــر لأول مرة في مكة، فيرى الطلقاء كم هو جميل هذا العيد بالإســـلام، وكم هو جميل هذا الإسلام الذي ينشر النظافة والفرح والحب، كم هو جميل هذا الدين الذي طالما أغواهم العناد والشيطان بتشويهه، ويرى الطلقاء هذه الاحتفالية الإسلامية المدهشة، فمكة صاخبة بالحركة والحب والتراحم، أكثر من عشـــرين ألفاً يفزون جميعاً خمس مرات يومياً للصلاة، ثم يرونهم بعد أداء الصلاة حول المســـجد يتحادثون بـــود.. يتبايعون بأمانة، ويقرضون دون ربا، ويتصدقون، ويواســـي بعضهم بعضاً، ويقضون أوقاتاً ممتعة ومرحة تدخل البهجة على النفوس.. أهذه مكـــة التي كانت قبل أيام بطيئة مملة كئيبة خائفة وملوثة الأجواء بالأصنام والطبقيـــة والعنصرية والربا والأحقـــاد؟!! لو لم يكن هذا الرجل نبيـــاً لما تغيرت مكة بهذه الطريقة المعجزة، ولو بعد آلاف السنوات.

لكن هذه الأجواء الساحرة تظل بشرية بحتة، إنما موجهة بالوحي النقي والعادل، ومـــا دامت بشـــرية فلا بد من الزلـــل والخطأ، وقد حدث ذلك عندمـــا أقدمت امرأة مخزومية على السرقة، فكانت سرقتها رحمة للمسلمين، ودرساً جديداً للطلقاء.

الجريمة والواسطة

حددت المرأة السارقة، واعترفت بجريمتها.. كانت من قريش «كانت امرأة مخزومية تســـتعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها»[1] «فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم ســـلمة زوج النبي ﷺ»[2] بعد أن عرفت أن عقوبة الســـرقة هي قطع اليد، وانتشر خبر السرقة في مكة، فاهتز الطلقاء لقطع يد امرأة من أعرق قبائل العرب، لكن تلك النعرة تفتتت أمام العدالة كالجذع المتآكل.

عندها توجه أشـــرف الطلقاء وأرفعهم نســـباً متنازلين إلى شاب يتيم أسود اللون يدعى (أسامة بن زيد) لكي يتوسط عند رسول الله ﷺ لإسقاط حد السرقة عن تلك المرأة، نظراً لمكانتها الاجتماعية، ولأن في تطبيق الحد عليها مساســـاً بتلك المكانة في نظرهم، توجه أولئك الصناديد إلى شـــاب كانوا يرونه قبل أن يسلموا مجرد عبد وابن عبد. لكنه الإسلام يرفع الله به من اعتنقه.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

تقول «عائشة زوج النبي ﷺ: إن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسو الله ﷺ.

فأتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟

فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد.. فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها»[1]

عندها تعلم الطلقاء درساً جديداً اسمه المساواة أمام الشريعة والنظام الإسلامي، بعد أن استوعبوا المساواة في التعامل والمكافأة، وأيقنوا أنهم أمام وحي لا يزحزحه شيء، فليس بعد فاطمة من قرابة، والقضية لا تتعلق بشخصين أو ثلاثة يمكن التفاهم حول ما أخذ أحدهما من الآخر، بل يتعلق بأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وبالتالي فهو يتناول بشكل خطير أمن الدولة برمتها، فالدولة التي لا تجيد التعامل مع الجريمة لا تستحق أن تسمى دولة، والحياة فيها لا تعرف معنى للرفاه والاستقرار.

لكن تنفيذ العقوبة في الإسلام لا يعني سوى تنفيذ العقوبة فقط، ثم يعود المذنب بعدها بريئاً ليواصل مع غيره مسيرته في الإبداع والإنجاز.. في موكب هذه الدولة العادلة المنطلقة لآفاق الأرض. هذه المرأة لم تُمسح من ذاكرة الأمة، ولم تصادر حقوقها في المواطنة، ولم يكتب في سجلها أنها صاحبت سوابق. هي امرأة أخطأت ونالت عقابها وانتهى الأمر، لقد تابت فـ: «قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ»[2]..

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

وقد كان بإمكان أهلها، ومن يهمه أمرها طلب الشفاعة من صاحب المال المسروق، قبل أن يصل الأمر إلى إمام المسلمين وقائدهم وقاضيهم ﷺ، لكن عند وصول الشكوى إلى الإمام تكون الشـفاعة قد وصلت إلى طريق مسـدود، عندها تتحول الشفاعة في هذه الحالة إلى كبيرة قال عنها النبي ﷺ: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجل فقد ضاد الله في أمره»[1]

كان تطبيق هذا الحد يعني أشياء كثيرة منها:

تسـليم الجميع بوجود دولـة عظيمة ذات نظام يرتب حياتهـا، وينطلق بها مادياً وروحياً، وكان من ضرورات النظام الجديد إزالة كل شوائب الجاهلية وآثارها، التي قد تسـبب ارتكاسة للأمة في الحاضر أو المستقبل، ومن أجل ذلك لم يأمر ﷺ بقطع يد إحدى النساء بل أمر بقتلها.. فلماذا:

النبي ﷺ يأمر بقتل امرأة

هذه المرأة لم تسـرق مالاً، ولم تقتل إنسـاناً.. فقط اكتفت بجر الأمة إلى هاوية الشـرك. تلك هي العزى التي هتف أبو سفيان باسمها بعد انتهاء غزوة أحد، فما هي العزى، ومن بعث ﷺ من شجعانه للقضاء عليها؟

أحـد الصحابة يحدثنا فيقول: «لما فتح رسـول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى، فأتاها خالد بن الوليد وكانت على تلال السمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع فإنك لم تصنع شـيئاً. فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة، وهم حجابها، أمعنوا في الجبل وهم يقولون:

يا عزى خبليه..

يا عزى عوريه..

وإلا فموتي برغم..

---

(١) سـند صحيح رواه أحمد ٢-٧٠ وغيره من طريق زهير بن معاوية ثنا عمارة بن غزية عن يحيى بن راشـد عن ابن عمر سـمعت رسـول الله. وعبد الرزاق ١١-٤٢٥ وغيره من طريق معمر عن عطاء الخراسـاني عـن ابن عمر.. زهير ثقة: التقريب ٢١٨ وعمارة لا بأس به من رجال مسـلم: التقريب٢-٥١ ويحيى ثقة: التقريب ٥٩١.

فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشـــرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره قال: تلك العزى»[1]

ولا أدري هـــل هذه المرأة من الســـحرة المشـــعوذين، أو من مدعـــي الألوهية، لكن القضاء عليها كان من حتميات العقيدة الإســـلامية، وإلا فلا معنى للرسالة والنبوة إذا تركت تنشر خزعبلاتها وضلالاتها دون عقاب، فكم سفك من الدماء باسمها.

لكـــن في طريق الدولة الإســـلامية الجديدة ما هو أخطر مـــن العزى، فالعزى لم تحتمل أكثر من ضربة بالسيف.

هذه الدولة تواجه الآن آخر خطر يقبع في طريقها، وهو ذلك الحشـــد الهائل من هوازن، فقد علم النبي ﷺ بتلك التحركات فأرسل جاسوساً ذكياً من أصحابه.. يرصد تحركاتهم وأخبارهم، اسمه عبد الرحمن بن أبي حدرد السلمي رضي الله عنه.

عن ذلك يتحدث جابر بن عبد الله، الذي لم يتخلف عن أي غزوة منذ استشـــهاد والده العظيم فيقول إن النبي ﷺ: «لما فرغ من فتح مكة، جمع مالك بن عوف النصري من بني نصر، وجشم ومن سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر، وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف وبنو مالك، ثم ســـار بهم إلى رسول الله ﷺ مع الأموال والنساء والأبناء.

فلما ســـمع بهم رســـول الله ﷺ بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي فقال: اذهب فادخل بالقوم، حتى تعلم لنا من علمهم.

فدخـــل فمكث فيهم يوماً أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر، فقال رســـول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟ فقال: عمر كذب ابن أبي حدرد.

فقال ابن أبي حدرد: إن كذبتني فربما كذبت من هو خير مني.

---

(١) ســـنده حســـن رواه أبو يعلى ٢-١٩٦ والنســـائي في الكبرى ٦-٤٧٤ وغيرهما من طريق محمد بن فضيل حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال.. الوليد حسن الحديث من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٣٣ والوليد عن أبي الطفيل على شرط مسلم: (٣-١٤١٤ و٤٢١٤٤) وقد توبع في المختارة ٨-٢٢٠ من طريـــق أبـــي يعلى الموصلي ثنا عبد الله بن عمر بن أبان ثنا عبد الله بن المبارك أخبرني عبيد الله بن أبي زياد عن أبي الطفيل ولعل الضياء رحمه الله قد وهم في هذا السند (انظر صحيح الموسوعة).

فقال عمر: يا رسول الله.. ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟

فقال رسول الله ﷺ: قد كنت يا عمر ضالاً، فهداك الله عز وجل.

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية، فسأله أدراعاً مائة درع وما يصلحها من عدتها، فقال: أغصباً يا محمد؟

قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، ثم خرج رسـول الله ﷺ سائراً»[1] بعد أن عين أميراً على مكة.. صحابي اسـمه: عتاب بن أسـيد، ويبدو من لغة الحوار بين النبي ﷺ وصفوان بن معطل أن صفوان لا يزال على جاهليته، أو أنه أسلم مجاملة.

أخذ ﷺ الأدراع ثم خرج ﷺ إلى:

غزوة حنين بين مكة والطائف

بعـد أن تجهز بجيش كبير مؤلف من عشـرة آلاف مجاهـد قدموا معه قبل الفتح، بالإضافة إلى أعداد غفيرة من الطلقاء الذين أسـلموا بعد فتح مكة، وفي الطريق نطق بعض الصحابة المخلصين من الطلقاء ممن أسلم حديثاً، بكلام ينسف ما خرج النبي ﷺ من أجله، بل وما بعث من أجله..

بعض الصحابة يريد تقليد المشركين

يقول أحد المشـاركين في تلك الغزوة واسمه الحارث بن مالك: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثوا عهد بالجاهلية، قال: فسـرنا معه إلى (حنين) وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

فرأينا ونحن نسـير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله.. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقـه الحاكم ٣-٥١: حدثني عاصم بن عمـر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ سـار إلى حنين. عاصم وشـيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٨٦ و٣٣٧ لكن له شاهد عند ابن أبي شيبة ٧-٣٤٨ عن عبد الله بن أبي الهذيل مرسلاً.

قال رسول الله ﷺ: الله أكبر؛ قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»[1] أي سوف تقلدون اليهود النصارى في بدعهم.

صحح النبي ﷺ تلك الزلة، ثم أخذ صحابته نحو حنين، «ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير حتى كانت عشية فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله.. إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله، ثم قال: من يحرسنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: فاركب. فركب فرساً له فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نغرن من قِبَلِكَ الليلة[2].

فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين ثم قال: هل أحسستم فارسكم؟ قالوا: يا رسول الله.. ما أحسسناه. فثوب[3] بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب[4]، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم.

فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ، فسلم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب.. حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً. فقال له رسول الله ﷺ هل نزلت الليلة؟ قال: لا إلا مصلياً أو قاضياً حاجة. فقال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت[5]، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[6]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (السيرة النبوية ٥-١١٠) حدثني ابن شهاب الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي أن الحارث ابن مالك.. الزهري إمام ثقة مر معنا كثيراً وشيخه تابعي ثقة من رجال الشيخين والبقية صحابة.

(٢) أي احذر أن تسهو فيفاجئنا العدو من الجهة التي تراقبها.

(٣) نادى للصلاة.

(٤) كان يلتفت لأنها صلاة خوف.

(٥) أي فعلت فعلا يوجب دخولك الجنة.

(٦) سنده صحيح مر معنا تحت عنوان: هوازن متوترة وهذا لفظ أبي داود ٣-٩ والحديث من طريق معاوية ابن سلام عن زيد بن سلام سمع أبا سلام حدثني أبو كبشة حدثه سهل..

بشر النبي ﷺ صاحبه بثواب عظيم لا يضره معه -ربما- أن لا يقوم بشيء من النوافل، كما بشر أصحابه بالنصر والغنائم الهائلة التي ساقتها هوازن معها بتهور وانتحارية غير معهودة، ولم تكن هوازن وحدها فقد انضمت إليها قبيلة أخرى.

غطفان وغيرهم ينضمون إلى هوازن

استطاع زعيم هوازن مالك بن عوف أن يحرض من بقي من المشركين حوله على قتال النبي ﷺ والقضاء عليه بعد أن فشلت قريش في ذلك، فقد «جمع مالك بن عوف النصري:

من بني نصر

وجشم

ومن سعد بن بكر

وأوزاع من بني هلال

وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر

وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف

وبنو مالك.

ثم سار بهم إلى رسول الله ﷺ وسار مع الأموال والنساء والأبناء»[1] ولم تكن غطفان وغيرها أقل انتحارية ولا أقل حماساً في الاستعداد للجيش المسلم فـ:

ماذا أحضر المشركون معهم

لا يصدق المرء ما قام به مالك بن عوف ومن معه من زعماء المشركين في حشدهم لقتال النبي ﷺ، فقد شل محمد ﷺ وأصحابه تفكيرهم، فأقدموا على إحضار النساء والأطفال وكل حيوان أليف تملكه هوازن وغطفان.

---

(١) سنده صحيح وهو حديث ابن إسحاق السابق عن جابر ومن طريقه رواه الحاكم ٣-٥١.

يقول أحد الصحابة المشاركين رضي الله عنهم: «لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف ومن الطلقاء»[1]

إن أشخاصاً فعلوا هذا لا يمكن وصفهم إلا بالتهور، فالحكيم يخوض الحرب وهو يحسب حسابات النصر والهزيمة معاً، فإن انتصر فقد حقق ما يريد، وإن خسر فلا بد من خاسر والأيام تمنح له أكثر من فرصة، لكن مالك زعيم هوازن الآن رجل المغامرة والمقامرة.. رجل الفرصة الواحدة.. ربما لثقته ببسالة جيشه. ولم يكن المسلمون أقل ثقة منهم، فقد أعجبتهم كثرتهم حتى خيل لبعضهم أن لا أحد يستطيع أن يهزمهم بعد اليوم.

أخبرنا الله سبحانه عن تلك المعنويات فقال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ لدرجة أن «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً ليس عليهم سلاح، أو كثير سلاح»[2] هذه الكثرة قد ترفع المعنويات، لكنها قد تسحب خلفها غروراً يكبد الكثير من الضحايا والخسائر، فالنصر من عند الله، لكنه لا يتحقق إلا بمجهود بشري أمر الله بتنفيذه بدقة، ولن ينصر الله جيشاً مسلماً مفرطاً متهاوناً، أو مخالفاً للأوامر، أو غير مستعد. لذلك لا بد من تلافي الأخطاء التي تكلف أثماناً باهظة.. حتى لا يقع الجيش المسلم في فخ غزوة أحد مرة أخرى.

تعالوا نقرأ تفاصيل حنين، ففيها الكثير من المفاجآت.. تعالوا إلى:

وادي حنين وأرضها

فهي الآن تحت سيطرة جيش المشركين، ويبدو من شهود العيان أن المشركين قاموا بتنظيم ما معهم من قوات وغير قوات.. بمنتهى التهور والدهاء معاً، بل ربما قاموا باستنساخ خطة النبي ﷺ في غزوة أحد مع اختلاف التضاريس. فبينما كانت أرض أحد تحتوي جبالاً استغلها ﷺ أفضل استغلال.. نجد أرض حنين تحتوي على أودية استغلها قادة هوازن وغطفان بشكل سليم، أما تخطيط مشركي هوازن وغطفان ومن معهما لتسيير المعركة[3] فهو كالتالي:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠٠.

(٣) هذا الاستنتاج بنيته على مجموع الأحاديث الصحيحة فقط لمجريات المعركة.

قسمت هوازن وغطفان جيشها إلى قسمين:

أولاً- قســم أمامي، ومكانه مقدمة بطن الوادي، أو لنقل مدخل الوادي، وهو خط المعركة الأول، وقد قسمه المشركون إلى أربعة صفوف، أو أربع مجموعات يقف بعضها خلف بعض وهي:

الصف الأول: الفرسان.

الصف الثاني: المقاتلون من الرجال والشباب.

الصف الثالث: الأقل قوة، وهم النساء والشيوخ والأطفال.

الصف الرابع: ومهمته معنوية، وهو مكون من الأغنام.

الصف الخامس: ومهمته معنوية أيضاً، وهو مكون من بقية الأنعام.

وقد عبر أحد جنود الإســلام عن إعجابه بتلك الصفوف، وهو أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: «افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حنيناً فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت؛

فصفت الخيل

ثم صفت المقاتلة

ثم صفت النساء ومن وراء ذلك

ثم صفت الغنم

ثم صفت النعم»[1]

ثانياً- قســم الرماة، وقد تترس هؤلاء بتجاويف الوادي وتعرجاته، ويبدو أنهم في مكان مرتفع، بحيث يســهل عليهم إصابة المســلمين من خلاله، وعن ذلك يقول جابر رضي الله عنه: «لما اســتقبلنا وادي حنين، انحدرنــا في وادي من أودية تهامة، أجوف حطــوط[2] إنمــا ننحدر فيه انحداراً، وفي عماية الصبح، وكان القوم قد ســبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[3]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٢) شديد الانحدار .

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه: عاصم وشيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٨٦ و٣٣٨ .

أما جيش المسلمين فكان كالعادة منظماً ومقسماً، يقول أنس: «وعلى مجنبة خيلنا خالد ابن الوليد»، وهذا يدل على أن هناك جناحاً أيمن وآخر أيسـر، وقلباً يقوده النبي ﷺ، لكن النبي ﷺ كان يشـعر ببعض الخوف ليس من الأعداء، فما خرج إلا وقد أعد لهم واسـتعد. لكن خوفه كان منصباً على جيشه العظيم الذي يحقق الانتصارات، كما لا ينسى أن الإنسان فـي أوج انتصاراته لا يزال إنسـاناً مخلوقاً، ولا بد لهذا المخلـوق أن يظهر ويبطن الامتنان لخالقه.. تحت أي ظرف من الظروف.

هـا هو ﷺ، وبعـد كل صلاة فجر يحرك شـفتيه، فيتسـاءل الصحابة عن تلك الأحرف التي لا يسمعونها، ويشعرون بالشوق إليها؟

يقـول الصحابي المهاجر الصابـر المجاهد صهيب الرومي رضـي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء.

فأوحـى الله إليه: أن خير أمتك بين إحدى ثلاث: أما ان نسـلط عليهم عدوا من غيرهم، فيسـتبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسـل عليهم الموت. فشاورهم. فقالوا: أما العـدو فـلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسـل عليهم الموت فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا.

قال رسول الله ﷺ: فأنا أقول الآن حيث رأى كثرتهم: اللهم بك أحاول وبك أصاول وبك أقاتل»[1] «اللهم إنك إن تشأ لا تعبد بعد هذا اليوم»[2]

بالدعـاء كان ﷺ يبـدأ معاركـه، أما هوازن ومـن معها، فبـدأت معركتها ببث جواسيسها لرصد تحركات وتجهيزات النبي ﷺ، وقد تمكن أحدهم من أن يندس بين

---

(١) سـنده صحيح رواه الإمام أحمد ٤-٣٢٢: حدثنا عفان عن حماد بن سـلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي ثقة كبير وعفان إمام معروف وكذلك بقية السند. وهو أصح من لفظ خيبر كما بينت في صحيح الموسوعة.

(٢) سـنده ثلاثي صحيح رواه ابن أبي شـيبة ٧-٤١٦ حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس قال كان من دعاء النبي يوم حنين: يزيد وحماد ثقتان معروفان وحميد سمع من أنس.

جنـــد النبي ﷺ، لكن نظراته وحركاته، وربما ألفاظـــه أفصحت للنبي ﷺ عن هويته، فكانت هذه القصة التي تم فيها:

القبض على جاسوس هوازن

يقـــول الفارس ســـلمة بن الأكـــوع، والذي كلـــف بمهمة القبـــض أو القضاء على الجاسوس: «غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن، فبينا نحن نتضحى[1] مع رسول الله ﷺ، إذ جـــاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثـــم انتزع طلقاً من حقبه[2] فقيد به الجمل، ثم تقدم يتغدى مع القوم، وجعل ينظر.. وفينا ضعفة ورقة في الظهر، وبعضنا مشـــاة. إذ خرج يشـــتد فأتى جمله فأطلق قيده، ثم أناخه وقعد عليه فأثاره، فاشـــتد به الجمل، فاتبعه رجل على ناقة ورقاء.

قال ســـلمة: وخرجت أشتد، فكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمـــل، ثـــم تقدمت حتى أخذت بخطـــام الجمل فأنخته. فلما وضـــع ركبته في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه.

فاستقبلني رســـول الله ﷺ والناس معه فقال: من قتل الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع، قال: له سلبه أجمع»[3]

حصل ابن الأكوع على ســـلب الجاســـوس، وتخلص المســـلمون من شره واطمأنوا إلى عدم وصول معلومات لأعدائهم، وتهيأ النبي ﷺ ومن معه لقتال المشـــركين وتواجه الجيشان فـ:

كيف سارت المعركة على أرض حنين

فـــي البداية كانت المواجهة بين الجيشـــين على أرض الـــوادي.. دون تدخل رماة المشـــركين، وعندما التحم الجيشـــان هجم المســـلمون ببســـالتهم المعروفة، فاكتسحوا عدوهم وهزموهم، بل وطاردوهم. وكان فارس الإسلام (أبو قتادة) أحد هؤلاء.

---

(١) أي نتغدى.

(٢) أخرج حبلا من حقيبته.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٣٧٤.

يقــول رضي الله عنه «خرجنا مع رســول الله ﷺ عام حنــين، فلما التقينا كانت للمســلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشــركين علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت حتى أتيتــه من ورائه، حتى ضربته بالســيف على حبل عاتقه، فأقبــل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرســلني»[1] وسقط ذلك المشرك جثة هامدة، وهرب المشركون من أرض المعركة، فلاحقهم المسلمون، لتتكرر المأساة والأخطاء.

يقول البراء: «لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم»[2] وبدأ الطلقاء يجمعون الغنائم الهائلة التي خلفتها هوازن ومن معها، ومرة أخرى تطل المأساة برأسها البشع.. مرة أخرى يرتكب بعض المؤمنين الخطأ نفســه، لكنهم معذورون فهم لم يحضروا، ولم يتجرعوا كأس أُحد المر.. مرة أخرى:

الغنائم والرماة يهزمون المسلمين

الغنائم هي الغنائم، لكن الرماة ليســوا هم الرماة.. إنهم رماة هوازن، وهم دقيقوا التصويب، وعندما وصل الجيش المسلم إلى مرمى تلك السهام وهو يطارد تلك الفلول الهاربة.. انهمر سيل الســهام من تلك التجاويف والمنحنيات، فقد كان الوادي مفخخاً بالرمــاة البارعــين، وقد أعان الرماة فــي مهمتهم ذلك الارتباك الــذي أحدثه تكالب الطلقاء على الغنائم، وهم لا يعلمون أنها ليســت للنهب ولا لمن ســبق. ولك أن تتصور جيشاً قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل.. يتدفق مسرعاً مدمراً كالموج خلف عدوه، ثم تعتــرض طريقه مجموعة من أفراده بطريقة غير منظمة، لالتقاط غنائم في الطريق؟ لقــد تحــول الجيش مرة أخرى إلى كومــة من الفوضى.. زاد فــي بعثرتها ذلك الموت المنهمر من سهام المشركين.

يقول البراء نافياً تهمة الفرار عن الرسول عندما سئل: «أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رســول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام»[3] «والله ما ولى النبي ﷺ، ولكن ولى

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

سـرعان الناس، فلقيهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول:

أنـــا الـــنـبـــي لا كـــذب   أنـــا بـــن عـــبـــد المـــطـــلـــب»[1]

وكان كثير ممن ولى لم يستعد للحرب استعداداً يليق بها.. ظناً أن هذا الجيش الضخم ليس من الممكن هزيمته، فقد «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً[2] ليس بسلاح فأتوا قوماً رماة (جمع هوازن وبني نصر) ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر ثم قال:

أنـــا الـــنـبـــي لا كـــذب   أنـــا بـــن عـــبـــد المـــطـــلـــب»[3]

كان صوتا يتأجج حماساً وثباتاً مثيراً، لكنه لا يجد حوله سوى غبار الطلقاء، الذين ولوا تاركين غبارهم يخنق أرض حنين:

ثم هرب بعدهم الأعراب

يقول أنس: «فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس»[4]

وقد ساهمت منحدرات الوادي في هزيمة المؤمنين.. ساهمت في وقوعهم في الفخ المعد لهم، حيث يصف جابر ذلك الوادي وما حدث فيه فيقول: «كان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد»[5] إلا النبي ﷺ فقد كان كما وصفه

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٥٤.

(٢) الحفيف هو غير المثقل بالعتاد، والحسر أي دون دروع.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٧١.

(٤) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٥) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر ومعنى: انشمر الناس أي أسرعوا.

البــراء بن عازب وهــو يتحدث عن الفرار يوم حنين بقوله: «أشــهد على نبي الله ﷺ ما ولى»[1] «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشــجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ»[2]

لقد توجه ﷺ نحو الوثنيين بمفرده بعد أن «ولى المســلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار»[3]

كان مشهد الهروب محزناً لفارس الإسلام أبي قتادة الذي يقول عن تلك اللحظات: «لما التقينا كانت للمســلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين علا رجلاً من المسلمين، فاســتدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالســيف على حبــل عاتقه، فأقبل عليّ فضمنــي ضمــة وجدت منها ريح الموت، ثــم أدركه الموت فأرســلني. فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله»[4]

ففــرار جيش بهذا الحجم شــيء لا يصدقه عمر، «وانحاز رســول الله ﷺ ذات اليمن، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رســول الله.. أنا محمد بن عبد الله.... فلا شيء.

حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رســول الله ﷺ نفــر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمن ثبــت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومــن أهل بيتــه علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبو ســفيان بن الحارث، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد - قتل يومئذ.

ورجــل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية ســوداء فــي رأس رمح له طويل أمــام هوازن، وهوازن خلفــه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاتــه الناس رفع رمحه لمن وراءه، فاتبعوه، وأبو ســفيان بن حرب وبعض الناس يشمت بالمسلمين»[5]. ويتوقعون بل يتمنون هزيمة ساحقة للمؤمنين، لكن النبي ﷺ لم يترك مساحة أكبر من هذه لانشراح

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٩٨ والنسائي في السنن الكبرى ٥-١٩٧ واللفظ له.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٥) ســنده صحيح مر معنا رواه ابن إســحاق - ابن هشــام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه

قلوب هؤلاء الشـــامتين، فمثل هذه الحالات الشديدة والحرجة يصعب تجاوزها بأمثال الطلقاء.. الذين لم يقضوا فترة تربوية كافية على يد النبي ﷺ. ولهذا صاح النبي عليه السـلام يستدعي البنائين الأوائل للدولة الإسلامية.. الذين شيدوها بدمائهم وعرقهم وإيمانهم.. صاح بهم وناداهم «نادى رسول الله ﷺ: يال المهاجرين.. يال المهاجرين. ثم قال: يال الأنصار.. يال الأنصار...»[1] قال أنس «قلنا: لبيك يا رسول الله»[2]

وحتى يصل الصوت أقصى مدى.. استعان النبي ﷺ بعمه الثابت الشجاع العباس بن عبد المطلب، والذي يمسك الآن بلجام بغلة نبيه.. يواجه بها عاصفة هوازن ونبالها، ويقول «إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرءاً جسـيماً شـديد الصوت، ورسـول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء...

فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة.

فأجابـوا: لبيك.. لبيك. فيذهب الرجل ليثنـي بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سـيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ. حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. وكانت الدعوى أول ما كانت: ياللأنصار.. ثم خلصت أخيراً: ياللخزرج. وكانوا صبراً عند الحرب.

فأشرف رسـول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس»[3] والجلاد والقتال واسـتعر كالبـركان، وقد كان الصحابة الذين حضـروا المعركة ورووا أحداثها قلة.. كانوا كالغصن وسـط تلـك الغابة التي تجاوزت العشرين ألف مقاتل من الطرفين، لذلك كان قرب معظمهم من النبي ﷺ أثناء المعركة نـادراً وللحظات، فكان كل صحابي يروي المشـهد الـذي رآه، والحالة التي كان عليها النبي ﷺ أثناء مروره فقط.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة: ٥-١١٠ حدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس ابن عبد المطلب قال: وهذا السند صحيح الزهري تابعي إمام ثقة أشهر من أن يعرف وشيخه صحابي صغير.

أحـد هؤلاء الصحابة مر بالنبي ﷺ أثنـاء الهزيمة، فرأى صحابياً يدعى زيد مع النبي ﷺ، فوصف ذلك المشـهد بقوله: «إن رسـول الله ﷺ يوم حنين انكشـف الناس عنه، فلم يبق معه إلا رجل يقال له زيد.. آخذ بعنان بغلته الشـهباء، وهي التي أهداها له النجاشي، فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا زيد.. ادع الناس.

فنادى: أيها الناس هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجب أحد عند ذلك. فقال: ويحك حض الأوس والخزرج فقال: يا معشـر الأوس والخزرج. هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجبه أحد عند ذلك. فقال: ويحك ادع المهاجرين، فإن لله في أعناقهم بيعة.

فحدثني بريدة أنه أقبل منهم ألف قد طرحوا الجفون[1] وكسروها، ثم أتوا رسول الله ﷺ حتى فتح عليهم»[2]

وأحد الصحابة يقول: «انطلق الناس، إلا أن مع رسول الله ﷺ رهطاً من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، وفيمن ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد»[3]

هذا ما يحدث في المقدمة، أما في المؤخرة فقد كانت هناك امرأة ثابتة تفوقت على كثير من المحاربين الرجال.. إنها المرأة التي سجلت حضورها لمعظم معارك النبي ﷺ «أم أنس بن مالك» أو أم سـليم، أو زوجة أبي طلحة المقدام.. كانت رضي الله عنها تتأهب بخنجر للمشركين، بل لمن يولي هارباً من الطلقاء!!

يقـول ابنها «أنس: إن أم سـليم اتخذت يوم حنين خنجـراً، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشـركين بقرت به بطنه. فجعل رسـول

(١) أي رموا الجفون وهي أغمدة السوف.

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٧ حدثنا الفضل بن دكين حدثنا يوسف بن صهيب عن عبد الله بن بريدة مرسلاً وآخره متصل وليس كما في المطالب حيث وهم الهيثمي رحمه الله، فوصله فالذي وصله هو الروياني ١-٧٣ حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا عبيد الله بن موسى أنا يوسف به موصولاً.

(٣) حديث صحيح مر معنا وهو عند ابن إسحاق.

الله ﷺ يضحك. قالت يا رسول الله: اقتل من بعدنا من الطلقاء.. انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»[1]

فقد نظم ﷺ أصحابه من جديد، ثم هجم بهم على المشركين، وهب علي ابن أبي طالب وشجاع آخر من الأنصار نحو حامل الراية حتى استطاعوا:

إسقاط راية المشركين

فقد كان «رجل من هوازن على جمل له أحمر في يده راية سوداء، في رأس رمح طويل له أمام الناس، وهوازن خلفه، فإذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه. فاتبعوه.

قال جابر بن عبد الله: بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله ذلك يصنع ما يصنع، إذا هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه، فيأتيه علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل، فوقع على عجزه. ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه، فانعجف عن رحله، واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»[2]

فعاد النصر إلى أصحابه و:

نزلت المعجزة

يقول (سلمة بن الأكوع) أحد الذين رأوها: «تقدمت فأعلو ثنية، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسهمه فتوارى عني فما دريت ما صنع؟ ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ فولى صحابة النبي ﷺ، وأرجع منهزماً وعلي بردتان متزراً بإحداهما مرتدياً بالأخرى، فاستطلق إزاري، فجمعتهما جميعاً ومررت على رسول الله ﷺ منهزماً وهو على بغلته الشهباء، فقال رسول الله ﷺ: لقد رأى ابن الأكوع فزعاً..؟

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٢.

(٢) سنده صحيح مر معنا رواه ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن ابن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله: السيرة النبوية ومن طريقه الإمام أحمد ٣-٣٧٦.

فلما غشـوا رسـول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه.

فمـا خلق الله منهم إنسـاناً إلا ملأ عينيـه تراباً بتلك القبـضـة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل»[1]

وقد اختصر سلمة أحداثاً رآها غيره قبل أن يقول النبي ﷺ:

شاهت الوجوه

فالعباس كان هناك.. يرى ويقاتل ويروي تفاصيلاً فاتت سـلمة فيقول: «لزمت أنا وأبو سـفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسـول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسـلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسـول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ.

فقال رسـول الله ﷺ: أي عباس ناد أصحاب السـمرة. فقال عباس وكان رجلاً صيتاً: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟

فوالله لكأن عطفتهم حين سـمعوا صوتي عطفة البقر علـى أولادها، فقالوا: يا لبيك.. يا لبيك. فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار.. يا معشر الأنصار.

ثـم قصرت الدعوة علـى بني الحارث بن الخـزرج، فقالوا: يا بنـي الحارث بن الخزرج.. يا بني الحارث بن الخزرج.

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: هذا حين حمي الوطيس.

ثم أخذ رسـول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجـوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد...

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٢.

فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى أحدهم كليلاً وأمرهم مدبراً»[1] حتى انقشع الغبار، فإذا ساحة الحرب أكوام من القتلى و«الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»[2]

أما الغنائم فهائلة لا تعد ولا تحصى.. إنها ثروة هوازن وما تملك كاملة، وثروة من جاء معها من المشركين.. تحولت إلى أيدي المسلمين، بعد أن كادت تضيع منهم ويضيع معها ما هو أثمن. ليس هناك ألفاظ تعبر عما جرى مثل كلمات الله ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾.

وبعد أن هدأ كل شيء «التفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ، وكان حسن الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بثفر بغلته.

فقال من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله»[3].

يقول أبو قتادة: ثم إن «الناس رجعوا وجلس النبي ﷺ فقال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست، ثم قال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست. ثم قال الثالثة مثله، فقمت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا قتادة؟ فاقتصصت عليه القصة.. فقال رجل: صدق يا رسول الله، وسلبه عندي فأرضه عني.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا ها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ يعطيك سلبه!!

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٨.
(٢) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.
(٣) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.

فقال النبي ﷺ: صدق فأعطه. فبعت الدرع، فابتعت به مخرفاً في بني سلمة، فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام»[1]

هذه هي سنة النبي ﷺ في سلب المقتول وهي غير الغنائم، فالغنائم تم توزيعها من قبل الله سبحانه الذي قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أما السلب فهو أسلحة وأمتعة المقاتل المشرك الشخصية، وهو من نصيب من يقتله من المؤمنين أثناء المعركة، وللسلب قيمة معنوية تحفيزية على الإقدام أثناء المعركة.. حيث يقول ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»[2]

ولما سمع الصحابة هذا الكلام منه ﷺ جاء أبو طلحة لأخذ ما يستحق. يقول أنس بن مالك: «قال رسول الله ﷺ يومئذ: من قتل كافراً فله سلبه. فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم»[3]

أما الغنائم الهائلة فلم يقسمها النبي ﷺ حتى الآن، وتوزيعها ليس في قائمة اهتماماته الآنية، فهناك أخطار ملحة تحتاج إلى حل عاجل جداً.. هناك الطائف الذي شارك زعماؤه ورجاله في هذه المعركة، ثم لجأوا بعد الهزيمة إليه، وهم الآن في حصن منيع يحتاج إلى تفكير عسكري ناضج. وهناك الفلول المنهزمة من هوازن وغطفان ومن معهم، وهي تحتاج إلى معالجة جادة، فالظروف قد تغيرت، ومكة قد فتحت، ومعظم العرب الآن تحت لواء التوحيد، لذلك قرر ﷺ:

حبس الغنائم في الجعرانة

فنادى رسول الله ﷺ أحد الصحابة واسمه: بديل بن ورقاء فجعله أميراً على الغنائم، وأمره أن يأخذها إلى الجعرانة، وهو مكان قريب من مكة لكنه خارج الحرم مثل التنعيم.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٧١.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٩ وغيره من طرق عن حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. إسحاق تابعي ثقة حجة: التقريب ١٠١.

يقــول بديل عن مهمتــه: «إن النبي ﷺ أمــر بديلاً أن يحبس الســبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم عليه. فحبســـه»[1] ثم تفقد النبي ﷺ جيشــه ودفن من استشهد منهــم، واطمأن على إصابات أفراده خاصة القــادة المصابين، وكان أحد القادة الذين أصيبوا خالد بن الوليد، وهو مســئول عن قســم من خيل جيش المســلمين، فجاء ﷺ بنفسه، وسأل واطمأن على إصابة خالد بن الوليد.

يقول أحد الصحابة: «إن خالد بن الوليد بن المغيرة جرح يومئذ، وكان على الخيل.. خيل رسول الله ﷺ، وقد رأيت رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله الكفار، ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشي في المسلمين، ويقول: من يدل على رحل خالد بن الوليد.؟

فمشــيت بين يديه وأنــا محتلم أقول: من يدل على رحــل خالد؟ حتى حللنا على رحله، فإذا خالد بن الوليد مســتند إلى مؤخرة رحله، فأتاه رسول الله ﷺ، فنظر إلى جرحه، ونفث فيه رسول الله ﷺ»[2].

وقــد أصيب من الصحابــة: عبد الله بن أبي أوفى، حيث يقــول أحد الذين رأوا إصابته: «رأيت بِيَدِ ابن أبي أوفى ضربة. قال ابن أبي أوفى: قد ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين»[3]

وهنــاك إصابات أخرى عديدة ألمــت ببعض الصحابة أثناء المعركــة، لكن هناك ما هو أكثر من تفقد الجرحى والصلاة على الشــهداء، فقد كان الإســلام على تلك الساحة حاضراً بكليته.. بسماحته وعدله. فعلى تلك الأرض وبعد انتهاء معركة حنين، وبينما كان النبي ﷺ يتفقد جرحاه.. أحضر بعض الصحابة رجلاً من المسلمين.. ابتلى بحب الخمر، فشربها، فسكر وهو في ظرف تتجول فيه المنايا بين الجنود. ولما مثل بين يديه ﷺ وتأكد من ارتكابه لجريمة الشرب أمر بـ:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في التاريخ الكبير ٢-١٤١ والطبرني ٢-٣٠ حدثني بن أبي عبلة عن بن بديل بن ورقاء عن أبيه. وشيخه تابعي ثقة والبقية صحابة واسم ابن أبي عبلة: إبراهيم وهو من رجال الشيخين: التقريب ٩٢.

(٢) ســنده صحيح رواه أحمــد ٤-٨٨: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قــال وكان عبد الرحمن بن الأزهر يحدث وعبد الرزاق هو الإمام الثقة صاحب المصنف وشــيخه معمر ثقة ثبت فاضل التقريب ٥٤١ والزهــري رأس طبقته وشــيخه صحابي. وبعد كلمة جرحه «قال الزهري: وحســبت أنه قال» وجاء عند الحميدي بسند صحيح وعند غيره الجزم بها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٦٨.

إقامة الحد على شارب الخمر

يقول أحد الصحابة: «رأيت النبي ﷺ عام حنين سـأل عن رحل خالد ابن الوليد، فجريـت بين يديه أسـأل عن رحل خالد بن الوليد حتى أتـاه جريحاً، وأتي النبي ﷺ بشارب فقال: اضربوه.

فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثياب، وحثوا عليه من التراب، ثم قال النبي ﷺ: بكتوه. فبكتوه ثم أرسله»(١)

وقد طهر من ذنبه الذي ارتكبه، لكي يعود من جديد لمشـاركة إخوته في جهادهم ونشـر دين ربهم، فالمسـلم لا يدع للمعصية فرصة لإعاقته عن البذل في سـبيل الله، والإبداع في مرضاته.. هي كبوة أو كبوات، لكنها ليست أغلالاً إلا عند من يجهل أعماق هذا الدين وآفاقه، أو عند من لا يرى في الآخرين سوى الزوايا المعتمة.. متغاضياً عن تلك الجوانب الجميلة والوضاءة، ومتغاضياً عن تلك العتمة القابعة في أعماقه هو.

نهض ذلك الصحابي مع إخوته خلف نبيهم ﷺ الذي أمر بالتوجه لـ:

حصار الطائف

توجـه ﷺ إلى الطائف لحصاره.. في الوقت الذي بعث فيه أبا عامر الأشـعري لملاحقـة مجموعة من المقاتلين.. كانوا تحت توجيه الشـاعر الجاهلي الكبير دريد بن الصمة في معركة سميت:

غزوة أوطاس وقتل دريد بن الصمة

حيث أوكل قيادة هذه السرية إلى أبي عامر الأشعري وذلك «لما فرغ النبي ﷺ من حنـين، بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه

---

(١) سـنده صحيح رواه الشـافعي في مسـنده ١-٢٨٥ وغيره. أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: وهذا السند صحيح وهو السند الذي مر معنا قبل قليل.

قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرمي أبو عامر في ركبته، رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟

فأشار، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني. فقصدت له فلحقته، فلما رآني ولى فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم. فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له: استغفر لي.

فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر. ورأيت بياض إبطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس. فقلت: ولي، فاستغفر.

فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»[1]

أثناء تلك القصص المؤثرة، والدعوات الجميلة.. كان الطائف محاطاً بالقوات الإسلامية المنتصرة المتوثبة، لكن الحصار قد طال مدة أحصاها أحد المقاتلين بقوله: «انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة»[2] وهم في حصنهم المنيع، فلم يستطع المسلمون اقتحامه وفتحه، وقد استخدم النبي عليه الصلاة والسلام كافة المحفزات على الفتح لدى جنوده.. حسب الوسائل والإمكانات المتاحة. ولم يكن هناك أفضل من الرمي بالسهام بعد تحصن أهل الطائف داخل قلعتهم.

يقول أحد الصحابة الذين استجابوا: «حاصرنا مع رسول الله ﷺ حصن الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من بلغ بسهم في سبيل الله، فهو له عدل محرر[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٧١.
(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.
(٣) أجر عتق رقبة

فبلغت يومئذ بستة عشر سهماً، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، فهو له درجة في الجنة، ومن شاب شيبة في الإسلام، كانت به نوراً يوم القيامة، وأيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار»(١)

كان النبي ﷺ يجفف منابع الرق حول أسوار الطائف، بل داخل أسوار الطائف، فبعد أن فشلت الأسهم فلم تُجْدِ شيئاً، ورد أهل الطائف عليها، فاستشهد صحابيان جليلان، وسقطا دون أسوار الطائف المنيعة.. لجأ النبي ﷺ إلى استخدام أساليب جديدة في حربه مع مشركي الطائف.. من هذه الأساليب أسلوب نقل الحرب إلى داخل أسوار الطائف دون تكبد خسائر، أو حتى أدنى مشقة، بأسلوب جديد.. بالتحريض على التمرد والعصيان العام، وذلك بتقديم إغراءات لمن يقوم بـ:

التمرد والفرار من أسوار الطائف

هذا العرض يستفيد منه أناس لهم ثقلهم في حرب المدن، وهم الأرقاء، وهو عرض يواصل تجفيف الرق داخل الطائف نفسها، هذا العرض ينص على أن من هرب من ديار الشرك من العبيد، إلى معسكر المسلمين فهو حر، كما حدث قبل عامين في الحديبية.

وقد استجاب ثلاثة وعشرون من أرقاء الطائف، فهربوا وتدلوا كالفرح من تلك الأسوار.. أبرزهم رجل يدعى أبو بكرة الذي «نزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف»(٢) حصل المسلمون على بعض ما أرادوا، وانقذف الرعب في قلوب المشركين، وأدركوا أن الفتح إن لم يحدث اليوم فهو قادم لا محالة.

أما في معسكر المسلمين فالدولة الإسلامية كانت تمارس أنشطتها خلف أسوار الطائف، وكأن الدولة ليست في حالة حرب. كان ﷺ يمارس دوره التربوي

(١) سند صحيح رواه الطيالسي ١-١٥٧ وغيره من طريق هشام عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان ابن أبي طلحة اليعمري عن أبي نجيح السلمي. وهشام الدستوائي ثقة ثبت: وشيخه إمام ثقة وسالم وشيخه تابعيان ثقتان. التقريب ٥٣٦ و٢٢٦

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٣.

حتى في ظروف الحرب، فالقائد المسلم لا يتخلى عن مبادئه ومرتكزاته.. هي زاده وجراب زاده.

كان ﷺ يصحب زوجاته في تلك المعركة، وبينما هو متوجه نحو خباء زوجته أم سلمة سمع كلمة أزعجته، فبادر إلى إصلاحها وإصلاح قائلها وسامعها أيضاً. حيث كان ضمن جيش المسلمين شخص لم يتحدد جنسه حتى الآن: هل هو ذكر أم أنثى؟

وكانوا يطلقون على هذا النوع من الناس لقب: (المخنث) وكان هذا الشخص جالساً عند أم سلمة، ويتحدث إلى أحد الصحابة بلهجة الرجال الذين يميلون إلى النساء.. كان يتكلم بطريقة فيها من قلة الذوق أمام النساء ما أغضب النبي ﷺ.. حيث تقول «أم سلمة رضي الله عنها: دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعه يقول لعبد الله ابن أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان»[1] إنه يصف امرأة بعينها، ويسميها، ويغري أحد المسلمين بجسدها الممتلئ حتى تثنى بطنها من الأمام فأصبح أربعة أحزمة دهنية، لدرجة أن بإمكانه رؤية أطراف تلك الأحزمة الدهنية من خلفها، لأنها تطل من جوانبها.. أربعة من الجانب الأيمن ومثلها من الجانب الأيسر، عندها «قال النبي ﷺ لا يدخلن هؤلاء عليكن»[2]. فهذا الشخص يبدو أنه خبير بالطائف أو من أهلها، وبدلاً من أن يكشف للمسلمين نقاط ضعف فيها.. تؤدي إلى فتحها. أشغل نفسه بكشف العورات وإثارة غرائز المجاهدين، ويبدو أنه يجهل أحكام الجهاد الصارمة، وحرمة أعراض الأعداء حتى في حالة السبي، وأن هناك أحكاماً للنصر يرجع فيها للنبي ﷺ، فليس في نظام الجهاد إباحية أو همجية، أو انتقام أو مقابر جماعية، أو اغتصاب في غمرة الانتشاء بالنصر.. هناك انضباط وخوف من الله، فالمسلم لم يخرج طلباً للنساء، ولا للمال والشهرة، بل خرج لتكون كلمة الله هي العليا، وللدفاع عن انتشار تلك الكلمة، أو الموت في سبيل الله. أما من يتهور في انتهاك الحرمات.. بدعوى أن أولئك النساء كافرات، فهو يرتكب حماقة وجريمة خلقية تستحق اللعن، ولما حاول أحد المسلمين فعل ذلك مع امرأة حامل.. غضب النبي ﷺ غضباً كاد الرجل أن يحترق به، وذلك لما «أتى بامرأة مجح على باب فسطاط فقال: لعله يريد أن يلم بها؟

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: لقد هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه قبره. كيف يورثه وهو لا يحل له! كيف يستخدمه وهو لا يحل له؟!»[1]

لم يفلح ذلك الشخص بنصيحته، بل خسر ثقة النبي ﷺ وأصحابه، وخسر توقعاته بفتح الطائف، حيث طالت مدة الحصار ولم تفلح جهود المسلمين في اقتحامها. لذلك قرر ﷺ العودة إلى الجعرانة حيث تقبع الغنائم والسبي، لكن بعض الصحابة تضايق من العودة دون دخول الطائف في الإسلام، مما جعلهم يعترضون على العودة ويصرون على القيام بـ

آخر محاولة لفتح الطائف

وذلك «لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف لم ينل منهم شيئاً قال: إنا قافلون إن شاء الله. فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟!

فقال: اغدوا على القتال. فغدوا، فأصابهم جراح.

فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله. فأعجبهم. فضحك النبي ﷺ»[2] ثم أمر أصحابه بـ

العودة إلى الجعرانة

حيث تحرك الجيش تاركاً مشركي الطائف في حيرة من أمرهم، فالشرك يذبل يوماً بعد يوم، ومحمد يملك الجزيرة شبراً فشبراً، وشمس التوحيد تشرق على الجميع إلا عليهم، وأعوانهم وعضدهم أسرى في أيدي المسلمين.. قد تكوموا في الجعرانة كالذل.. نساء وأطفال ورجال وشيوخ، وأموال وبهائم لا تعد ولا تحصى، ورغم عجز المسلمين عن فتح الطائف، إلا أنهم لم يعجزوا عن إيقاظ الإيمان المنطمر في أعماق أهل الطائف تحت أرتال العادات والتقاليد الجاهلية. أما هوازن فقد خسرت كل شيء إلا قلب النبي ﷺ.. كان أفسح من حنين لهم ولأبنائهم ونسائهم وأطفالهم. لقد كان ﷺ

---

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٦٥.

(١) صحيح البخاري: ٤-١٥٧٢.

أرحم بهؤلاء من قادتهم الذين ســاقوهم وخاطروا بهم، بل كان أرحم بهم من أنفسهم، فعندما وصل ﷺ إلى الجعرانة لم يبادر إلى تقســيم شــيء من الغنائم أو السبي على أصحابه، فقد كان:

النبي يريد رد الغنائم على هوازن

ولذلك انتظر عودتهــم على أرض الجعرانة أياماً قال عنها أحد الصحابة: «وكان النبي ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة، حين قفل من الطائف»[1] ولما لم يعودوا قام عليه السلام بـ:

توزيع الغنائم

وقــد كانت طريقة النبي ﷺ فــي توزيع الغنائم على غير المعتــاد.. كانت طريقة تناسب هذه الظروف الجديدة تماماً، فقد دخل في الإسلام أعداد لا حصر لها ما بين يــوم وليلة، وهذه النوعية من الناس تحتاج إلى من يعمق جذور الإيمان الغضة الطرية فــي داخلها، لأنها عرضة للتلف في العراء. وقد تبين ذلك قبل أيام على أرض حنين.. عندما هرب الأعراب والطلقاء ومن أسلم حديثاً، وتركوا النبي ﷺ على أرض المعركة.. كانت كثرتهم غير مجدية، بل ضارة ومعيقة، ومن أجل هذا انسابت الغنائم بشكل أثار اســتغراب الكثيرين، لكنه بُعد نظر النبي ﷺ وســعة أفقه. فرغم أن تلك الغنائم كانت هائلة جداً، وكثيرة جداً، إلا أن شيئاً منها لم يذهب إلى أحق الناس بها، وهم الأنصار.. كانت غنائم حنين تقييماً للإيمان والمؤمنين.. كان توزيعها نقلة نوعية في طريقة الدعوة عنــد ما تتهــاوى الدول أمام زحف الدولة الإســلامية، لأن الشــدة وحدها تفرز تلك النوعيات الفذة والممتازة من الرجال، أما الرخاء فحلفاء الرخاء والرفاه كثيرون.

بــدأ ﷺ بتوزيع الغنائم فهجم الأعــراب الذين هربوا من المعركة عليه بأســلوب فوضوي.. قال عنه أحد الذين كانوا برفقته ﷺ في تلك اللحظات: «إنه بينما يسير هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى

(١) صحيح البخاري ٢-٩٢٠.

سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[1] ثم حذرهم عليه السلام من الغلول، وهو الاختلاس من الغنائم دون إذن منه، فكانت هذه القصة الأنصارية:

قصة الأنصاري وخيوط الشعر

وذلك بعد أن: «اتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجؤوه [إلى سمرة]، فاختطفت الشجرة عنه رداءه فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً، لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة.

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر.

قال: أما نصيبي منها فلك. فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها ثم طرحها من يده»[2]. فلا حاجة لهذا المجاهد في إفساد جهده وجهاده من أجل كنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة من شعر تافه رخيص.

هذا هو مفهوم المال العام في الإسلام.. إنه للأمة، فالصحابة قالوا: اقسم علينا فيئنا. فلم ينكر عليهم عليه السلام، بل أكد ذلك بقوله: (أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم) كما أنه حذرهم من التعامل مع هذا المال وأخذه دون إذن الإمام.

هذا هو الجيش الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة، لا من تكنات التشريعات العسكرية البشرية، التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٣٨.

(٢) سنده حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي في الكبرى ٦-٣٣٦ وغيرهما قال حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال وهو سند حسن مشهور والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.

و.. وقائمة شـنيعة من جرائم الحرب، بل عجزت عن ضبطهم حتى ضد أنفسهم. أما محمد عليه السلام فبكلمة واحدة ضبط كل شيء، لأنه لا يخاطب جنوده من الخارج، بل يشـيدهم من الداخل.. هو صوت دائم في أعماقهم يجذر خوف الله قبل كل شيء فيهم، وها هو صوته الذي لا يخبو ينادي من أجل ذلك رجالاً ليس لهم تاريخ ولا رصيد حتى الآن في الإسـلام، بل إن بعضهم سـخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الديـن، ومع ذلك، وفي أصفى لحظات الانتقام يطل محمد ﷺ رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم، وعرفهم بربهم تعريفاً جديداً لا تحجبه الأحقاد.

اسـتدعى ﷺ أبا سـفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فحولهم إلى أثرياء.. في لحظات كان الجميع يترقب أن يكون الثراء من نصيب أبي بكر أو عمر أو علي أو سعد بن عبادة أو أسيد بن حضير، أو غيرهم من عمالقة الأنصار والمهاجرين.

استدعى ﷺ أولئك الرجال فـ «أعطى النبي ﷺ من غنائم حنين الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصين مائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار: يعطي رسـول الله ﷺ غنائمنا ناساً تقطر سيوفهم من دمائنا، أو تقطر سيوفنا من دمائهم؟! فبلغه ذلك»[1]

بلغـه هذا الكلام الصادر من بعض فتيان الأنصار المتحمسـين، والذين يرون في الغنائم أوسـمة للمحاربين، ومكافأة لهم، وهم يرون أن هؤلاء لا يسـتحقون مثل هذا التكريم نظـراً لتاريخهم البعيد، وحتى القريب.. حيث فـروا من أرض المعركة.. هذه الكلمـات غير المتزنة، والتي ينقصها التروي وبعـد النظر.. وجدت خصوبة لدى أحد المتهوريـن من فتيـان الأنصار، فأطلـق كلمات غيرت وجه النبـي ﷺ، وعكرت صفو انتصاره بعد أن نقلها له أحد الصحابة.. الذي يروي ما حدث من:

الاحتجاج على توزيع الغنائم

فيقول: «لما قسـم النبي ﷺ قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله»[2] وذلك حين «آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة

---

(١) سـنده صحيح رواه الإمام أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس وهذا سند ثلاثي صحيح. يزيد ثقة مر معنا وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦ والزيادة له أيضاً.

من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ.

قال: فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف[1]، فغضب من ذلك غضباً شديداً واحمر وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله. ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر. قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً»[2]

لم يكن ذلك الشاب الأنصاري الطائش وحده الذي تطاول على النبي ﷺ، واتهمه بعدم العدل، فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع ورأى متهوراً آخر يتهم النبي ﷺ ويعلن عن:

مولد أول الطوائف المتطرفة

طائفة غرتهم كثرة عبادتهم، فتوجهوا نحو عيوب الناس وتناسوا عيوبهم، فجرهم ذلك إلى قذف التهم يمنياً وشمالاً، وتطاولوا فتسوروا القلوب، واقتحموا النوايا، ورسموها لا كما هي، بل كما يريدون، وكما تشكلت في مخيلتهم المريضة.

النوايا حصون منيعة لم يجرؤ النبي ﷺ على اقتحامها يوماً، إلا بوحي يحمله جبريل.. فيقول لأمته: (إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم)[3] أما هؤلاء الخوارج فتهوروا باقتحام ما عجز عنه النبي ﷺ، بل تجرأ أحدهم اليوم على تصحيح الوحي ذاته ونقد النبوة. يقول أبو سعيد رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال ﷺ: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحاباً،

---

(١) الصرف شجر أحمر.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٩.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

يحقـــر أحدكم صلاته مع صلاتهـــم، وصيامه مع صيامهم، يقـــرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شـــيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شـــيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شـــيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء. قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو ســـعيد: فأشهد أني ســـمعت هذا الحديث من رســـول الله ﷺ»[1] هكذا يصفهم عليه الســـلام أنهم لم يأخذوا من الإســـلام.. تماما كمثل السهم السريع جداً الذي يصيب الفريســـة، فيخرج منها بالســـرعة نفســـها، دون أن يعلق فيه شـــيء من جســـدها سوى لون الدم، فلاشيء على الحديدة التي تسمى النصل، ولا على رصافه، أي العصـــب الذي يلف على مدخل النصل، ولا على الريشـــة في آخره، والتي تســـمى القـــذة. وقـــد ذكر النبي ﷺ مزيداً من صفاتهم، حتى لا ينخـــدع الناس بكثرة ركوعهم وسجودهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن، ولا بكثرة حلقهم لرؤوسهم.

يقول عليه الصلاة والســـلام: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأســـنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»[2] «قيل: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق»[3] أي حلق شعر الرأس.

حادثة هذا الخارجي الذي يعتبر شاذاً اليوم أمام الحضور الغامر والجميل لكتاب الله وســـنة رسول الله ﷺ، هذه الحادثة سلطت الضوء على مساحة الحرية الشاسعة في القول والتعبير عن الرأي والاحتجاج بالكلمة، كما كشف رحابة صدر القائد المسلم، والدولة المسلمة في الاستماع لمواطنيها مهما أغلظوا في القول أو احتدوا في التعبير. فهذا الرجل لم يضرب، ولم يســـجن، بل رفض عليه الســـلام أن يمسه عمر بأذى، بل قال لعمر: (دعه). لماذ؟

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.
(٣) صحيح البخاري ٦-٢٧٤٨.

لأن في الحق والعدل ما يخرس ألسنة المتطرفين، ويصرف وجوه الناس عنهم، لكن الخوارج إذا انتقلوا من اللسان إلى السيف، فلا بد من مواجهتهم بالأسلوب نفسه، وبالعدل أيضاً، وهذا ما شرعه النبي ﷺ لأمته في التعامل مع الخوارج.

أما غير الشاذ على ساحة الجعرانة، فهو إحساس بعض شباب الأنصار ببعض الغضاضة.. من ذهاب الغنائم إلى رجال لم يعرفوا الإسلام إلا منذ أيام، عندما قام ﷺ «فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً. فقالت الأنصار: إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا»[1]... أحس ﷺ بعتاب الأنصار وحبهم يتمددان في صدره، فأحب أن يقدم لهم كنوزاً لا يستحقها سواهم، ومجداً لا يطاوله غيرهم.. في الوقت الذي يفرح غيرهم بخشاش الأرض. وذلك «لما قسم رسول الله ﷺ السبي بالجعرانة، أعطى عطايا قريشاً وغيرها من العرب، [أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة ابن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

فما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فتم له رسول الله ﷺ مائة][2] ولم يكن في الأنصار منها شيء، فكثرت القالة وفشت حتى قال قائلهم: أما رسول الله فقد لقي قومه.

فأرسل إلى سعد بن عبادة فقال: ما مقاله بلغني عن قومك أكثروا فيها؟ فقال له سعد: فقد كان ما بلغك.

قال: فأين أنت من ذلك؟ قال: ما أنا إلا رجل من قومي. فاشتد غضبه وقال: اجمع قومك ولا يكن معهم غيرهم.

فجمعهم في حظيرة من حظائر النبي ﷺ، وقام على بابها وجعل لا يترك إلا من كان من قومه، وقد ترك رجالاً من المهاجرين وزاد أناساً. ثم جاء النبي ﷺ يعرف في

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٥.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ٢-٧٣٧.

وجهه الغضب، [فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. فقال رسول الله ﷺ: ابن أخت القوم منهم][1]

[فجمعهم في قبة من آدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم][2] يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟

فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

فقال: ألا تجيبون؟

قالوا: الله ورسوله آمن وأفضل.

فلما سري عنه قال: ولو شئتم لقلتم فصدقتم: ألم نجدك طريداً فآويناك، ومكذباً فصدقناك، وعائلاً فآسيناك، ومخذولاً فنصرناك؟

فجعلوا يبكون ويقولون الله ورسوله آمن وأفضل.

قال: أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قوماً أتألفهم على الإسلام، وكلتكم إلى إسلامكم، لو سلك الناس وادياً أو شعباً، وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديكم أو شعبكم، وأنتم شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار [الأنصار كرشي وعيبتي][3]، ثم رفع يديه حتى إني لأرى ما تحت منكبيه فقال: اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار.

---

(١) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٣.

(٣) سنده صحيح وهو حديث الإمام أحمد السابق.

أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وانصرفوا وهم يقولون: رضينا بالله رباً، وبرسوله حظاً ونصيباً»[1] بعد أن أشار ﷺ إلى مواقعهم ومواقع غيرهم، وأراهم هول الكنوز والأمجاد الخالدة التي سيسافرون بها عبر التاريخ، فهم وحدهم الذين استدعاهم النبي عليه السلام في الشدة، بعد أن هرب الناس وتركوه، وهم وحدهم الذين لم يقبضوا شيئاً من تلك المعركة التي هي في الحقيقة معركتهم وحدهم، وهم وحدهم غنموا النبي عليه السلام وفازوا به، بينما فاز غيرهم بالبقر والماعز.

أفاق الأنصار من كبوة عابرة، وتجلى حب الله لهم.. قبل أن يحركوا رواحلهم من هذا المكان المزدحم بالعواطف الجياشة، فقد حدث شيء سار ومفرح للنبي ﷺ وأصحابه.. خاصة الأنصار وذلك عندما شاهدوا جميعاً:

هوازن كلها تدخل في الإسلام

هاهي خيل فرسانهم تنهب الأرض نحو الجعرانة.. تبحث عن رسول الله ﷺ، لا لتقاتله، بل لتسلم وترجوه أن يطلق أطفالها ونساءها وأموالها، ويحررها من الرق لتعود بها. لكن الوقت قد فات، فقد انتظرهم النبي ﷺ أكثر من عشرة أيام.

في هذا الوقت كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سبق الجميع إلى مكة، وذلك لـ:

وفاء نذره عمر في الجاهلية

يقول ابنه عبد الله بن عمر «إن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة، بعد أن رجع من الطائف فقال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف يوماً في المسجد الحرام فكيف ترى؟ قال: اذهب فاعتكف يوماً»[2] فهو وإن كان

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبي شيبة ٧-٤١٨: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد. عاصم تابعي ثقة التقريب ٢٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢٧٧.

نذر طاعة، إلا أنه عبادة تحتاج إلى سؤال النبي ﷺ لأخذ شرعيتها، لأن العبادات في الإسلام محرمة، إلا إذا كان لها دليل من كلام الله، أو موافقة نبيه ﷺ، وهذا النذر كصلاة بلال عندما «قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة: يا بلال، حدثني بأرجي عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة؟ قال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة، من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي»[1]

فلو لم يوافق النبي ﷺ فعل بلال، لتحول ذلك العمل إلى ابتداع مرفوض في الإسلام، فذات يوم و«بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[2]

فقد وافقه النبي ﷺ على نذر الطاعة فقط، وهو الصوم، واحتج على نذر المعصية وأبطله، ففي الإسلام يجب أن تظل العبادة نقية من الزيادة والنقصان والغلو، حتى يبقى هذا الدين نقياً كما أنزل، وحتى لا يتكئ المسلم على فعل عمر أو بلال، أو حتى أبي إسرائيل رضي الله عنهم.. بدعوى أن الصحابة لا يمكن أن يخالفوا رسول الله ﷺ، فالصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، فهم يخطئون وينسون، بينما النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، وقد عصمه الله عن الخطأ في التبليغ والتشريع، والمستند الوحيد المقبول هو فعله وقوله وموافقته ﷺ، لأنه هو وحده الذي يوحى إليه، وهو وحده النبي، بل خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام وآخرهم، والبقية تبع لمحمد ﷺ، وبذلك نضمن بقاء الإسلام جديداً طرياً.. نشربه من النبع لا من الفروع التي قد تلتاث عبر التاريخ بالأهواء والعواطف والنزوات.

إذاً فقد أقر النبي ﷺ عمر على نذر الطاعة في الجاهلية، وهو الآن في مكة ليفي بنذره، في الوقت نفسه وصل مقاتلوا قبيلة هوازن إلى أرض الجعرانة معلنين إسلامهم، وانضوائهم تحت لواء الإسلام.. راجين من النبي ﷺ أن يحرر أطفالهم ونساءهم وأموالهم، فـ:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٩١٠.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٥.

هل ستحصل هوازن على ما طلبته

أحد شهود العيان «عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أتى وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

فقام رجل من هوازن أحد بني سعد بن بكر - وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ - يقال له (زهير بن صرد) وكان يكنى بأبي صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر

امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير

في أبيات قالها.

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا، فهم أحب إلينا.

فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به؛ فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله.

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. قال العباس لبني سليم: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم، فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم»(١)

وعادت هوازن مبتهجة مجموعة الشمل بالإسلام والنساء والأطفال، ونهض الجيش المسلم متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة مع النبي ﷺ، وتمايلت مطايا الأنصار تحمل النبي ﷺ فهو غنيمتها من هذه المعركة العظيمة، وفي الطريق توقف النبي ﷺ ومن معه لأداء الصلاة، ولما بدأ المؤذن بالنداء للصلاة انطلقت صيحات غريبة من خارج المعسكر المسلم.. كانوا:

مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان

ويقومون بترديد ما يقوله.. مقلدين صوته الجميل، وساخرين منه، وكان أشدهم تقليداً هو أكثرهم بغضاً للنبي ﷺ ولدينه.

وصلت صيحات الساخرين إلى مسامع النبي ﷺ، فتحرك نحو الصوت المستهزئ حاملاً في صدره حلم الداعية، ووعي المربي، وبأسلوب عذب وراق، ودون تجهم وجه أو تشنج أو ضجيج.. تهادى نحو أولئك الفتيان برفق، وقدم للتربويين في كل الدنيا درساً في استغلال الطاقات، وعدم إهدار القدرات، فحدثت هذه القصة التي يرويها أبو محذورة. وأبو محذورة هذا.. هو ذلك الشاب الذي كان شديد البغض والتقليد للأذان وأهله، حيث يقول «نعم خرجت في نفر، فكنا ببعض طريق حنين، فقفل رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق.. فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون، فصرخنا نحكيه

---

(١) سند صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢-١٧٣ وغيره: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند مشهور جداً وهو حسن لكن كلمة الأنصار وَهْمٌ من عمرو أو من ابن إسحاق لأن الأنصار لم يحصلوا على شيء من غنائم هوازن إلا إن كان المقصود كل ما حصلوا عليه من السلب فقد حصل بعض الأنصار على سلب من قتلوه أثناء المعركة.

ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع.

فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسني فقال: قم فأذن بالصلاة. فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى إلي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه فقال قل:[(١)]

«الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

ثم يعود فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة مرتين

حي على الفلاح مرتين

الله أكبر الله أكبر... لا إله إلا الله»[(٢)]

ثـم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شـيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمارها على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك.

فقلت: يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة.

فقال: قد أمرتك به. وذهب كل شـيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية، وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذنت

---

(١) انظر تخريجه في الحديث بعد التالي.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٨٧.

معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ»[1] الذي لم يعنفه، ولم يأمر بقطع رأسه، بل اكتفى بالنظر داخل هذا الفتى، فوجد طيشاً يحتاج إلى من يترفق به، ووجد مواهب ليس من العدل إهدارها على الطريق. أما الفتى فوجد من يعتني به ويقدر ما لديه، فاحتضنه بقلبه وتحول إلى أحب الناس إليه، ولم يكتف بذلك، بل طلب من النبي ﷺ في الحال أن يوظف ما لديه من قدرات في الخير، له وللناس. فكان ما أراد. فمحمد ﷺ أفضل بيئة لتنمية الإبداع ورعاية المواهب، ولكن نحو خير البشرية ورفاهها، لذلك أطلق ذلك الفتى وانطلق بجيشه نحو مكة لـ:

أداء العمرة..

وصل النبي ﷺ إلى مكة، فأدى العمرة وهذه العمرة هي الثالثة بعد عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، ثم وفى بعهد الحب بينه وبين الأنصار، فانطلق نحو شعاب الأنصار، لكن قبل أن ينطلق قام ﷺ بـ:

إعادة أدراع صفوان بن أمية

فقد «استعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية سلاحاً، فقال صفوان: أعارية، أم غصب؟ فقال: بل عارية.

فأعاره ما بين الثلاثين إلى أربعين درعاً، فغزا رسول الله ﷺ حنيناً، فلما هزم الله المشركين قال رسول الله ﷺ: اجمعوا أدراع صفوان، ففقدوا من دروعه أدراعاً، فقال

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد ٣-٤٠٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد العزيز ابن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان يتيماً في حجر أبي محذورة عن أبي محذورة... ثم قال ابن جريج: وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز وهذا السند فيه ضعف من أجل عبد العزيز فهو مقبول عند المتابعة.. ولذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول ٣٥٨ أما شيخه فتابعي ثقة: التقريب ٣٢٢ وعبد العزيز لم ينفرد فقد توبع تابعه من أدرك ابن جريج من أهله وللحديث شاهداً عند ابن خزيمة: ٢٠٠١ حدثني عثمان ابن السائب أخبرني أبي وأم عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة. وقد توبع عثمان. وصححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٦١٣).

رسول الله ﷺ لصفوان: إن شئت غرمناها لك. فقال: يا رسول الله، إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ»[1].

لقد أخجله وغمره كرم هذا النبي ﷺ الغامر وتسامحه وسعة حلمه، فأصبح لا يرى في الدنيا غير محمد وأخلاق محمد ودين محمد، فبمثل هذا المستوى من الأخلاق تنتزع القلوب، وتتهاوى تلك الجدران الغليظة التي تحول بين صاحبها وبين استمراء الحقيقة والانفتاح عليها، والنبي ﷺ لم يؤثر على كثير من الناس بسبب كثرة صلاته وصيامه أو مظهره، فبالإضافة إلى حمله حقيقة كالنهار، فإنه يحمل معها أخلاقاً كالماء البارد للعطشى والمتعبين.. يعفو عن هذا ويعطي هذا، ويثني على ذاك ويمدح رابعاً ويتنازل لخامس و.. ويبتسم في وجه الجميع، ويصدق مع الجميع، ويفي بوعوده، ويلتزم بمواثيقه ولا ينتقم لنفسه.. وقائمة لا تنتهي من الأخلاق البيضاء.. التي أعيى الكثير من المتدينين وغير المتدينين حملها. فتلك الصفات أثقل من الجبل.. إذا لم يتخلَّ الإنسان عن أنانيته، وذاته الكثيفة المعتمة التي لا يرى معها سواها. أما أولئك الذين يضعون أنفسهم ضمن الجميع، ويحكمون عليها كما يحكمون على الجميع، ويحبون للجميع ما يحبونه لها، فهم تلك النوعية الممتازة من البشر التي تستمتع بممارسة الأخلاق وتبدع في إهدائها، وهذا ما يجيده النبي ﷺ، وبه تمكن من أخذ قلب صفوان بن أمية، رغم أن صفوان لا يزال حتى الآن في مكة. أما النبي ﷺ فحمله الأنصار نحو شعبهم عندما توجه الناس نحو شعابهم، ومعه المهاجرون الأبرار، ولم يمض من الوقت غير قليل حتى تمايلت المطايا نحو المدينة فإذا:

صفوان بن أمية في المدينة

حيث تحول الوطن عنده إلى مساحات يرسمها قلب النبي ﷺ، ففي مكة «قيل لصفوان: إنه من لم يهاجر هلك.

---

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الكبرى ٦-٨٩ أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقري أنبأ الحسن بن محمد بن إسحاق ثنا يوسف بن يعقوب القاضي ثنا مسدد ثنا أبو الأحوص ثنا عبد العزيز بن رفيع عن عطاء بن أبي رباح عن ناس من آل صفوان بن أمية. وأخبرنا أبو علي الروذباري أنبأ أبو بكر بن داسة ثنا أبو داود ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا جرير عن عبد العزيز بن رفيع عن أناس من آل عبد الله بن صفوان أن رسول الله ﷺ. وله شاهد من طريق شريك بن عبد الله في مسند أحمد ٦-٤٦٥ عن عبد العزيز بن رفيع عن أمية.

فدعا براحلته فركبها، فأتى المدينة فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا أبا وهب؟ قال: بلغني أنه لا دين لمن لا هجرة له؟

قال: ارجع إلى أباطح مكة. فرجع»[1] لكنه كان متعباً «فدخل المسجد فتوسد رداءه فجاء رجل فسرقه، فأتي به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله سرق هذا ردائي. فأمر النبي ﷺ بقطعه.

فقلت: يا رسول الله لم يبلغ ردائي ما تقطع فيه يد رجل، قد جعلتها صدقة عليه.

فقال رسول الله ﷺ: فهلا قبل أن تأتيني به»[2]

فالشفاعة تجوز عندما تكون الشكوى في طريقها إلى الحاكم، أي عند الشرطة وأماكن الشكوى، أما إذا وصلت إليه، فإن الشفاعة تتحول إلى جرم خطير.. يهدد الأمن الداخلي للدولة، ويمكن للفساد من التسلل إلى جهاز القضاء والعدالة فيها، وفي التشريع الإسلامي حدود خمسة لا تجوز الشفاعة فيها هي:

حد السرقة، وحد شرب الخمر، وحد الزنا، وحد القذف، وحد الحرابة. وهي حدود ضرورية لحماية الدماء، والأموال، والأعراض، والعقول، والأنساب. فلا خير في حياة تمتهن تلك الأشياء التي تعادل الحياة نفسها، وتميز الإنسان وترفعه عن مرتبة الحيوان، فليس من المستغرب أن يرتكس الإنسان إلى درجة أسفل من درجة الحيوان، في تلك اللحظات التي ينتهك فيها تلك الأشياء، لأنه قد يفعل ذلك بوعي وإرادة وترتيب. أما الحيوان فهو يسفك ويفترس بدافع غريزي بحت، ودون وعي أو ترتيب مسبق.

تلك الأفعال التي يقوم بها الحيوان هي شرط الحياة الوحيد المتوفر لديه، وهو شرط مبرمج داخله من الخالق سبحانه. أي أنه لا يمكن له العيش دون ذلك. أما

---

(١) حديث حسن رواه مالك ومن طريقه الضياء في المختارة ٨-٢٠ أخبرنا سليمان الطبراني ثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن صفوان ابن عبد الله بن صفوان عن جده. وأحمد عن حسين بن محمد عن سليمان بن قوم عن سماك عن جعيد ابن أخت صفوان عن صفوان وعن عفان عن وهيب عن ابن طاوس عن أمية عن صفوان بنحوه.

(٢) حديث حسن رواه الإمام مالك وهو جزء من الحديث السابق.

الإنسان فله طرق كثيرة جداً للعيش.. دون الإضرار بالآخرين، لكنه يختار أحياناً طرقاً شديدة الضرر بمحض إرادته.. إرضاءً لغروره أو جشعه، أو نوازع الحقد في داخله، أو تحت تأثير العاطفة والشهوة، وهي أشياء لا تمت للضرورة أو للصراع من أجل البقاء بصلة، ومسؤولية الفرد الشخصية أمر جعله الإسلام من ثوابته، والنبي ﷺ يمارس تطبيقه الآن مع هذا السارق على أرض المدينة. فهو يسرق شيئاً ليس مضطراً للحصول عليه للبقاء حياً. كما أنه مارس ذلك داخل المسجد، وباعترافه هو.. مع ملاحظة أن النبي ﷺ لم يكن في مثل هذه الحالات يمارس الحبس على ذمة التحقيق، أو التعذيب لانتزاع الاعتراف بالقوة والقهر.

كان ﷺ يقرر قاعدة الوقوف مع المتهم حتى تثبت عليه التهمة، فعندما «أتي بسارق قد سرق شملة فقالوا: يا رسول الله. إن هذا سرق. فقال رسول الله ﷺ: ما أخاله سرق.

فقال السارق: بلى يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم إيتوني به. فقطع، ثم أتي به فقال: تب إلى الله. فقال: تبت إلى الله. فقال: تاب الله عليك»(1)

فتطبيق الحد لا يعني أن ينصرف المذنب وهو يحس أنه مراقب من قبل السلطة والمجتمع فقط، لأن تلك الرقابة تذوب متى ما أمن العقوبة، وتوفرت له سبل الفرار والخروج والتحايل على النظام. أما الإسلام فيجذر في أعماق الفرد رقابة الله، والخوف منه قبل كل شيء، فالله لا يغفو ولا ينام ولا تخفى عليه خافية، وبذلك يتوافر لدى الشريعة الإسلامية وحدها دون غيرها رقابتان: من الداخل.. حيث استشعار مراقبة الله. ومن الخارج.. حيث أحكام الشريعة ونظامها وتطبيق ذلك النظام على الجميع دون محاباة.

---

(١) صحيح وسنده حسن رواه الحاكم ٤-٤٢٢ والبيهقي في الكبرى ٨-٢٧١ وغيرهما من طرق عن عبد العزيز ابن محمد الدراوردي أخبرني يزيد بن خصيفة عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ابن ثوبان وتلميذه تابعيان ثقتان: التقريب ٤٩٢ و٢٠٦ والدراوردي حسن الحديث إلا عن عبيد الله العمري فمنكر وهذا ليس منها وله طريق أخرى عند الطبراني: ٧-١٥٧ عن السائب بن يزيد.

كان ﷺ يقــدم في المدينة لمن يأتي بعده.. دور الزعيــم والإمام، والقاضي والأب والمواطن الصالح لكل زمان ومكان.. لا يشــغله شيء عن شيء، ولا يعتذر عن مخالطة الناس وتحسس قضاياهم بكثرة مشاغله، واتساع دولته وكثرة غزواته.

هاهو في إحدى بيوته، وأحد أيامه الســعيدة يبتهج بهدية جميلة تقدمها له مارية القبطية:

مارية تلد ابناً للنبي ﷺ

سَعِدَ عليه السلام بولادة ابنه الجميل، وسماه باسم أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ. وكان هذا الرضيع الجميل يملأ قلب النبي ﷺ ويحظى بعنايته.. حتى انتقى له بيتاً من عوالي المدينة.. يتولون رضاعه، وكان يترد على ذلك البيت كالشوق.

يصفه أنس بن مالك فيقول: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مســترضعاً له في عوالي المدينــة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخل وكان ظئره قيناً، فيأخذه فيقبله ثم يرجع»(١)

كانــت تلك القبــلات الحانية موضع اســتهجان بعض الأعراب الذين أكســبتهم الصحــراء بعض ما فيها، فقد «قــدم ناس من الأعراب على رســول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكن والله ما نُقَبِّل. فقال رسول الله ﷺ: وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»(٢).

وليس هناك شــيء أشــنع من نزع الرحمة من القلب.. ســوى توهم أن الرجولة تتطامن وتنقص بتقبيل الأطفال والانحناء لهم وكأنهم نسل بهائم مستقذرة.

وإذا كان إبراهيــم الصغير عليه الســلام قد أدخل البهجة على قلب والده، وكبده من الشــوق الكثير حتى تجشــم وهو رأس الدولة عناء البحث عنه لتقبيله وضمه، مع أن باســتطاعته أن يطلب إحضاره متى شــاء وأين شاء، فإنه حزن كثيراً على ابن ابنته -لعلها- زينب، فهو الآن يعاني من مرض شديد.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

يقول «أسـامة بن زيد رضي الله عنهما: أرسـلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض فائتنا. فأرسـل يقرىء السلام: ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها.

فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع.... كأنها شن[1] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسـول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة..

كان لا يشـغله اهتمامه بشـؤون أسـرته عن الاهتمـام بقضايا أمتـه ومواصلة رسالته.

ها هو يسـتدعي أحد القادة الذين برزوا سـريعاً وبشكل ملفت (خالد بن الوليد) ويطلـب منه التوجه نحو منطقة يسـكنها بنو جذامة، وهـم حتى الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته، فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة، وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام، لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة لا تحسب على الإسلام وقعت في:

غزوة بني جذيمة..ومأساة عاشق وحبيبته

لـم ينطلق ابـن الوليد وحده نحو بنـي جذيمة، فمن مـكان لا أعرفه لكنه مفعم بالعواطف القاتلة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها (حبيش) وهي تبادله العواطف نفسـها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة، أو يتلوث بعهر. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات، فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشـاً من بين عيني عاشـقها ومضاربـه، لتنطلق العير، وتتمايل الهوادج بحبيش ووصيفاتها، فيتحطم قلب العاشـق ويرغم صاحبه على التحرك، فينطلق خلفها كالمجنون.. عابراً المفاوز والمغاور لا يعرف

---

(١) كأن قعقة نفسه صوت قربة بالية عند تحريكها.

(٢) صحيح البخاري ٥-٤٣١. ومكان النقط: قال حسبته أنه قال

وجهة غير وجهة هودجها، ولا عنواناً غير عنوان طويل تكتبه آثار راحلتها.. كان سفرها الطويــل يلهب قلبه، ويلهم شــعره حتى توقفت تلك المطايا فــي آخر المحطات، ونهاية الأســفار، حيث بلغ الجنون والوجد ذروته، ولم يبق في عقل العاشــق وقلبه مكان لغير الحبيبة حبيش.. توقفت الرواحل عند ماء (بني جذيمة) وفي الوقت الذي وصلت فيه خيل خالد بن الوليد، وهنا أصبح العاشق أمام حتفين.. حتف حبيش وحتف جيش.

كان ذلك العاشق لا يبالي بأمر خالد، فهو لا يعرفه ولا يعرف رسالته، ولا يهمه أمر ما أرســل به، ولا ما يتحدث هو وجيشه عنه.. كان مأخوذ القلب والعقل، وهو في حالة ذهول تام عما حوله من جيش وسيوف وحتى منطق، أو حتى مجرد رغبة في الحياة.

توقــف خالد بن الوليد وكان من بين جنده شــاب تضلع بســنة النبي ﷺ وهديه وســمته.. هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، وقد كان جندياً مطيعاً لإمامه الذي عينه عليه النبي عليه السلام، غير أن ذلك الجندي المطيع لله ولرسوله وولي أمره.. سرعان مــا أبدى احتجاجه على أميره وتبرمه مــن تصرفه. كل ذلك كان يحدث دون حقد، أو شحناء بين الشاب وقائده.. إنما هي الحرية التي منحها الإسلام لأتباعه في محاسبة القائمــين عليهم، وإنكار المنكر حتى في حالات تفوق حــالات الطوارئ خطورة كحالة الحرب التي يخوضها ابن الوليد اليوم.. تلك الحرية التي جعلت فتى الإســلام يقول: «بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا.

فجعل خالد يقتل ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره. فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره»(١).

لكــن خالداً رضــي الله عنه أصر على حكمه، وأن هــؤلاء يملكون وقاحة وتحدياً للإسلام في ســاحة حرب لا يردعه سوى الســيف، فقام بتوزيع الأسرى لتنفيذ حكم القتل فيهم، وكان بين هؤلاء الأسرى شاب في مثل سن آسره.. شاب مسكين لم يكن من أهل هذه الديار، ولا شــأن له بما يحدث، فهو في واد والعالم كله في واد.. شاب قاده قلبه المســكين وضعف إرادته، وعدم معرفته بديــن التوحيد إلى التيه في الصحاري..

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

خلف هذا الهودج الذي تتربع فيه معشوقته ومهوى فؤاده التي تدعى حبيشاً. لم يكن يريد من الدنيا سواها.. سوى التأمل في عينيها، لكن راحلته ساقته ليلتقي بسيف خالد بن الوليد، وهو الآن مأسور عند شاب اسمه ابن أبي حدرد. فما هي:

قصة عاشق حبيش

هي قصة ليست من خيال الأدباء والروائيين.. هي حقيقة مرة يرويها من شارك في أحداثها.. معترفاً بالمأساة التي ارتكبها، ويستغفر الله من ذلك.. يرويها شاب اسمه: ابن أبي حدرد.. كتب نهاياتها بيده، وأسدل ستائرها على أرض بني جذيمة.

بداياتها في مراتع الصبا، حيث شب فتى وشب معه عشق فتاة تدعى حبيشاً.. بادلته الفتاة بحب أضناها وأرقها، لكن والد الفتاة كان يحول دونهما، وأخلاق الفتاة كانت حارسا دون تلوث ذلك العشق بما يكدره، وتمر الأيام فترتحل الفتاة عن عاشقها، فيفقد صوابه وينسى كل شيء إلا مطيتها وهودجها، ربما كان والدها أميراً فارتحل عن دياره وجيرانه، وربما جاء أمير فأخذها إلى بيت أكثر ثراءً وجاهاً.

لكن يبدو أن الأمير لم يحمل في هودجه سوى جسدها، أما قلبها فقد أردفه ذلك الشاب معه على راحلته، يسير كلما سارت ويتوقف عندما تتوقف، وفي ديار بني جذيمة توقفت القافلة، وخلفها الشاب المتيم أمام جيش خالد، فحدث ما حدث، وأُخذ الشاب أسيراً غير آبه بالأسر، ولا بتلك السيوف، ولا بهذه الحبال، فالحبال التي تربطه بحبيش أقوى، وأسرها لقلبه أقسى.

يقول ابن أبي حدرد: «كنت يومئذ في خيل خالد بن الوليد، فقال لي فتى من بني جذيمة، وهو في سني، وقد جمعت يداه إلى عنقة برمة، ونسوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى..

فقلت: ما تشاء؟

قال: هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدي إلى هؤلاء النسوة حتى أقضي إليهن حاجة، ثم تردني بعد فتصنعوا بي ما بدا لكم [إني لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة، ثم اصنعوا بي ما بدا لكم]. قلت: والله ليسير ما طلبت.

فأخـــذت برمته، فقدته بها حتى وقـــف عليهن (فإذا امرأة طويلـــة أدماء) فقال: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش:

أريـتــك إذ طـالـبـتـكـم فـوجـدتـكـم ... بـحـلـيـة أو ألـفـيـتـكـم بـالـخـوانـق

ألـــم يـــك أهـــلاً أن يـنـــول عـاشـق ... تـكـلـف إدلاج الـسـرى والـودائـق

فـلا ذنـب لـي قـد قـلـت إذ أهـلـنـا مـعـاً ... أثيبي بـود قـبـل إحـدى الصفائق

أثـيـبـي بـــود قـبـل أن تـشـحـط الـنـوى ... ويـنـأى الأمـيـر بـالحبيب المفارق

فـــإنـــي لا ضـيـعـت ســـر أمـــانـــة ... ولا راق عيني عنك بعدك رائق

قالت: [نعم فديتك] وأنت فحييت عشراً، وسبعاً وتراً، وثمانياً تترى...

قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه»[1].

كانت المرأة تشـاهد عاشـقها وهو يضرب بالسيف.. تشـاهد رأسه يهوى عن جسده الحبيب، فلم تحتمل، ولما سـقط على الأرض تخلت عن وقارها وأسـرارها، وانحدرت من هودجهـا غير آبهـة بما حولها، ولا بمن حولهـا.. انحدرت نحو ذلك الجسـد الذي هوى على الأرض كالفجيعة، وانحنت بمشـاعر تنبض بالموت للموت.. «جاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت»[2] وجداً عليه وحزناً، كأنها أقسى العشاق وأضعفهم.

كان الصحابة ينظرون إلى ذلك المشهد الفاجعة منهم الرافض له والمتكدر كعبد الله بن عمر وأصحابه، ومنهم المندهش الذي فوجئ بما حدث، والصحابة بشـر يخطئون ويصيبون، لكن ما تقييم الإسـلام لهذه المصيبة؟ ومـا موقف النبي ﷺ من فعل خالد ومن أطاع خالداً؟

---

(١) سـنده صحيـح رواه ابـن إسـحاق: السـيرة النبويـة ٥-١٠٠: حدثنـي يعقـوب بـن عتبـة بـن المغيـرة بـن الأخنـس عـن الزهـري عـن ابـن أبـي حـدرد الأسـلمي.. يعقـوب ثقـة: التقريـب ٦٠٨ وشـيخه تابعي ثقة وإمام معروف والزيادة سـندها حسـن رواها النسـائي في الكبرى ٥-٢٠١ أنبأ محمـد بن علي بن حرب قال أنبأ علي بن الحسـين بن واقد عن أبيه عـن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس وهذا سـند حسـن من أجل علي بن الحسين فحديثه حسن إذا لم يخالف قال الحافظ صدوق يهم التقريب٤٠٠، وللحديث شـاهدان في كل منهما ضعف يسـير عند البيهقي في الدلائل ٥-١١٦ وبقية رجال النسائي ثقات.

(٢) انظر ما قبله فهو جزء منه.

دفنت المعشوقة ودفن العاشق وبقية القتلى، وعاد الصحابة إلى المدينة مثقلين بالهموم والتساؤل، ولما وصلوا قال ابن عمر رضي الله عنهما «ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد مرتين»(١).

لم يكن الدافع لهذه الأحداث هو التعطش للدماء وشهوة السيطرة والتوسع، لكنها الغيرة على التوحيد، والحماس المفرط الذي يطغى على لغة المنتصر غالباً، وهو أمر لا يمكن تبريره تحت أي عذر، فهو خطأ من خالد دون جدال، وقد تولى النبي ﷺ تحمل مسؤولية ذلك الخطأ، ولم يتنصل من تبعاته، بل لام أصحابه.

والنبي ﷺ بهذه البراءة من ذلك العمل الفظيع.. الذي استبيحت فيه دماء بريئة.. يؤيد احتجاج الشاب عبد الله بن عمر على تلك الحادثة، وإنكاره على أميره في ساعة ليست من ساعات السلام والراحة، بل في ساحة حرب يحتاج فيها القائد إلى الطاعة والامتثال من جنده أكثر من أي شيء آخر، لكن الإنكار لا يعني الخروج على إمارة خالد والتمرد عليه أبداً، بل هو مجرد رد الأمير إلى الوحي والصواب الذي بعث به النبي ﷺ. فالأمير يظل بشراً مهما بلغت عظمته.

أما موقف النبي ﷺ الرحيم تجاه ذلك العاشق وما حدث له، فيحدثنا عنه ذلك الشاب الذي شارك في إيلام النبي ﷺ، وتألم هو أيضاً مما اقترف.

ابن أبي حدرد الذي أحزنه ما حدث منه تجاه ذلك المسكين يقول: «فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر. فقال رسول الله ﷺ: أما كان فيكم رجل رحيم؟!!»(٢). أما كان فيكم رجل رحيم، فالله غني عن تلك الدماء البريئة.. الإسلام غني عنها، ومحمد بريء مما حدث.. أما فيكم رجل رحيم يمنع حدوث ذلك المشهد المؤلم، الذي لم يكن من المفترض حدوثه، فالنبي ﷺ لم يبعث هذه السرية لإرغام الناس على الإسلام، والقائد المسلم يحتاج إلى إعادة النظر كثيراً، والتفكير أكثر قبل اتخاذ قرار بقسوة قرار خالد بن الوليد رضي الله عنه، فالرحمة هي التي جعلت النبي ﷺ يحجم عن قتل الأسرى في بدر.. رغم تاريخ بعضهم الأسود ضده وضد أصحابه، وأين هؤلاء

---

(١) هو حديث البخاري السابق.

(٢) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

من أســـرى بدر! والرحمة هي التي جعلت النبي عليه السلام يعفو عن صناديد قريش، فما بالك في أناس أبرياء أرادوا أن يقولوا: أسلمنا. فقالوا: صبأنا. أي صبأنا من دين قومنا، فما بالك برجل عاشق لا ناقة له ولا جمل فيما يجري على الكرة الأرضية.

كان الأمر شـــديداً على النبي ﷺ، لكنه لم يكتف بالحزن فقط، أو البراءة فقط.. لقد مضى الأمر وأصبح تاريخاً، ولم يعد بالإمكان فعل شـــيء تجاه ذلك سوى الحزن، ومحاولـــة التعويض ولو مادياً، حيث اتخذ النبي ﷺ قراراً بدفع تعويضات للمتضررين عن ذلك الذي أحدثه تســـرع خالد وحماسه، فقد قال ﷺ «أما كان فيكم رجل رحيم.. فداء الإثنين بالواحد»(1).

ودفعت التعويضات من قائد الدولة الكبرى والوحيدة التي تكاد تســـيطر على كل الجزيرة العربية كلها.. دفعـــت التعويضات لأهل المقتولين خطأ، فأدرك أولئك عظمة هذا الدين، وهذا القائد الذي يدفع تعويضات وهو في مركز القوي الذي لا يخاف إلا من ربه، ويدفع التعويضات وهو في حالة حرب، فالحرب الإسلامية لها قواعد لا يجوز اختراقها، وقد تم اختراقها خطأ، فلا بد من الالتزام تجاه العدو في هذه الحالة، أما المخطئون فقد استغفروا ربهم وواصلوا حياتهم مع نبيهم وإخوانهم.

وفي هذا العام مرت بالمدينة أوقات عصيبة وظروف صعبة.. رغم وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، ولما اقترب وقت نضج ثمارهم أمرهم النبي ﷺ بالاستعداد للتوجه لمناجزة الـــروم علـــى أرض تبوك.. بجيش كان بحاجة إلى كل شـــيء إلا العزيمة والإيمان، فقد كان يعاني من قلة المال والطعام والمراكب، وكانوا يتطلعون إلى هذه الأوقات ليستريحوا ويتمتعوا بظل المدينة وثمارها التي بدأت في النضج، لكن كيف سيتم:

تجهيز جيش تبوك في ساعة العسرة

فهو جيش كبير يتجاوز عدده عدد جيش الفتح، ولم تكن هناك ميزانية للتســـلح، فالكل كانوا جنوداً للإسلام.. الكل كانوا أصحاب مبادئ وأهداف، لا أصحاب وظائف ومرتبات..

الكل يساهم حسب طاقته وإمكاناته، فلا إكراه ولا ضرائب ولا مكوس، وهنا و:

(1) حديث صحيح وهو جزء من حديث النسائي السابق.

في مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان

يشرق الكرم العثماني، ليؤسس نموذجاً راقياً لرجل الأعمال المسلم الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام، بل ينظر إلى الأرقام من خلال الدنيا والآخرة معاً، وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان بإنجاز، فقد قال النبي ﷺ «من يحفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرها عثمان.

وقال: من جهز جيش العسرة فله الجنة؟ فجهزه عثمان»[1].

عثمان يتحدث عن ذلك عندما أشـــرف على الناس من فوق داره ثم «قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها، فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم... وأشياء عددها»[2]. ومن المؤكد أن هناك من استجاب بسخاء لذلك النداء النبوي، لاسيما وأن هذه هي المرة الأولى التي يدعو فيها للتبرع للجيش، بينما كان في المعارك السابقة يدعو القادرين وأصحاب الرواحل للاستعداد، ولعل عمر بن الخطاب كان في سباق، لكن منافسه لم يكن يشعر به بقدر ما كان يشعر بنداء النبي ﷺ.

عمر يحاول منافسة أبي بكر

يقول رضي الله عنه: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً.

فجئت بنصف مالي فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٣-١٣٥١.

(٢) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٦٢٥ حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن أبي عبد الرحمن السلمي. السلمي صحابي وتلميذه تابعي ثقة مشهور وزيد ثقة التقريب ٢٢٢ وتلميذه الرقي ثقة التقريب ٢٧٣ (ملاحظة: ذكر الحافظ رحمه الله أنه من الثالثة وترجمته لا توحي بذلك والصواب أنه تابع تابعي لأنه يروي عن صغار التابعين كالأعمش وتلميذه ثقة أيضاً.

فأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»(١).

ولعل هؤلاء الثلاثة يجدون منافسة من رجل الأعمال الناجح المجاهد الرائع (عبد الرحمن بن عوف) الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ قال: تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً.

فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، إن عندي أربعة آلاف؛ ألفين أقرضهما الله وألفين لعيالي؟

فقال رسول الله ﷺ: بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت. فقال رجل من الأنصار: وإن عندي صاعين من تمر،صاعاً لربي، وصاعاً لعيالي»(٢).

لكن يبدو أن المنافقين لم يعجبهم هذا التسارع الجميل بالنفس والمال نحو تبوك، فقاموا بتعويض قصورهم بإطلاق الألفاظ الساخرة من المؤمنين.. يشفون بها تشوهات نفوسهم، ويطفئون بها جمر الحقد في قلوبهم «فلمز المنافقون وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء. وقالوا: أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا.

فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾»(٣).

المنافقون هم علمانيوا ذلك الزمان.. لا يريدون للدين أي تأثير على حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى العسكرية، وليس لديهم ما يقدمونه، فرسالتهم محصورة في محاربة النجاح والدهشة بما عند الأعداء، وحساباتهم للأمور تنطلق من الخواء الذي يملؤهم ويعيشون فيه، والاستهزاء بالآخرين، وإطلاق الكلمات الساخرة على الناجحين هو أسلوبهم، ولن يجدوا كغزوة تبوك أنسب لهذه السخرية..

---

(١) سنده حسن من أجل هشام رواه الدارمي ١-٤٨٠ أخبرنا أبو نعيم ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه سمعت عمر والبقية ثقات، ورواه البزار ١-٢٦٣ حدثنا محمد بن عيسى نا إسحاق بن محمد الفروي نا عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر، وفيه ضعف يسير من أجل عبد الله.

(٢) سنده حسن رواه الطبري ١٠-١٩٥ والبزار من طريق أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه. وهو حسن من أجل عمر حفيد ابن عوف وهو حسن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ في التقريب صدوق يخطئ ٤٣١، وللحديث شواهد في الصحيح وغيره.

(٣) هو آخر الحديث السابق تفسيره.

كيف لا، وهؤلاء المسلمون ونبيهم يريدون مواجهة جحافل أقوى دولة في الدنيا بجيش يجمع التبرعات، ويحتاج إلى نصف صاع وحبات تمر؟! هذه هي حسابات المنافقين، وهي حسابات تفتقد إلى الإيمان بالله، وتفتقد كذلك إلى الثقة بالنفس وقدراتها، لذلك بدأ:

بعض المنافقين يعتذر عن المشاركة في غزوة تبوك

رغم توافر المال والراحلة والصحة لديهم، لكنهم أحسوا بالموت يربض على أرض تبوك، ويحدق بالقادمين إليها، وقد ذكر الله اعتذارهم فقال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وإذا كان المنافقون يبخلون بأموالهم وأنفسهم عن صحبة النبي ﷺ، فإن هناك رجالاً يتحرقون للخروج معه عليه السلام.. رغم أنهم لا يملكون شيئاً، ولا يملك ما يحملهم عليه، فكانت لحظات الوداع.. لحظات من الدموع فـ:

عند الوداع بكى الرجال

فبعد أن رجوا النبي ﷺ أن يحملهم.. اعتذر من لهفهم وقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه.

عندها لمعت أعينهم وفاضت بالدموع، وعادوا من حيث أتوا مكسوري القلوب، وألم الحرمان يملأ صدورهم.. دموع تفيض لأن الفقر يحول بينهم وبين معانقة الموت والشهادة.. دموع خلدت أصحابها، وتردد ذكرها على مر الأجيال.

أولم يكفهم فخراً أن يذكر ربهم دموعهم، ويتحدث لعباده عنهم. نزل جبريل بكلام الله الذي يقول: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

---

(١) التوبة: ٤٩.

رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ
تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ
عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾(١).

وهؤلاء الذين يستأذنونك هم المنافقون الذين يملكون من المال الوقاحة والأعذار أرصدة طائلة.. هذا أحدهم جاء يعتذر فقبل رسول الله ﷺ عذره، لكن لم يهنأ بالقعود حتى أنزل الله فضيحته آيات ترددها المدينة في الطرقات والمساجد والبيوت وترددها الدنيا.. نزل الوحي يفضح المنافقين، ويشد أزر المؤمنين الذين تثاقل بعضهم مفضلاً تأجيل الخروج إلى ما بعد الحصاد.

نزل الوحي يسلط الأضواء على زوايا المنافقين المعتمة، وأغوارهم المليئة بالأحقاد والكراهية فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا
خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا

(١) التوبة: ٩٣.

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟
ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ
مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ
﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن
يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ
هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ
مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ
نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ
وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ
وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا
لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ
يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا
ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ
وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[١].

ويبـــدو أن هذه الآيات قـــد خنقت المنافقين فلم يجدوا هـــواءً يطيق صدورهم، ولا أرضاً تحتمل خطاهم.. لقد حول المنافقون غزوة تبوك إلى مسرح كبير.. يسخر ون فيه من جرأة المؤمنين على غزو الروم، ويتشفون فيه من قلة ما لهم ومتاعهم، وضعف حالهم. فقلب الله عليهم مســـرحهم ذلك، فتحطم فوق رؤوسهم، فأصبحوا خائفين.. خجلين من أنفسهم، ومن الشوارع والأطفال والرجال والنساء، وحتى من نخيل المدينة وجدرانها.

أما المؤمنون فيذكرهم إلههم بحال نبيهم عندما كان شريداً طريداً.. هو وأبو بكر فـــي غار ثـــور وكيف تحقق له نصر الله، وها هم الذين كانـــوا يطاردونه يتأهبون لغزو الروم خلفه جنوداً مخلصين، وســـيأتي اليوم الذي يتأهب الروم خلفه عليه الســـلام أو خلف من يخلفه، ولكن حسابات المنافقين لا تتغير أبداً..

نهـــض الصحابة خلف نبيهم في معركة تمحيص النوايا وتميز الإيمان، ولإن كانت خيبـــر تحمل بصمة لعلي رضـــي الله عنه، فإن بصمة عثمان كانـــت الأبرز على غزوة تبوك، لكن ما الذي حدث لعلي هذه المرة.. إنه ليس ضمن المســـافرين.. هل هو الرمد مرة أخرى؟

علي يتخلف عن تبوك

فقد ســـار النبي ﷺ مغادراً المدينة «ولم يكن رســـول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رســـول الله ﷺ في حر شـــديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمســـلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد الديوان)[٢] فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ســـيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله.

---

(١) سورة التوبة: [٣٨-٦٤].

(٢) أي ليس لهم دفاتر تدون فيها الأسماء.

وغزا رسـول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسـول الله ﷺ والمسـلمون معه»[1] ثم خرجوا، وقبل خروجهم توقف، وتوقف معه علي رضي الله عنه معاتباً، ومتوسلاً أن يصحبه في هذا السفر الذي يحتاج إلى علي وأمثاله، فـ «إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واسـتخلف علياً، فقال: أتخلفني والنسـاء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي»[2].

كان عليه السلام يثمن كل مجهود وكل مجتهد، وكان لا يغفل أي دور يقوم به أحد من أصحابه، فلئن كان بقاء علي في المدينة يعني في نظره الغياب عن سـاحة الوغى، فإنه في نظر النبي ﷺ يقوم بدور هارون.. عندما توجه موسـى نحو جبل الطور وهو، دور لا يقـل عن دور أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم. وقد كان عليه السـلام يعين في كل غـزوة رجلاً من أصحابه خليفة له على المدينـة - العاصمة، واليوم هو دور علي. لكن علياً هنا تميز عن سـابقيه بقرابته من النبي ﷺ، ولذلك استحق أن يكون بمنزلة هارون، لأن هارون عليه السلام كان خليفة وأخاً لموسى في الوقت نفسه.

يقوله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى تبـوك خلَّف علي بن أبي طالب، فأتاه بالجرف يحمل سـلاحه، فقال: يا رسـول الله، أتخلفني بعدك ولم أتخلف عنك في غزاة قط؟ قال: يا علي.. ارجع. فقال: يا رسـول الله، إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني إلا استثقالاً بي.

قـال: يـا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسـى، إلا أنه لا نبي بعدي. ارجع فاخلفني في أهلي وأهلك»[3].

وهو تميز يضع لكل فرد من أفراد الأمة مسـاحة يطلق فيها إبداعاته، ويجسـد فيهـا إنجازاته. فالله أنزل آيات كريمات فـي منزلة أبي بكر، وحاز عثمان على الجنة بتلك التبرعات السخية، ومن قبل تميز غيرهم بإبداعات رضي الله عنهم جميعاً، فمن

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٦٠٢.

(٣) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه الدورقي في مسند سعد ١-١٣٩: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد عن إبراهيم بن سـعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه سعد. وإبراهيم تابعي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٨٩ وتلميذه ثقة أيضاً التقريب ٤٨٥.

أراد أن ينظر إلى الصحابة نظرة الإسلام لهم، فليسلط أضواء الشمس عليهم جميعاً، ليرى كيف حركوا الدنيا، وشغلوا العالم بتكاملهم، وتنافسهم، وتميز كل فرد بقدرات وإنجازات وظفها النبي ﷺ أجمل ما يكون التوظيف. أما أولئك الذين يزوّرون حياة الصحابة باختزال الأضواء على حدث، أو فرد، أو يجعلون من بروز أحدهم انتقاصاً لغيره، فهم متعصبون يسيئون للأحداث، وللصحابة معاً، كما يسيء هؤلاء المنافقون الذين يزرعون المدينة بالإرجاف والتخذيل، والسخرية من ثقة المسلمين بأنفسهم، وجرأتهم على حدود أقوى دولة في الدنيا.

لم يكن علي وحده يلح في الخروج.. بعض المؤمنين المعدمين الذين تنوء ظروفهم بهممهم يتوجهون نحو:

النبي ﷺ وهو في حالة غضب

ربما من المنافقين.. أحد هؤلاء الفقراء رشحه أصحابه للتحدث، وهو أبو موسى الذي يقول: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله.. إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم. فقال: والله لا أحملكم على شيء [وما عندي ما أحملكم عليه] ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه علي، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم الذي قال رسول الله ﷺ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي: أي عبد الله بن قيس.. فأجبته.

فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك.

فلما أتيت رسول الله ﷺ قال: خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد - فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله -أو قال: إن رسول الله ﷺ- يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم، ومنعه في أول مرة، ثم إعطاءه إياي بعد ذلك، لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله.

فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت.

فانطلق أبو موسى بنفر منهم، حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله ﷺ ومنعه إياهم، ثم إعطاءهم بعد، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء»[1].. ثم انطلق الجميع خلفه عليه السلام محملين بالمعاناة وشظف العيش، وقلة الزاد وكثير من الإيمان، وقد «خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[2] ولم يبق في المدينة سوى علي، وأهل الأعذار و:

ثلاثة رجال من الأغنياء يتخلفون

عن مصاحبة النبي ﷺ رغم أنهم ليسوا من المنافقين، فأحدهم كان من أهل بيعة العقبة، وهو الصحابي الشاعر كعب بن مالك رضي الله عنه، الذي لم يتخلف عن غزوة أحد وما بعدها، بل إنهم كانوا من أهل الاستعداد والإعداد لهذه الغزوة. لكنه التسويف والثقة المفرطة بالنفس، والوقت الذي لا يعرف الانتظار.

يقول كعب عن ظروف تخلفه: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حيت تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.

كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ -يريد الديوان- فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

(١) صحيح مسلم ٣-١٢٦٩ والزيادة له ١٢٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٣ - ١٠٧٨.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم. فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم. فغدوت - بعد أن فصلوا - لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً.

فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء»[1].

كان كعب يشعر بغصة وبغربة داخل مدينته، لأنه لم ير فيها إلا الضعفاء والمنافقين، وهو ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء..

هو من أولئك الذين يكابدون خلف النبي ﷺ لمجابهة الروم الذين تأهبوا للقضاء على هذه الدولة الجديدة، لكنه التسويف الذي يورث الندم، ويكدس الوظائف ويصيب الإنسان بالإحباط.

لم يكن كعب وحيداً في معاناته.. هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع يمران بالتجربة المريرة نفسها، ولما تحدث الناس عنهما أمام كعب قال: مثنياً عليهما «ذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما إسوة»[2] ثلاثة من السابقين إلى الإسلام يبحثون عن مخرج مما هم فيه، ولا سبيل؟ فالنبي عليه السلام الآن في طريقه يشق السراب والعطش والقفار، في قيظ محرق ولهيب مشتعل. وإذا كان هؤلاء الثلاثة قد فقدوا الأمل باللحاق به عليه السلام، فإن رجلاً رابعاً لم يتسلل اليأس إلى نفسه..

إنه الرجل الذي تصدق بالصاع وسخر منه المنافقون:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٤.

أبو خيثمة يلحق بالنبي

في قصة تفيض بحب الله ورسوله.. يتحدث عنها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فيقول: «حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما، في حائط قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وقد بردت له فيها ماء، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم! ما هذا بالنصف. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زاداً.

ففعلتا، ثم قدم ناضحة فارتحل، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك قال لعمير: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى أقدم على رسول الله ﷺ فسار»[1] فتقدم أبو خيثمة قبله نحو النبي ﷺ.. الذي كان يعاني وأصحابه من لهيب القيظ، وشدة العطش إلى درجة لا يستطيع التعبير عنها إلا الذي عاناها وكابدها.. ومن بين هؤلاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يقول: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى أن الرجل ينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده.

فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا. فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يده فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلمت، ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جازت العسكر»[2] أي أن السحابة أمطرت على معسكر المؤمنين فقط.

معاناة شديدة تكشف عن طبيعة هذا الدين، وأن الله قضى أن لا ينتشر ويحكم في الأرض إلا بجهد البشر وتضحياتهم، وبدون ذلك لن يتمكن أبداً. أما المعجزات

---

(١) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق، وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

(٢) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ١-٥٣ من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير عن ابن عباس. ابن وهب إمام وشيخه مثله، وسعيد صدوق، وعتبة وشيخه ثقتان. وكلهم من رجال التقريب.

الحسية، فهي أدلة وبراهين تأتي مع الأنبياء، وتغادر معهم، لكن حتى المعجزات تقف طويلاً على أبواب العناد الموصدة بأقفال صدئة.. كأبواب المنافقين التي أقفلوها، وأقفلوا عقولهم دونها قديماً وحديثاً.

المنافقون لا تنفع معهم حتى المعجزات

في الطريق إلى تبوك آية كالشمس.. معجزة إلهية في السماء، وآثارها على الأرض.. لا تحتاج إلى بيان، لكن عقول المنافقين قد تعفنت مع الزمن والعناد.. سأل رجل أحد الصحابة عن النفاق والمنافقين فقال له: «هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه، ومن بني عمه ومن عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك. لقد أخبرني رجل من قومي عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الحجر[1] ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، أقبلنا عليه نقول: ويحك أبعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحاب رسول الله ﷺ في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له (عمارة بن حزم) وكان عقبياً بدرياً، وهو من بني عمرو بن مخزوم، وكان في رحله (يزيد بن نصيب القينقاعي) وكان منافقاً فقال يزيد - وهو في رحل عمارة وعمارة عند النبي عليه السلام-: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوني بها.

فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لأعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا للذي قال يزيد ابن نصيب..

---

(١) الحجر ديار ثمود قوم صالح شمال المدينة.

فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسـول الله ﷺ: ابن نصيب والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي.

فأقبـل عمارة على يزيد يجافي عنقه ويقول: يا آل عباد الله إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو والله من رحلي فلا تصحبني»(١) ولا يلام عمارة بما فعله بيزيد المنافـق هذا، فهؤلاء الذين أغلقوا ضمائرهم وعقولهم، وأكل الحسـد والعناد قلوبهم، واستنفدوا كل طرق الإقناع.. لا يجدي معهم سوى الترك، لأنه لا فائدة ترجى ولا أمل يبقى، فلا داعي لإهدار وقت يستحقه غيرهم ممن يتلهفون للحقيقة والتوحيد.

لـم يكن العطش وحده.. الخوف كذلـك كان يخيم على بعض مراحل الطريق إلى تبوك..

يقول المتدلي من حصن الطائف نحو الإسـلام (أبو بكرة) رضي الله عنه: «صلى النبـي ﷺ في خـوف الظهر، فصف بعضهم خلفه، وبعضهم بـإزاء العدو، فصلى بهم ركعتين، ثم سـلم، فانطلـق الذين صلوا معه فوقفوا موقـف أصحابهم، ثم جاء أولئك فصلـوا خلفه فصلى بهم ركعتين ثم سـلم، فكانت لرسـول اللـه ﷺ أربعاً ولأصحابه ركعتين ركعتين»(٢)

كما كان عليه الصلاة والسـلام يجمع فـي طريقه ذلك بالطريقة التي يقول عنها «معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، فيصليهما جميعاً، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سـار(٣). وكان إذا ارتحل قبل المغـرب أخر المغرب حتى يصليها مع

(١) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ومن طريقه ابن حزم في المحلى ١١-٢٢٢ والطبري في التاريخ ٢-١٨٤: حدثنـي عاصـم بن عمر بن قتادة بن النعمان الظفري قال: قلت لمحمود ابن لبيد: وعاصم تابعي مر معنا كثيراً ثقة عالم بالمغازي وشيخه صحابي.

(٢) سـنده على شـرط البخاري رواه أبو داود وغيره ٢-١٧ من طرق عن أبي حرة والأشـعث وهما ثقتان عن الحسن عن أبي بكرة والحسن مدلس،والبخاري رحمه الله روى بهذا السند أربعة أحاديث وربما أكثر في: الركوع دون الصف، والكسـوف، وتولية المرأة، وأن الحسـن سيصلح به الله بين فئتين. وأبو بكرة لم يسلم إلا بعد حنين.

(٣) ملخص ما يفعله عليه السلام في الجمع، أنه إذا تحرك قبل دخول وقت الصلاة الأولى أخر الجمع، وإذا أذن المؤذن قبل أن يتحرك قدم الجمع ثم انطلق.

العشـــاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشـــاء فصلاها مع المغرب»[1] هذا عن الجمع والقصر، أما عن:

الصيام في السفر الشاق

الصيام في هذا السفر الشاق حدث من بعض الصحابة، «جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رســول الله ﷺ في غزاة تبوك، وكانت تدعى غزوة (العســرة) فبينما نسير بعدما أضحى النهار، فإذا هو بجماعة تحت ظل شــجرة، فقالوا: يا رســول الله رجل صام فجهده الصوم؟ فقال ﷺ: ليس البر أن تصوموا في السفر»[2]

كان النبي ﷺ وأصحابه قد وصلوا إلى مكان اســمه حجر ثمود وهو ما يســمى بـ (مدائــن صالح) وهو المكان الذي كانت تعيش فيه قبيلــة ثمود، وهم قوم النبي صالح عليه الصلاة والسلام الذي أهلكهم الله بعد كفرهم وقتلهم الناقة، التي جعلها الله آية ومعجزة لنبيه، وبعد:

الوصول إلى ديار ثمود

أسرع بعض الصحابة يروون عطشهم، ويستسقون الماء ويعدون الطعام مستخدمين المــاء الموجود في هذا المكان، لكنهم فوجئوا بصوت مرتفــع يناديهم: الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة...

وهي لفظة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع داخل المســجد أو خارجه. فما الذي حدث؟

---

(١) ســنده صحيح رواه الترمذي ٢-٤٣٨ وابن حبان ٤-٣١٣ والبيهقي في الكبرى ٣-١٦٣ عن قتيبة بن سعيد الثقفــي ثنا الليث بن ســعد عن يزيد بــن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بــن جبل. يزيد تابعي ثقة فقيه وتابعه أبو الزبير وقد عنعن لكن ذلك لا يضر فهو من طريق الليث كما صرح بالسماع عند الدارمي ١-٤٢٦ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) سنده حسن رواه ابن حبان ٨-٣٢١ حدثنا عمارة بن غزية عن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة عن جابر وقد أخطأ عمارة، والصواب هو ما قاله ابن أبي حاتم في العلل ١-٣٣١ قال أبي: روى هذا الحديث شعبة عن محمد بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن الحســن عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ومحمد ابن عمرو تابعي ثقة وكذلك تلميذه.

يقـول أحد الصحابة: «نزل رسـول الله ﷺ بالناس عام تبـوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسـقى الناس من الآبار التي كان يشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبـوا القدور باللحم»(١) و«لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشـربوا من بئرها، ولا يسـتقوا منها، فقالوا: قد عجنا منها واسـتقينا. فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»(٢)

و«قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم، ثـم تقنع بردائه وهو على الرحل»(٣) «ثم زجر فأسـرع حتى خلفها»(٤) فنهض الصحابة «فأهراقـوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثـم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشـرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا. قال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»(٥) «وأمرهم أن يسـتقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»(٦) فامتثلوا أمر نبيهم عليه السـلام، ثم قام النبي ﷺ في أصحابه خطيباً وحدثهم عن قوم صالح، وعن مصير الرجل الشهير أبي رغال. فما هي..

خطبة النبي ﷺ

يقول جابر رضي الله عنه: «لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات، وقد سـألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر مـن هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوم، ويشربون لبنها يوما، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عز وجل من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل.

قيـل: من هو يا رسـول الله؟ قال: هو أبو رغال، فلما خـرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»(٧)

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وأحمد واللفظ له وسـند أحمـد صحيح ٢-١١٧ حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر يعني بن جويرية عن نافع عن بن عمر قال وصخر ثقة.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٣٦.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٨٦.

(٥) هو جزء من حديث أحمد السابق أحمد ٢-١١٧.

(٦) صحيح البخاري ٣-١٢٣٧.

(٧) سنده صحيح على شرط مسلم رواه أحمد ٣-٢٩٦ ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر وأبو الزبير مدلس لكنه صرح بالسماع عند الفاكهي في أخبار مكة ٢-٢٥١.

ويبدو أن غزوة تبوك ستكون حافلة بالدروس، لكن هل ستكون حافلة بالدماء؟ غادر النبي ﷺ وجيشه أرض ثمود:

نحو وادي القرى

وهي مدينة بين تبوك والمدينة، وفيها مر النبي ﷺ بحديقة امرأة مسلمة، فكان هذا الحوار الذي يذكره أحد الصحابة فيقول «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله ﷺ: اخرصوها. فخرصناها وخرصها رسول الله ﷺ عشرة (أوسق). وقال: أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك»[1]

والخرص هو تقدير ما على النخل من رطب.. تمهيداً لأخذ زكاته، وكان تقدير النبي ﷺ لرطب المرأة أنه يبلغ عشرة (أوسق) أي ستمائة صاع، لأن الوسق يساوي ستين صاعاً.

خرص النبي ﷺ الرطب ثم غادر وادي القرى متوجهاً نحو تبوك في:

طريق مفروش بالدروس والمعجزات

فقد كان عليه السلام يجمع في طريقه ذلك ويقصر كعادته في أسفاره: يقول أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين»[2]

أما ما يضعه المصلي أمامه كي لا يقطع أحد صلاته فـ «سئل في غزوة تبوك عن سترة المصلي؟ فقال: كمؤخرة الرحل»[3] أي العود الموجود في آخر المقعد الموجود في رحل البعير.

ويقول معاذ رضي الله عنه: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، حتى إذا كان

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.
(٢) صحيح مسلم ١-٤٨١ وبعد كلمة أميال قال الراوي: شعبة الشاك أي أن الإمام شعبة شك.
(٣) صحيح مسلم ١-٣٥٩.

يومــاً أخر الصلاة، ثــم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً، ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي.

فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئاً؟

قالا: نعم. فسبهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استسقى الناس، ثم قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناناً»[1].

نبــي تقله المعجزات وتظله، ويلهج بهــا لأجيال لم تخلق أصلاب آبائها بعد، وحين انتهى عليه السلام إلى تبوك توقف الجيش فلم يجد أحداً..

أيــن الروم..؟ أين جيشــهم الــذي لا يقهر؟!! أين دولتهم التــي أولها في أقاصي أوروبا، وآخرها ليس في تبوك..؟

لا أحد على هذه الأرض سوى النبي وأصحابه والمعجزات!!

نزل النبي ﷺ وأقيم معسكر كبير جداً، وفي أحد مجالس النبي ﷺ بين أصحابه افتقد صاحبه كعب بن مالك، وســأل عنه؟ فكانت الإجابة نقداً لاذعاً لكعب.. تفوه به أحد الجالسين.

يروي كعب مأســاته وأحزانه فيقول: «ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني ســلمة: يا رســول الله حبســه برداه ونظره في عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ»[2]

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٤ وقد تحققت المعجزة الأخرى اليوم فتبوك اليوم من أكبر المناطق الزراعية.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٠٤.

سكت لأن كعباً كان من أهل العقبة وأحد والخندق، وباقي المشاهد والغزوات، أما ما فعله معاذ ابن جبل رضي الله عنه من دفاع عن عرض أخيه الغائب، فهو استيعاب معاذ لمعنى الأخوة، وامتثال لقوله عليه السلام: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[١] فالغائب له أعذاره ومبررات غيابه، ولا مجال للقذف والتكهنات في حياة المسلم النقي، فمن أجمل ما يزين به المرء حياته وقلبه حسن الظن، وسلامة الصدر، كما يزين النبي ﷺ وأصحابه اليوم أرض تبوك.

وبينما كان الصحابة حول نبيهم في مجلسهم الودي هذا.. لاح لهم بين السراب بياض يموج خلاله، بعد أن «رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة.

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون»[٢] «فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هذا أبو خيثمة. فلما أناخ، سلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك أبا خيثمة.

فقص عليه خبره، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً»[٣]

وبعد أن مرت أيام على هذا المعسكر، وتبين أن الروم قد أصابهم الخوف والرعب من هذا الجيش المؤمن، الذي يعاني الآن من:

مجاعة على أرض تبوك

«لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة. قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا؟

فقال رسول الله ﷺ: افعلوا. فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قَلَّ الظَّهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك.

(١) سنن الترمذي ٤-٣٢٧ وهو صحيح انظر صحيح السنن للإمام الألباني رحمه الله.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٢٢.
(٣) سنده قوي وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق: حدثني محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن إبراهيم ابن سعد بن أبي وقاص أنه سمع أباه. وله شاهد عند الطبراني ٦-٣١.

فقال رسول الله ﷺ: نعم. فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم... فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم. فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه. فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة...

فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة»(١)

معجزات كثيرة طمأنت قلوب المؤلفة قلوبهم، وقوت إيمان مسلمي الفتح ومسلمي حنين وغيرهم.. معجزات ليست غريبة على عمر الذي طلبها من رسول الله ﷺ أن يدعوا الله لتحدث.

وبعد فماذا سيفعل عليه السلام ولا حرب ولا روم هنا، ولا فائدة من البقاء في مكان لا يرون فيه سوى الجوع والعطش؟

لقد قرر النبي ﷺ أن يبقى أياماً.. جاعلاً أرض تبوك مركزاً لنشاطات عسكرية وسياسية مختلفة، وأول المستهدفين بتلك النشاطات هم من جاء من أجلهم: الروم.. لقد قرر ﷺ

إرسال رسالة إلى قيصر الروم

«قال رسول الله ﷺ: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: وإن لم تقتل.

فانطلق الرجل به فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس، قد جعل له بساط لا يمشي عليه غيره، فرمى بالكتاب على البساط وتنحى، فلما انتهى قيصر إلى الكتاب أخذه، ثم دعا رأس الجاثليق(٢) فأقرأه.

(١) صحيح مسلم ١-٥٦.
(٢) ربما تعني هذه الكلمة: الكاثوليك، وهي طائفة نصرانية دولتها الفاتيكان في وسط روما.

فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك.

فنـــادى قيصر: مَنْ صاحب الكتاب فهو آمن؟ فجاء الرجل. فقال (قيصر): إذا أنا قدمت فأتني.

فلمـــا قدم أتـــاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغلقت، ثم أمـــر منادياً ينادي: ألا إن قيصـــر قد اتبع محمداً ﷺ وترك النصرانية. فأقبل جنده وقد تسـلحوا حتى أطافوا بقصره فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترى، إني خائف على مملكتي، ثم أمر منادياً، فنـــادى: ألا إن قيصـــر قد رضي عنكم، وإنما خبركم لينظـــر كيف صبركم على دينكم فارجعوا. فانصرفوا، وكتب قيصر إلى رســـول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير. فقال رسول الله ﷺ: حين قرأ الكتاب كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية، وقسم الدنانير»[1]

كانت هذه الإجابة المرتبكة تدل على أن الروم وعلى رأسهم قيصر.. بدأوا بمطالعة كتبهم المقدســـة ومراجعة نبواتها، حيث ظهر خوفهم الشديد من هذا النبي التي تشير النبـــوات في الكتاب المقدس إلى صدقه وصدق ما جاء به. لكنها الســـلطة التي تكمم الأفواه، وتغلق القلوب، وتحرم صاحبها من اتباع الحق. ففي داخل بئر بدر يتعفن أحد الأدلة، وعلى أرض بني النضير وقينقاع وخيبر.. أدلة أخرى من الحســـد والعناد لهذا النبي، وكأن كونه عربي النســـب سبة على بني إسرائيل.. الذين أهانوا النبوة والأنبياء بشكل بشع.

كان ارتباك قيصر وخوفه دافعاً لملك مدينة تدعى (أيلة) على ساحل البحر الأحمر أن يأتـــي بنفســـه.. يحمل هداياه، ويقـــدم الولاء للنبي ﷺ «جاءه ملـــك (أيلة) وأهدى لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن حبان ١٠-٣٥٧ أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الرحيم صاعقة حدثنا علي بن بحر حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا حميد عن أنس. حميد الطويل تابعي ثقة ســـمع أنس وتلميذه الفزاري ثقة حافظ. التقريـــب ٥٢٦ وتلميذه ثقة فاضل. التقريب ٣٩٨. وصاعقة ثقة حافظ التقريب ٤٩٣ وابن إسحاق قال عنه الخطيب في تاريخ بغداد ١-٢٤٨: كان من المكثرين الثقات الصادقين الأثبات عَنِيَ بالحديث وصنف كتباً كثيرة وهي معروفة مشهورة.

فكســـاه رسول الله ﷺ برداً، وكتب له رســـول الله ﷺ»[1] «كتب له ببحرهم»[2] أي أبقاه النبي ﷺ ملكاً على أيلة، ثم بعث بسرية إلى مكان آخر هو:

دومة الجندل

«بعث إلى أكيدر صاحب دومة بعثاً»[3] وأوكل قيادة هذه السرية إلى الفارس والقائد الــذي لا يهزم (خالد بــن الوليد) رضي الله عنه، وريثما يعود خالد من مهمته.. دعونا نتجول داخل هذا المعسكر، الذي حوله النبي ﷺ إلى مدرسة يتعلم منها الجميع.. حيث «أقام رســـول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[4]، وفي إحدى تلك الليالي وبعد أن فرغ من صلاته قام:

النبي ﷺ يبشر أصحابه بخمس

خمـــس هبات من اللـــه لنبيه ولهذه الأمة.. تفيض رحمة ورأفـــة بهم، وعزاءً لهذا الجيش الذي عانى الكثير، ولم يسعد بلقاء العدو وقطف الشهادة.

يقـــول أحد المشـــاركين في هذه الغزوة وهو (عبد الله بـــن عمرو بن العاص): «إن رســـول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرســـونه، حتـــى إذا صلى وانصرف إليهـــم فقال لهم: لقد أعطيت الليلة خمســـاً ما أعطيهن أحد قبلي:

أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه.

ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعباً.

وأحلت لي الغنائم آكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٢-٥٣٩ وابن حبان ١٠-٣٥٥ واللفظ الأول له.

(٣) ســـنده حســـن رواه النسائي ٨-١٩٩ وغيره عن محمد بن عمرو عن واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ سمع أنس. واقد ثقة وتلميذه حسن الحديث من رجالهما التقريب ٥٧٩ و٤٩٩

(٤) ســـنده صحيح رواه أحمـــد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بـــن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان التقريب والبقية أئمة.

وجعلت لي الأرض مساجد وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم.

والخامسة هي ما هي قيل لي: سل فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله»[1] ويقصد بها شفاعته لأمته يوم القيامة حيث يقول ﷺ «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»[2]

وقد أعطى الله للنبي ﷺ أربع شفاعات يوم القيامة:

الأولى: هي الكبرى، وهي التي يقبلها ﷺ تلبية لنداء البشر جميعاً، بعدما يعتذر الأنبياء للناس عن مخاطبة الجبار يوم القيامة. يقول ﷺ: «إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم، فيقولون له: اشفع لذريتك فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيؤتى موسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيؤتى عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ

فأوتى فأقول: أنا لها»[3].

الثانية: شفاعته لأهل الكبائر من أمته بعدما يقول ﷺ: «أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله، ثم أَخِرُّ له ساجداً فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: رب أمتي.. أمتي..

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ٢-٢٢٢ وغيره من طرق عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. يزيد ثقة مكثر: التقريب ٦٠٢ والباقي إسناد حسن معروف.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٢.

(٣) صحيح مسلم ١-١٨٩.

فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها.

فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: أمتي.. أمتي..

فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها.

فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً. فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يا رب أمتي.. أمتي..

فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار فأنطلق فأفعل»[1]

الثالثة: شفاعته لإخراج أناس من أهل النار، من الذين ارتكبوا ذنوباً كبيرة وكثيرة، لكنها لم تصل إلى حد الشرك الأكبر، وهي الشفاعة التي يخصه بها الله سبحانه وتعالى

يقول ﷺ: «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال: ليس ذاك لك، أو قال ليس ذاك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وكبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»[2]

الرابعة: شفاعته لعمه أبي طالب، وذلك أن يخفف عنه من العذاب، فيوضع على جمرتين على شكل نعلين من النار.. يغلي منهما دماغه. فقد قال «أبو سعيد الخدري: إن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب؟ فقال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه»[3]

كان الصحابة ينصتون إلى تلك الهبات الإلهية ويرجون الله شفاعة نبيه ﷺ، وكان النبي ﷺ يواصل تعليمه وتثقيفه لأتباعه في أي مكان وأي زمان.. هاهو داخل خيمته

---

(١) صحيح مسلم ١-١٨٣.

(٢) صحيح مسلم ١-١٨٣.

(٣) صحيح مسلم ١-١٩٥.

الصغيرة التي تقصدها خطوات الصحابي عوف بن مالك، وبعدما وصل قال رضي الله عنه: «أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك [في آخر السحر وهو في فسطاطه فسلمت عليه وقلت: أأدخل يا رسول الله؟ فقال: ادخل.. فقلت: كلي؟ فقال: كلك]، وهو في قبة من أدم فقال: عدد ستاً بين يدي الساعة:

موتى.

ثم فتح بيت المقدس.

ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم.

ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً.

ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته.

ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»(١) وهذا الحديث من معجزاته عليه السلام، وأما دروسه لأمته في هذه الغزوة فلم تنته.. ها هو يواصل تعليم أصحابه أمراً يتعلق بالنظافة والصلاة يعلمهم:

دروسا في المسح على مقدمة الرأس والعمامة والخفين

وكان رفيقه في تلك الليلة صاحبه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه الذي يقول: «أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك»(٢) «فقال: يا مغيرة خذ الإداوة(٣)، فأخذتها، ثم خرجت معه فانطلق رسول الله ﷺ حتى توارى عني، فقضى حاجته ثم جاء وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فذهب يخرج يده من كمها فضاقت عليه، فأخرج يده من أسفلها فصببت عليه فتوضأ وضوءه للصلاة»(٤)

وكان ذلك «قبل صلاة الفجر، فلما رجع رسول الله ﷺ إليَّ أخذت أهريق على يديه من الإداوة، وغسل يديه ثلاث مرات، ثم غسل وجهه، ثم ذهب يخرج جبته عن ذراعيه فضاق

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٥٩ والزيادة صحيحة وهي عند الحاكم ٣-٦٣٠ وغيره.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.
(٣) إناء يوضع فيه الماء.
(٤) حديث صحيح رواه مسلم ١-٢٢٩.

كما جبته، فأدخل يديه في الجبة حتى أخرج ذراعيه من أسفل الجبة، وغسل ذراعيه إلى المرفقين»[1] «فمسح بناصيته[2] وعلى العمامة»[3] «مقدم رأسه وعلى عمامته»[4]

عندها أراد المغيرة رضي الله عنه أن يخدم النبي ﷺ بنزع الخفين من قدميه الشريفتين، لكن ذلك لم يحدث. يقول المغيرة: «فأهويت لأنزع خفيه فقال دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين فمسح عليهما»[5] أي أن النبي ﷺ لبس الخف وهو متوضئ وإلا لما مسح على الخف، كما بين عليه السلام لصحابته مدة المسح على الخفين التي تبدأ من أول مسحة. فيقول عوف بن مالك الذي دخل على نبيه في قبته قبل قليل: « إن رسول الله ﷺ أمر بالمسح على الخفين في غزوة تبوك ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويوم وليلة للمقيم»[6]

درس في جواز لبس الشعوب، حيث لبس جبة شامية يصنعها النصارى، وهي أشبه بالجاكيت، وليس في ملابس الشعوب تشبه بالكفار، بل التشبه يكون عندما يلبس المسلم ملابس القساوسة والحاخامات والرهبان والكهنة، أي ملابس رجال الدين.

ولما فرغ النبي ﷺ من وضوءه وطهارته توجه مع صاحبه المغيرة لأداء صلاة الفجر فكان في ذهابهما:

درس آخر في الصلاة

يقول «المغيرة: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف، فصلى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٣١٧.
(٢) مقدمة الرأس وبداية الشعر.
(٣) صحيح مسلم ١-٢٣١.
(٤) صحيح مسلم ١-٢٣١.
(٥) صحيح البخاري ١-٨٥.
(٦) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ١-١٦١ حدثنا هشيم بن بشير قال أخبرنا داود بن عمر عن بسر بن عبد الله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني قال حدثنا عوف بن مالك الأشجعي: هشيم لم يدلس والبقية ثقات وهو متصل.

فأفزع ذلك المسلمين. فأكثروا التسبيح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم. أو قال: قد أصبتم. يغبطهم أن صلوا الصلاة لوقتها»[1].

لم يستفد الصحابة من دروس العبادة فقط كان هناك:

درس في الأحكام الجنائية

فقد حدث بين بعض الرجال ما يحدث بين البشر من نزاع وسوء تفاهم.. قد يصل إلى الاشتباك بالأيدي أحياناً، وقد وصلت الأمور هذه المرة إلى الاشتباك، فتضرر أحد الطرفين، فذهب مشتكياً للنبي ﷺ الذي كان يؤدي دور القائد والأخ والقاضي والمعلم، وقبل ذلك النبي.

يـروي لنا ما حدث صحابي كان هناك، وكان له علاقة بما حدث.. اسـمه (يعلى بن منية) فيقول: «غزوت مع رسـول الله ﷺ غـزوة تبوك، فحملت على بكر فهو أوثق أعمالي في نفسـي، فاستأجرت أجيراً فقاتل رجلاً، فعض أحدهما الآخر، فانتزع يده مـن فيه ونزع ثنيته، فأتـى النبي ﷺ فأهدرها[2] فقال: أيدفع يده إليك فتقضمها كما يقضـم الفحل»[3] فتعلم الصحابة أن خسـائر المعتدي لا تعوض، فهو السـبب فيها لا خصمه، وإذا كان أحد الصحابة قد خسر أحد أسنانه، فإن أحدهم كاد أن يفقد حياته عندما حذر عليه السلام أصحابه:

أمراً مرعباً سيحدث على أرض تبوك

ومعجزة أخرى سـتحدث على أرض المعجـزات - تبوك، معجزة خارقة لا تحدث ولا يعلمها إلا نبي.

يقول أحد الذين شاهدوا تلك الحادثة: «قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: ستهب عليكم الليلة ريح شـديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشـد عقاله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»[4]

---

(١) صحيح مسلم ١-٣١٧.

(٢) أي لم يعوضه.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٨٦.

(٤) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥.

أنها لم تكن ريحاً عادية، وإلا لم حذر عليه السـلام صحابته منها فطلب منهم أن يربطوا رواحلهم بشـدة. أما كيف عرف هذا الصحابي بمكان أخيه، فهذا ما سنعرفه بعد العودة للمدينة، وهي عودة يبدو أنها قريبة. فبعد أن «أقام رسـول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً»[١] قال أبو هريرة رضي الله عنه: « إن رسول الله ﷺ قام فينا يوم تبوك فحمـد اللـه تعالى وأثنى عليه، ثم قـال: إن الله أذن لكم بهذا المسـير، وقد أذن لكم بالرجـوع، [والذي نفـس محمد بيده لولا أنه ليس عندي سـعة فأعطيكم، ولا تطيب أنفسكم أن تقعدوا خلفي ما قعدت خلف سرية ولا بعث من المسلمين، فلوددت أني أقتل في سـبيل الله، ثم أحيى ثم أقتل، ثم أحيى بعدها مراراً، جرح الرجل جرحا في سبيل الله والله أعلم بمن يجرح في سبيله يأتي يوم القيامة كلون الدم وريح المسك]»[٢]

فتأهـب الجميع للعودة إلـى المدينة، ثم تحركوا، وبعـد أن انطلق الجيش وخلال الطريـق وجد الصحابي (معاذ بن جبل) نفسـه بقرب النبـي ﷺ، فوجدها فرصة لا يمكن تفويتها، لذلك قدم استفسـاراً يلح على مشاعره بشدة، فقال: «أقبلنا مع رسول اللـه ﷺ من غـزوة تبوك فلما رأيته»[٣] «وقد أصاب الحـر، فتفرق القوم حتى نظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني فدنوت منه، فقلت: يا رسول الله أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار.

قال: لقد سـألت عن عظيم، وإنه ليسـير على من يسـره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: وإن شئت أنبأتك بأبواب الجنة. قلت: أجل يا رسول الله.

(١) سـنده صحيح رواه أحمـد ٣-٢٩٥ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن يحيى بـن أبي كثير عن محمد ابن عبد الرحمن بن ثوبان عن جابر. يحيى وشيخه ثقتان التقريب والبقية أئمة وقد مر معنا.

(٢) سنده حسن رواه ابن أبي عاصم في السنة ١-١٧٧ حدثنا ابن مصفى حدثنا بقية بن الوليد ثنا الأوزاعي عبـد الرحمن بن عمـرو عن يحيى بن أبي عمرو الشـيباني عن أبي مريم عن أبـي هريرة.. قال الإمام الألباني: إسـناده حسـن وفي ابن مصفى كلام يسـير وبقية من جهة تدليسه ولكنه صرح بالتحديث وأبو مـريم هو الأنصاري الشـامي وهو ثقـة. وهو كما قال رحمـه الله.. والزيادة عند الطبراني في مسـند الشـاميين ٢-٣٣ وهي صحيحة لأنها زيادة الثقة يزيد بن عبد ربه الجرجسي وقد تابع محمد بن مصفى في روايته.

(٣) حديث حسن رواه ابن أبي شيبة ٦-١٥٨ أحمد ٥-٢٣٧ عن شعبة عن الحكم سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل وسنده فيه ضعف من أجل الراوي عن معاذ لكن يشهد له ما بعده ففيه متابعة قوية له.

قال: الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

قال: وإن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه. قلت: أجل يا رسول الله.

قال: أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله. وإن شئت أنبأتك بملاك ذلك كله. فسكت، فإذا راكبان يوضعان[1] قبلنا، فخشيت أن يشغلاه عن حاجتي، فقلت: ما هو يا رسول الله؟

فأهوى بإصبعه إلى فيه. فقلت: يا رسول الله، وإنا لنؤاخذ بما نقول بألسنتنا؟

قال: ثكلتك أمك ابن جبل، هل يُكبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[2]

ما أروع الإسلام فقد تحولت حياة هؤلاء العرب الأجلاف بهذا النبي إلى حياة أخرى.. نظافة وعبادة نقية وعلم وثقافة، بل أصبح العلم والثقافة في مقدمة اهتماماتهم، وأصبح رضى الله هو هدف الحصول على هذا العلم، لو وضعنا آلة تصوير لتسجل لنا كيف كانت هذه الجزيرة قبل الإسلام وبعده لما صدق أحد ما جرى.. إنها معجزة خارقة، وكأن أمة جديدة متحضرة حلت مكان تلك الأمة الوثنية.. أمة جديدة تعتبر العلم عبادة، والنظافة عبادة، والعدل والصدق والأمانة والإحسان والمواساة وكفالة اليتيم والإيثار وسائر الحركات الجميلة مهرجاناً من العبادات.. حتى حركة اللسان وسكونه.. حوَّلها الإسلام إلى عبادة.

كان ﷺ يحدث أصحابه عن اللسان وخطورته، وكأنه يستشعر تلك الأفاعي التي يخفيها المنافقون داخل أفواههم، والتي تتلمظ لنهش أعراض الصحابة وتشويه صورتهم، وقد حدث ذلك في أحد مجالس تبوك التي شملت بعض المنافقين.. حيث قام هؤلاء:

---

(١) يسرعان نحونا.

(٢) سنده قوي رواه الحاكم ٢-٤٤٧ من طريقين عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ: وميمون تابعي صدوق: التقريب ٢-٢٩١ والحكم وحبيب تابعيان ثقتان وله شاهد حسن الإسناد عند أحمد ٥-٢٣١ ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل.

المنافقون يسخرون من النبي ﷺ وصحابته

فقد «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء.

فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمر: أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾»[1]

فالسخرية من الله أو رسوله ﷺ، أو القرآن والسنة لا تعني سوى الازدراء والاحتقار، ولا يمكن تغليفها بأي غلاف آخر يخفي حقيقة الكره والتبرم. وهو أسلوب منحط وسافل.. لا ينتهجه سوى الفاشلين العاجزين عن المنافسة من وضعاء البشر.

والمنافقون في كل زمان ومكان عنوان للفشل، وهم بدلا من أن يسخروا من القرآن والسنة مباشرة.. يلجأون إلى السخرية ممن يحملونهما منهجا وعقيدة وسلوكاً، لأنهم سيفضحون أنفسهم ويكشفونها لو تجرأو على النيل المباشر للدين..

لكن كما يقال القافلة تسير والكلاب تنبح، ولكن ثمن النباح هنا كان مريرا بعد أن أنزل الله تلك الآيات التي فضحت هؤلاء المعادين للنجاح والحقيقة فأصبحوا أعداء لكل شيء حتى أنفسهم.

سارت القافلة عائدة إلى المدينة حتى وصلوا إلى وادي القرى، وهناك مروا على تلك المرأة صاحبة النخل «فلما أتى وادي القرى قال ﷺ للمرأة: كم جاءت حديقتك؟

قالت: عشرة أوسق خرص رسول الله ﷺ. فقال النبي ﷺ: إني متعجل إلى المدينة فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل»[2] لكن يبدو أن الظروف لم تكن تساعد على

---

(١) سنده صحيح رواه الطبري في ٢-٣٦٨ وابن كثير في تفسيره ٢-٣٦٨ حيث قال رحمه الله قال عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر فذكره إلى قوله تستهزئون وقد توبع ابن وهب تابعه الليث عن هشام بن سعد.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٣٩.

العجلة، فطريق العودة لـم يخل بعد من المنغصات.. التي يقذفها المنافقون الطافحون بالكراهية والحقد بعد تلك الفضيحة، وبعد هذه الغزوة التي تعتبر رصيداً من النجاح للدولة المسلمة، رغم عدم وجود قتال فيها، إلا أنها كشفت عن هيبة المسلمين عند إمبراطورية الروم، وعن حقد المنافقين على هذه النجاحات التي تم تحقيقها في فترة قياسية من أعمار الأمم، وقد حدث بين أحد المهاجرين والأنصار خلاف صغير، انتهزه المنافقون، وحاولوا استثماره لإشعال سعير الفتنة داخل هذا الجيش المسلح، عل هذه الأسلحة تجد أغماداً لها داخل أجساد المؤمنين وذلك بعدما تعالى:

صراخ الجاهلية داخل معسكر المؤمنين

وكانت بداية هذا النزاع مزاحاً ثقيلاً من أحد المهاجرين المرحين، حيث قام بضرب أخيه الأنصاري برجله أو بيده على مؤخرته، فلم يتحمل الأنصاري هذا المزاح الثقيل.

يقول جابر رضي الله عنه: «غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين»[(1)] ويضيف جابر أيضاً: «فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما هذا.. دعوى أهل الجاهلية؟!!

قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر. قال: فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[(2)].

بهذه العدالة والحكمة تقتل الفتنة مهما كانت كبيرة، انصر أخاك ظالماً بمنعه من الظلم، وانصره مظلوماً بالدفاع عنه، لكن عبد الله بن أبي ابن سلول لم تعجبه تلك الحكمة، ولا تلك العدالة، فقرر أن يثير مزابل النفاق التي تثقل صدره في وجوه المؤمنين، لعل وعسى أن تقوم حرب أهلية داخل المدينة.. يحقق من خلالها حلمه بطرد النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين، لتعود الأصنام والجاهلية والخرافة، وتعود يثرب كما كانت فيتوج ابن سلول ملكاً عليها.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٢٩٦.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٩٨.

يقول جابر رضي الله عنه: «سمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار.

فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فبلغ النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد»(١)

فأغاضت كثرتهم صدور المنافقين، وتبنى زعيمهم مشروعاً لطردهم من المدينة، وهو لا يستطيع ذلك مهما فعل، فالدولة الإسلامية أقوى من أن تتأثر بقول منافق، لكن تلك الكلمات تستدعي عصبية مقيتة قد تستشري في المستقبل، وتفسد قلوب كثير من الناس، وتتحرف بنواياهم وجهودهم نحو زوايا ضيقة وحفر صغيرة جربها العرب آلاف السنوات قبل محمد ﷺ، فما تقدموا شبراً واحداً إلا نحو الثارات والمقابر.

وقد وصل هذا التهديد لمسامع النبي ﷺ فقدم لأصحابه، ولخلفائه، وللزعماء المسلمين من بعده درساً في التعامل مع أقوال الخصوم من رعاياهم.. مهما كانوا، فحطم عليه السلام أي حجة تبرر فيها السلطة التنكيل بمن تشاء، لمجرد أنهم قالوا كلاماً يصادم سياستها، أو يحتج على ممارسة من ممارساتها.

فها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تكذب مؤمناً وهي تعلم أنه صدوق، لأنه لم يقدم أدلة أو شهوداً على ما يقول.

وها هي السلطة ممثلة بالنبي ﷺ تبرىء رأس المنافقين، وهي تجزم بكفره ونفاقه وكذبه، وهو صاحب سوابق كما في حادثة الإفك.. لماذا؟ لأن الأصل في أي إنسان يعيش في الدولة الإسلامية أنه بريء حتى تثبت التهمة عليه.. حدث ذلك رغم أن

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

ذلك القول يحمل أشد أنواع الخروج على السلطة، بل يدعو صراحة إلى تغيير نظام الحكم بالقوة.

بل إن هذا المنافق لم يكتف بالتهديد فقط، بل قدم لأهل المدينة مشروعاً خطيراً جداً يأمرهم فيه بـ:

حصار المهاجرين اقتصادياً

فقال لمن حوله: «لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله»[1] وكان الذي سمع هذه المقولة من فم ذلك المنافق مباشرة صحابي جليل اسمه (زيد بن أرقم) وهو من الأنصار أنفسهم، ومن المعنيين مباشرة بكل حرف بصقه ابن سلول، فنقل ذلك للنبي ﷺ، لكن زيداً تأذى كثيراً بعد نقله لذلك القول، وذلك لأن النبي ﷺ لم يعره اهتماماً، فقد أراد قطع كل طرقات المنافقين في التسلل نحو وحدة المسلمين، بعد أن نجحوا في التسلل في صفوفهم.. تلك الوحدة التي بدأ المؤمنون بقطف ثمارها، وبدأت البشرية تتمتع بشمسها وهوائها.

يقول زيد رضي الله عنه وهو يتحدث عن معاناته: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر أصاب الناس في شدة [في غزوة تبوك]»[2] «كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال أيضاً: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله ﷺ.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا. فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني. فأصابني هم لم يصبني مثله»[3] لأن المتحدث صادق والحالف

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٤٠ وأما بين المعقوفين فعند الترمذي ٥-٤١٧ بسند صحيح حدثنا محمد بن بشار حدثنا بن أبي عدي أنبأنا شعبة عن الحكم بن عتيبة سمعت محمد بن كعب القرظي منذ أربعين سنة يحدث عن زيد بن أرقم. وشيخ الترمذي ثقة من رجال الشيخين التقريب ٤٦٩ وشيخه محمد بن إبراهيم بن أبي عدي وقد ينسب لجده ثقة التقريب ٤٦٥ والبقية أئمة ثقات معروفون أما ما جاء عن علاقة هذا القول بغزوة بني المصطلق فهو ضعيف وإن كان في صحيح مسلم، لأنه من بلاغات سفيان رحمه الله.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩.

كاذب، والـــكل يعرف الطرفين، وكان مما زاد حزن زيد ومعاناته ذلك العتاب القاســـي الـــذي صدر من عمه وقومه، حيث يقول رضي الله عنه: «وقال عمي: ما أردت إلى أن كذبك النبي ﷺ ومقتك؟»[1]

انطوى زيد على آلامه وأحزانه، وأكمل مسيراً ثقيلاً إلى المدينة، فقد عكر المنافقون صفو غزوته وجهاده مع النبي ﷺ، وعكروا على المؤمنين ذلك أيضاً، وزاد همومه ابتهاج المنافقـــين بتصديق النبي ﷺ لهم، فقد نجحوا فـــي التملص من عواقب تلك الكلمات الخطيرة، لكن المنافقين لم يكتفوا بتلك النتيجة المفرحة، ولا بتلك البلبلة التي أثاروها، فقد خيل لهم أن هذا الجيش وقائده بلغوا من السذاجة درجة يمكن معها توجيه ضربة أخرى لهم، لكنها هذه المرة ستكون ضربة عسكرية. لقد قرر المنافقون:

محاولة اغتيال النبي ﷺ

«رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برســـول الله ﷺ ناس من أصحابه، فتآمروا عليـــه أن يطرحوه في عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يســـلكوها معه، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم.

وأخذ النبي ﷺ العقبة، وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برســـول الله ﷺ لما سمعوا بذلك، واستعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم، وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، فمشيا معه مشياً وأمر عمار أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها.

فبينا هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم من ورائهم قد غشوهم، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ، فرجع ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهـــم فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمـــون، فرعبهم الله عز وجل حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس. وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه قال: اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٦١.

فأسرعوا حتى استوى بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان. وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتهم وهم متلثمون.

فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده على أصحابه، فسماهم لهم، وقال: اكتماهم»(١)

مرة أخرى يقدم النبي ﷺ درساً في السلوك السلطوي الإسلامي الرائع في تعامله مع الآخر، وتتضح سعة الأفق والحكمة التي يتميز بها في تعامله مع الأحداث الخطيرة.. التي يمكن السيطرة عليها وتحجيمها وتجاوزها بهدوء وتعقل، ودون تعريض المجتمع والأمة إلى هزة مؤثرة.. رغم قول حذيفة رضي الله عنه في الموضع نفسه: «قال النبي ﷺ: في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة»(٢) وهي عبارة عن دمل كبيرة قاتلة.

تجاوز النبي ﷺ تلك الأزمة بنجاح، وقاد جيشه باقتدار، ولما أقبل الجيش على المدينة هش لها النبي ﷺ وطاب له الحديث عنها وعن أهلها، وهؤلاء الأوغاد أحقر من تشويه جمال طيبة الطيبة..

لهج عليه السلام بكلمات من القلب عندما اقترب منها فقال: «إني مسرع فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث. فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة فقال: هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه. ثم [قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بخير دور الأنصار قالوا: بلى يا رسول الله] قال: إن خير دور الأنصار دار بني النجار،

---

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الدلائل ٥-٢٥٦ عن عروة مرسلاً ورواه من طريق ابن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة. وهو قوي لولا عنعنة ابن إسحاق وتابعه عند البزار ٧-٣٥٠ أبو بكر بن عياش عن الأعمش وله شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ من طريق يزيد أنا الوليد يعني بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

ثم دار بني عبد الأشهل، ثم دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير.

فلحقنا سعد بن عبادة فقال أبو أسيد: ألم تر أن رسول الله ﷺ خير دور الأنصار فجعلنا آخراً، فأدرك سعد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، خيرت دور الأنصار فجعلتنا أخراً.

فقال: أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار، [ثم قال بيده فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: وفي كل دور الأنصار خير]»[1]

ثم بشر الفقراء والمعذورين داخل المدينة بحديث يرويه أنس بن مالك كالماء البارد في هذا الصيف الحار، فيقول: «إن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[2]

بشر عليه السلام أهل الأعذار من أصحابه، وكأنه يعبر عن شوقه لهم ولمدينته، وكان شوقه عليه السلام للمدينة يعرف بحركة تفيض بالمشاعر.. حركة يقول عنها «أنس رضي الله عنه: إن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها»[3] ومن يلومه عليه السلام على حبه للمدينة وأهلها..

هاقد تحرك قلبه قبله، وتحرك جيشه من خلفه حتى أقبلوا على مشارفها.. تحركت القلوب الحزينة من كلمات عبد الله بن أبي بن سلول الشنيعة، أما داخل المدينة فالمشاعر مختلفة كاختلاف الألوان.. هناك المشتاقون لرسول الله ﷺ، وهناك المنافقون الذين انتهوا من إعداد ملفات أسفهم وأعذارهم الملفقة، ليقدموها كالأفخاخ للنبي عليه السلام، وهناك عصافير المدينة وأطيارها..

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٨٥ والزيادة للبخاري ٥-٢٠٣١.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٠.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٦٦.

الصبيان الذين تسابقوا نحو ثنية الوداع

انطلقـوا كالعصافير.. نحو مدخـل المدينة من جهة تبوك والتـي يقال لها (ثنيات الـوداع).. يتلقون النبي ﷺ.. هاهو أحدهم يقول: «خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ مقدمه من تبوك إلى ثنية الوداع»[١] و«خرج الناس يتلقونه، فخرج النساء والصبيان، فكنت فيمن تلقاه مع الصبيان، حتى لقينا رسول الله ﷺ بثنية الوداع»[٢].

أحد هؤلاء الأطفال ابن الشهيد جعفر الطائر قائد مؤتة يقول: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديـه ثم جيء بأحد ابني فاطمة فأردفه خلفه، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة»[٣] وبعد أن حيا الأطفال والنسـاء.. توجه نحو المسـجد لـ «أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سـفر ضحى، دخل المسـجد فصلى ركعتين قبل أن يجلس»[٤] ثم جلس للناس، وأثناء جلوسـه عليه السـلام تهادى نحوه رجل يحاول جمع حطام قلبه.. رجل يظله الخجل ويقله.. ذو قصة مؤثرة جداً، وحزينة جداً سـنعرفها بعد قليل، بعد أن نصاحبه عليه السـلام إلى بيت فاطمة عليها السـلام، حيث «كان رسول الله ﷺ إذا خرج في سفر فآخر ما يكون عهده به من أهل بيته فاطمة رضي الله عنها وإذا قدم فأول ما يدخل عليه فاطمة رضي الله عنها»[٥] ثم توجه إلى أحد أبياته، وبعد أن دخل في ذلك البيت بزمن سمع:

---

(١) صحيـح البخـاري ٣-١١٢١ وابن حبان ١١-١١٣ والطبراني في الكبيـر ٧-١٥٨ وأحمد ٣-٤٤٩ وغيرهم واللفظ لابن حبان والطبراني على الترتيب.

(٢) صحيح، وهو الحديث السابق تماما.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٨٥.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٢٣.

(٥) حديث حسـن رواه في الآحاد والمثاني ٥-٣٥٩ وغيره من طريق سليمان المنبهي عن ثوبان وسليمان تابعي مجهول لكن للحديث شـاهد عنده أيضاً لكنه ضعيف لضعـف إبراهيم بن قعيس عن نافع عن ابن عمر، وله شاهد في المستدرك ١-٦٦٤ من طريق أبي فروة الرهاوي عن عروة بن رويم اللخمي سمعت أبا ثعلبة الخشـني. وأبو فروة ضعيف وشـاهد رابع بسـند جيد لولا أخطاء أحد الرواة الأسود بن حفص حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفر قبّل ابنته فاطمة.

صوت الدف في بيت النبي ﷺ

بل وتحت سمعه وبصره ورضاه، وفي يوم ليس من أيام العيد، وذلك عندما «جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن ردك الله سالماً، أن أضرب على رأسك بالدف.

فقال رسول الله ﷺ: إن نذرت فافعلي، وإلا فلا.

قالت: إني كنت نذرت.

فقعد رسول الله ﷺ وضربت بالدف وقالت:

أشـــرق الـــبـــدر عـلـيـنـا ... مـــن ثـــنـــيـــات الـــــوداع

وجـــب الـــشـــكـــر عـلـيـنـا ... مـــا دعـــا لـــلـــه داع»[1]

كان ﷺ يقـر هذه الجارية على نذرها، ولو كان نـذر معصية لما وافقها عليه لأن النبـي ﷺ يقـول: «لا وفاء لنذر فـي معصية، ولا فيما لا يملك العبـد»[2] «لا نذر في معصيـة الله»[3] وقد حدث من الجارية ما يؤكد ذلك في اليوم نفسـه فقد: «قالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدف. قال: أوفي بنذرك.

قالت: إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية.

قال: لصنم؟ قالت: لا. قال: لوثن؟ قالت: لا. قال: أوفي بنذرك»[4] وصدر منها بعد ذلك تصرف مضحك، لكنه في الوقت نفسه شهادة لأحد عظماء الصحابة من النبي ﷺ.

---

(١) سـنده صحيح رواه ابن حبان (موارد -١-٤٩٣) أخبرنا محمد بن إسـحاق بن خزيمة حدثنا زياد بن أيوب حدثنا أبو تميلة يحيى بن واضح حدثني الحسـين بن واقد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه. شـيخه هو الإمام ابن خزيمة وزياد ثقة حافظ: التقريب ٢١٨ وأبو تميلة ثقة ٥٩٨ وشـيخه وشـيخ شيخه ثقتان. ولم أجـد الأبيات في ابن حبـان ١٠-٢٣١ مما يعني أنها مدرجة، أو أن الهيثمي وجدها في بعض نسـخ ابن حبـان لذلك وضعها في الهامش وقـد وضعت هذا الحديث هنا لمقدمه ﷺ من ثنيات الوداع وهي الغزوة الأنسب لهذا الحدث.

(٢) صحيح مسلم ٣ - ١٢٦٢.

(٣) صحيح مسلم ٣ - ١٢٦٢.

(٤) سنده حسن رواه أبو داود ٣-٢٣٧ حدثنا مسدد ثنا الحرث بن عبيد أبو قدامة عن عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سند حسن معروف وعبيد الله ثقـة وليـس كما قال الحافظ رحمه الله أنه صدوق يخطئ - انظـر تعليقي على التقريب ١-٥٣٠ تلميذه الحارث حسن الحديث إذا لم يخالف وهو من رجال مسلم: التقريب ١-١٤٢.

حدث ذلك بعدما قال عليه السلام لها: «إن كنت نذرت فاضربي. فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر رضي الله عنه وهي تضرب، ثم دخل عمر رضي الله عنه، فألقت الدف تحتها، وقعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ إن الشيطان يخاف منك يا عمر»[1]

ويبــدو أن شــدة عمر رضي الله عنه قــد تصاعدت بعد أقــوال المنافقين وأعمالهم الخطيرة، ولسوف تكشف الأيام لنا عن مواقف هذا الرجل العظيم تجاههم، أما النبي ﷺ فقد كان سنة من السماحة واللين والرفق.. هاهو يرى:

صوراً مجسمة في بيت عائشة

تقول عليها الســـلام: «قدم رســـول الله ﷺ من غزوة تبوك، وقد نصبت على باب حجرتي عباءة، وعلى عرض بيتي ســـتر أرمني، فدخـــل البيت، فلما رآه قال: ما لي يا عائشة والدنيا.

فهتك الســـتر حتى وقع بالأرض، وفي سهوتها[2] ســـتر، فهبت ريح فكشف ناحية الستر عن بنات لعائشة (لعب) فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي.

ورأى بين طوبها فرســـاً له جناحان من رقع قال: فما هذا الذي أرى في وسطهن؟ قالت: فرس.

قال: ما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان.

قال: فرس له جناحان؟ قالت: أوما ســـمعت أن لسليمان بن داود خيلاً له أجنحة؟ فضحك حتى بدت نواجذه»[3] من قول عائشة التي تتمتع بدلال هذا الزوج الرائع ورفقته

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٧٧ وغيره من الحسين بن واقد ثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه وهو سند صحيح مر تخريجه في الحديث قبل السابق.

(٢) رف داخل الجدار.

(٣) سنده حسن رواه البيهقي في الكبرى ١٠-٢١٩ واللفظ له والنسائي في الكبرى ٥-٣٠٦ وأبو داود ٤-٢٨٣ عـن يحيـى بن أيوب حدثني عمارة بن غزية أن محمد ابن إبراهيم التيمي حدثه عن أبي ســلمة بن عبد الرحمن عن عائشـــة يحيى الغافقي من رجال الشـــيخين وشيخه لا بأس به من رجال مسلم والبقية ثقات وقد جاء في أبي داود الشك بين خيبر وتبوك.

ورفقه.. كانت عائشة تتلقى منه الذوق الراقي، والمستوى الرفيع في التعامل حتى مع أعدائه. ذات مرة كان في بيتها، فدخل عليه بعض اليهود فألقوا عليه تحية كالسم.

تقول رضي الله عنها «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا السام عليكم.

ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة. فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله.

فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟

قال رسول الله ﷺ: قد قلت: وعليكم»[1]

إذا كان هذا هو رفقه ﷺ بأعدائه، فكيف سيكون موقفه من رجال ثلاثة لا يدرون ما يقولون، بل ولا ما يفعلون وهم يرونه قد رجع ﷺ من تبوك. لنعد بالأحداث إلى حيث المسجد النبوي.. لحظة وصول النبي ﷺ وجلوسه فيه.. هناك بدأت المعاناة لـ:

الصحابة الثلاثة الذين غابوا عن تبوك

والذين ضاقت بهم الدنيا، واسودت بوجوههم حتى ضاقوا بأنفسهم.. ها هو: أحدهم الشاعر المؤمن كعب بن مالك، الذي بايع النبي ﷺ بيعة العقبة، والذي انشغل وتردد حتى فاتته الغزوة، وهو في المدينة الآن.. يصف شعوره طوال تلك الأيام التي أمضاها بين جدران يشعر بأنها تحاول خنقه، وهواء يشعر بأنه لا يطيق الدخول إلى رئتيه، وأرض تضيق به، وأعذار واهية لا قيمة لها..

كعب بن مالك يروي قصته الطويلة الدامية، في تلك الأيام السوداء فيقول: «غزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة، حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم.

(١) صحيح البخاري ٥-٢٢٤٢.

فغـــدوت بعـــد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شــيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك.

فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رســول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟

فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفيه.

فقـــال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رســـول الله مـــا علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قـــال كعب بن مالـــك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرنـــي همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من ســـخطه غداً؟ واســـتعنت علـــى ذلك بكل ذي رأي من أهلـــي، فلما قيل إن رســـول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنـــي الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه[١].

وأصبح رســـول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من ســـفر بدأ بالمســـجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال.

فجئت أمشـــي حتى جلســـت بين يديـــه، فقال لي: ما خلفك؟ ألـــم تكن قد ابتعت ظهرك؟

فقلت: بلى، إني والله يا رســـول الله لو جلســـت عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن ســـأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث

---

(١) قررت أن أصدق في أقوالي.

صـــدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو اللـــه. لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبـــاً قبل هـــذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رســـول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.

فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفســـي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟

قالوا: نعم، رجلان.. قالا مثل ما قلت. فقيل لهما مثل ما قيل لك.

فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة.

فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رســـول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفســـي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاســـتكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشـــب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشـــهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟

ثـــم أصلي قريباً منه فأســـارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتـــي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام.

فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت.

فعدت له، فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناه.

وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك.

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك.

فقلت: أطلقها، أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك.

فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟

قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه؟

فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً[1] وساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، الله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله.

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله.

قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما لقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

---

(١) جاء على فرسه مبشراً.

﴿ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا. فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾»[1].

هذه هي قصة كعب رضي الله عنه، ومعاناته التي لا تحتمل لأكثر من شهرين، لكنها تصفية المؤمنين وتربيتهم وامتحانهم، ولو كانوا من المنافقين لتم تجاهلهم.. كأن لم يكونوا ولم يكن تخلفهم. ولو مر مشرك بتلك الظروف التي مرت بكعب ورفاقه، لكان الانتحار أو الفرار أفضل خيار في نظره. لكنه الإيمان الذي يؤهل المسلم للتفوق على كل ما يمر به من أزمات.. الإيمان الذي يقول النبي ﷺ عن صاحبه، وعن قدرته على تجاوز الأزمات مهما بلغت شدتها، وعن الفرق بينه وبين المنافق: «مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز»[2] «الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد»[3]

وإذا كانت أحزان كعب وهمومه قد انزاحت، فماذا عن أحزان زيد بن أرقم، وهل سيحمله صدقه إلى عالم الهجران كما حمل كعب؟ سنتوجه إليه الآن، فهو في بيته لا يخرج منه خجلاً من صدقه، الذي حولته أيمان المنافقين ووقاحتهم إلى كذب..

هاهو غارق في همومه.. يحكي قصته فيقول: «أرسل رسول الله ﷺ إلى (عبد الله بن أبي) وأصحابه. فحلفوا: ما قالوا.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٠٣ وقد أكملت الآية بين المعقوفين وليست في البخاري.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.
(٣) صحيح مسلم ٤-٢١٦٣.

فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت. فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: إذا جاءك المنافقون: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾

فبعث إلي النبي ﷺ فقرأ، فقال: إن الله قد صدقك يا زيد»[1] ولم يعد لكذب النفاق من أرض تقله أو سماء تظله.. طاشت ضربة عبد الله بن أبي بن سلول الحقيرة والأخيرة.. لكن هذه المرة ليست في الهواء، بل في صدره، وبدأ حقده الأسود يفتك به كالسرطان، فقد عرته الآيات الأخيرات التي نزلت.. تصدق زيد بن أرقم، وتكذب أيمان (ابن أبي) وأيمان من معه من المنافقين.. فضحته تلك الآيات، ولم تبق له عيباً مستوراً بعد اليوم.. تحول إلى خرائب من الإحباط، ومما زاد في إحباطه مشاهد الجموع الهائلة والوفود العظيمة، التي بدأت تتدافع نحو المدينة لتعلن دخولها في

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٥٩ وقد أكملت الآيات وهي ليست ضمن النص.

الإســـلام، ومبايعتها للنبـــي ﷺ.. كان كل زعيم قادم إلى المدينة خنجرا في صدر (ابن سلول).. كان يختنق كلما ابتســـم المؤمنون، ويموت كلما تصافحوا وتعانقوا، وكان أشد مـــا يراه منظر قادة كان بالأمس يتمنى منادمتهم، فغدوا تابعين لهذا النبي الذي يتمنى لو خنقه بيديه، وكان من بين الواصلين إلى المدينة القائد المظفر:

خالد بن الوليد يعود مصحوباً بأكيدر

«خرجت خيل لرسول الله ﷺ، وسمع بها أكيدر دومة الجندل[1] فانطلق إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رســـول الله، بلغني أن خيلك انطلقت، وإني خفت على أرضي ومالي، فاكتب لي كتاباً لا تعرض له ولا لشيء هو لي، فإني مقر بالحق الذي هو عليّ.

فكتب له رســـول اللـــه ﷺ كتاباً، وأخرج (أكيدر) قباء منســـوجاً بالذهب مما كان كسرى يكسوهم، فقال: يا رسول الله اقبل عني هذا»[2].

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المســـلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه. فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد ابن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[3].. تحدث أنس رضي الله عنه عن ســـعد ابـــن معاذ فانهمرت دموعه لذكراه وقال: «إن ســـعداً كان أعظم الناس وأطولـــه، ثم بكى فأكثر البكاء، ثم قال: إن رســـول الله ﷺ بعث إلى (أكيدر) صاحب دومة بقباء، فأرســـل إليه جبة ديباج منســـوجة فيها الذهب، فلبســـها رسول الله ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم، ونزل فجعل الناس يلمسونها بأيديهم.

---

(١) أكيدر ملك دومة الجندل.

(٢) سنده قوي رواه في معجم الصحابة ٢-٣٥١ حدثنا محمد بن بشر أخو خطاب نا جعفر بن حميد نا عبيد الله بن إياد عن أبيه عن قيس بن النعمان. محمد ثقة تاريخ بغداد ٢ - ٩٠، وشـــيخه ثقة: التقريب ١٤٠ وعبيد الله صدوق من رجال مســـلم ووالده ثقة انظر التقريب ٣٦٩ و١١٦ لكن هناك وهم في المتن بلفظ: فإني أهديته لك. فقال النبي ﷺ ارجع بقبائك فإنه ليس أحد يلبس هذا في الدنيا إلا حرمه في الآخرة فالصحيح أنه قبلها كما سيأتي في الصحيح وغيره.

(٣) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق: السيرة النبوية ٥-٢٠٨ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أنس. وشيخ ابن إسحاق تابعي ثقة وإمام في المغازي مر معنا كثيراً.

فقال: أتعجبون من هذه! لمناديل سعد في الجنة أحسن مما ترون»[1] «ثم أوشك أن نزعه، فأرسل به إلى عمر فقيل له: قد أوشكت ما نزعته يا رسول الله؟ قال: نهاني عنه جبريل عليه السلام. فجاء عمر يبكي، فقال: يا رسول الله كرهت أمراً وأعطيتنيه؟ قال: إني لم أعطكه لتلبسه، إنما أعطيتكه تبيعه. فباعه عمر بألفي درهم»[2]

ثم إن أكيدر بعث هدية ثانية فيما بعد، فاستدعى النبي ﷺ علياً ثم أمره بأمر يحدثنا عنه علي رضي الله عنه فيقول: «إن أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير، فأعطاه علياً، فقال: شققه خمراً بين الفواطم»[3] والفواطم: فاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بن أسد (أم علي) وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم جميعاً.. فرحت الفواطم بالحرير الفاخر.. كيف لا وهي هدية محمد عليه السلام، لكن مهلاً.. لماذا قال المصطفى: شققه بين الفواطم..؟

أين زينب.. أين أم كلثوم عليهما السلام؟

لماذا لم يذكرهما النبي ﷺ؟ لماذا لم ينلهما شيء من هذا الحرير الثمين والجميل؟

سألنا وسألنا، وتوجهنا نحو بابيهما وانتظرنا.. انتظرنا طويلاً، فلم تجب زينب، ولم تعد أم كلثوم، وأمامة الصغيرة تبحث عن أمها زينب مثلنا فلا تجدها ولا تجد خالتها في طرقات المدينة، ولا عند الجيران.. لقد رحلت زينب، ومعها أم كلثوم إلى الرفيق الأعلى، ولم يبق من بنات النبي ﷺ إلا فاطمة.

لم نجد من يحدثنا عنهما سوى إحدى نساء الأنصار العظيمات وتدعى (أم عطية).. أم عطية المجاهدة والممرضة التي تقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم في رحالهم فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى»[4]

---

(١) سنده قوي وقد مر معنا تحت عنوان: دومة الجندل وانظر السنن الكبرى ٥- ٤٧٢: حدثنا يوسف بن سعيد المصيصي حدثنا حجاج بن محمد عن بن جريج أخبرني أبو الزبير سمع جابر. يوسف ثقة حافظ: التقريب ٢-٣٨١ وشيخه ثقة ثبت: التقريب ١٥٣

(٢) سنده قوي وقد مر معنا وهو الحديث السابق.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٥.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٤٤٧.

حدثتنا أم عطية عن زينب.. فقط عن غسلها، لأنها شاركت فيه، فتقول: «لما ماتت زينب بنت رســول الله ﷺ قال لنا رســول الله ﷺ: اغسلنها وتراً»[١] «اغسلنها ثلاثاً، أو خمســاً، أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وســدر، واجعلن في الآخرة كافوراً أو شيئاً من كافور، فإذا فرغتن فآذنني»[٢] وقال لهن: «ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها»[٣]

فنفذت أم عطية ومن معها ما قاله ﷺ حيث تقول: «فضفرنا شعرها ثلاثة أثلاث، قرنيها وناصيتها»[٤] «ومشــطناها ثلاثة قرون»[٥] «فلما فرغنــا آذناه. فألقى إلينا حقوه فقال: أشــعرنها إياه»[٦] أي أعطاهن إزاره الذي يشــد على الخصر، وأمرهن أن يجعلوه يلاصق جســدها الطاهر مباشــرة، ثم حملوها على الأعناق أمام حزن ابنتها الصغيرة أمامة، ثم واروها في مثواها الأخير عليها السلام، وبعد فترة أو قبل ذلك فجع النبي ﷺ مرة ثالثة.. فجع بفقد ابنته الصغرى الطاهرة أم كلثوم عليها السلام.

سألنا أنساً رضي الله عنه عن قصة موت أم كلثوم؟ فأوحت روايته أنها ماتت دون مــرض، فقد كانت تقضي مع زوجها يومــاً ودوداً ثم ماتت. يقول أنس رضي الله عنه: «شــهدنا بنت رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان. فقال: هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة؟ فقال أبو طلحة: أنا.

قــال: فانزل في قبرها. فنزل في قبرهــا فقبرها»[٧] «فلم يدخل عثمان بن عفان رضي الله عنه القبر»[٨]..

في أقل من عشر سنوات كان الأحبة والأصحاب يرحلون أمام عينيه.. يختفون من بين يديه، وهو صابر محتسب.. تدمع عينه، ويحزن قلبه، ولا يقول إلا ما يرضي الرب سبحانه، فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٢) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.
(٣) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٤) صحيح مسلم ٢-٦٤٨.
(٥) صحيح مسلم ٢-٦٤٧.
(٦) صحيح مسلم ٢-٦٤٦.
(٧) صحيح البخاري ١-٤٥٠.
(٨) ســنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٢٩ وغيره من طريق حماد بن ســلمة عن ثابت عن أنس وهو ســند صحيح متصل على شرط الشيخين.

أما أمامة بنت زينب فكانت تنافس الحسـن والحسين في التسلل داخل مشاعره عليه السلام، وداخل المسجد، أما خارج المسجد فكانت أمامة دلالاً يتبختر عبر رياض جدها ﷺ.

تقول عائشـة رضي الله عنهـا: «قدمت على النبي ﷺ حلية من عند النجاشـي أهداها له، فيها خاتم من ذهب، فيه فص حبشي.

فأخذه رسول الله ﷺ بعود معرضاً عنه، أو ببعض أصابعه، ثم دعا أمامة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب، فقال: تحلي بهذا يا بنية»[1] فتحلت به كما تحلت بعطف جدها ورعايته.. جدها الذي لم تصفُ له الحياة من الكدر والهموم والتعب، ومع ذلك يتجدد نشاطه كل يوم في نشر رسالة ربه والتبشير بها.

فكمـا كانت تلـك الأيام مليئة بالفراق المرير، فهي كذلك تفيض بمشـاهد العناق والمصافحة، واللقاءات التي تسـر كل مسـلم مخلص. فقد سالت الوفود في هذا العام من كل الجهات.. تبايع النبي ﷺ، وتدخل في دولة الإسلام طائعة مختارة.. لقد رحلت أم كلثـوم ورحلت زينـب.. رحلتا من (طيبة) في قافلة لا تمهـل أحداً، ولا تمنحه وقتا كـي ينهي أعماله، أو يـودع الجميع.. قافلة لا يعرف جدول رحلاتها التأجيل أبداً، ولم تتأخـر مواعيد وصولها أو مغادرتها يوماً من الأيام. لا أدري من غادرت قبل الأخرى. لكنهن رحلن، فلم يبق للنبي ﷺ من بناته سـوى فاطمة الزهراء التي تحتل قلبه، والتي تصفها عائشـة الوفية لخديجة وبناتها.. عائشة التي حفظت أخبارهن تصف مشاعر فاطمة ومشـاعر أبيها بالكثير والجميل عندما تقول: «ما رأيت أحداً من الناس أشبه كلاماً برسول الله ﷺ، ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة، كان رسول الله ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء يجلسـها في مكانه، وكانت إذا رأت النبي ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته»[2]

تعاظم هذا الحب لدرجة «أن رسول الله ﷺ قال: فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[3]، أما فاطمة عليها السلام فتريد أكثر من ذلك..

---

(١) صحيح البخاري ١-٤٣١.
(٢) سـنده قوي رواه إسـحاق بن راهويه ١-٨ وغيره من طريق إسرائيل أنا ميسرة بن حبيب النهدي أخبرني المنهل بن عمرو قال حدثتني عائشـة ابنة طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت.. وعائشة بنت طلحة تابعية ثقـة مشـهورة وتلميذها المنهال بن عمرو صدوق مـن رجال البخاري: التقريب ٢-٢٧٨ وتلميذه ميسـرة صدوق من رجال التقريب ٢-٢٩١.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٣٦١.

فاطمة تريد أن تثبت ذلك لزوجها

فقــد تقدم علي رضي الله عنه لخطبة صحابية هي ابنة أبي جهل، فوصل الخبر إلــى فاطمة، فانطلقت إلى أبيها، فحدث ما يرويه أحد الصحابة: «إن علياً خطب بنت أبي جهل فســمعت بذلك فاطمة، فأتت رســول الله ﷺ فقالــت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك؟ وهذا علي ناكح بنت أبي جهل.

فقام رســول الله ﷺ، فسمعته حين تشــهد يقول: أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يســوؤها، [أتخوف أن تفتن في دينها] [وأني لســت أحرم حــلالاً، ولا أحل حراماً ولكن] والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ، وبنت عدو الله عند رجل واحد.

فترك علي الخطبة»[1]

لم يبق لدى النبي ﷺ ســواها، وهي على وشــك الرحيل أيضاً،أما كلمة بنت عدو الله فليس فيها شتم لتلك الصحابية الجليلة بقدر ما هو توظيف للفظ من أجل إيصال هذه الفكرة بصوت أقوى. أما الحادثة كلها فتعني المزيد من الرحمة والمراعاة لمشــاعر المــرأة، وهي أن مــن حقها أن تطلب الطلاق أو الخلع.. إن كانت لا تحتمل زواج زوجها بأخرى، لكن عليها في الوقت نفسه أن تتحمل مسئولية قرارها، وأن لا تلوم إلا نفسها إن جاءت النتائج عكســية، فالحرية التي منحها الإسلام لها تعني أول ما تعني تحملها لمسئولية تلك الحرية الثقيلة.

هــذا بعض ما كان يحدث في بيت النبوة، أمــا خارج ذلك البيت الكريم فقد قرر النبي ﷺ وضع نهاية لمشــكلة النفاق التي أزفت على الزوال، وبدأت بالتلاشــي بموت أصحابها، وتضاءل نشــاطها بعد أن انسابت الجزيرة للنبي ﷺ ودولته، وسالت الوفود من كل فج تنضو عنها عباءة الشرك والظلام، وتدخل في دين الله أفواجاً.. أفواجاً..

ملفات النفاق وأهله

كلها اليوم مســجلة في ذاكرة أحد الصحابة، فقد اســتدعى النبي ﷺ حذيفة بن اليمان، وسلم لذاكرته قائمة بأسماء المنافقين حتى تحذر منهم الأمة.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٦٤ والزيادة لمسلم ٤-١٩٠٣.

وقال له: «في أصحابي اثنا عشـــر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في ســـم الخياط»[1] أي حتى يدخل الجمل في فتحة الإبرة، وهم أولئك الذين حاولـــوا اغتيال النبي ﷺ عندما «خرجـــوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أو الركب أو أحداً منهم؟

قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون. فقال ﷺ: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله

قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها. قالوا: أفلا تأمر بهم يا رســـول الله إذا جاء الناس فتضـــرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمد قد وضع يده في أصحابه. فسماهم لهما وقال: اكتماهم»[2]

فامتثل حذيفة وعمار رضي الله عنهما، وكتما الســـر ولـــم يخبرا أحداً بهوية أي منافق إلا بعد موته، حتى لا يصلى عليه.

وكان مما جعل مشكلة النفاق تتلاشى ويتلاشى أثرها.. ما يحدث في هذا العام المبهج:

عام الوفد

ففي هذا العام توافد زعماء القبائل نحو النبي ﷺ، حتى تحولت المدينة إلى عاصمة مزدانة ومزدحمة بالمبايعة، والالتزام السياســـي والديني بالإسلام.. كان كل يوم يمر يدني الجاهلية من نهاياتها، حيث يعود كل وفد إلى دياره محطماً داخل أعماقه كل رموز الجاهلية، وعندما تطأ أقدامه دياره.. تبدأ الأيادي التي تعلمت الطهارة في المدينة بتحطيم الأصنام والأوثان التي كانت تعبد من دون الله الواحد الأحد، ولعل من أول الوافدين

وفد الطائف (ثقيف)

الذين انحدروا من جبال العناد والطائف نحو المدينة مبايعين، وكان بصحبتهم رجل شـــريد أعياه التعب والخوف من النبي ﷺ، وضاق به الطائف، بل ضاقت به الأرض..

(١) صحيح مسلم ٤-٢١٤٣.

(٢) حديث حسن مر معنا عند الحديث عن العودة من تبوك.

ضاقت الدنيا بوحشي بن حرب قاتل حمزة، لكن رجلاً حكيماً نصحه بالانحدار معهم والتوجه نحو أبواب الحرية الحقيقة التي أشرعها النبي ﷺ.

يقول وحشي أنه بعد غزوة أحد: «لما قدمت مكة أعتقت، ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت علي المذاهب. فقلت ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إني لفي ذلك من همي، إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة»[1] مع وفد ثقيف، الذين فرضوا على النبي عليه السلام شروطاً غريبة تمنحهم -كما يظنون- تميزاً بين القبائل، لكن أفق النبي ﷺ كان كالمدى، ونظرته كانت أبعد بكثير، فما هي قصة وفد ثقيف المملوءة بالكثير والجميل.

اقتربنا من المدينة، فإذا رواحل ثقيف تقف خارجها، حيث يقوم بحراستها شاب يقال له (عثمان بن العاص)

سألناه: ما شأنك يا عثمان، ولم لم تذهب مع أصحابك لمبايعة النبي ﷺ؟ فهم هناك منذ أيام وأنت هنا.. أولم تسلم بعد..؟

أجابنا عثمان عن كل تساؤلاتنا فقال: «قدمت في وفد ثقيف حين وفدوا على رسول الله ﷺ، فلبسنا حللنا بباب النبي ﷺ، فقالوا: من يمسك لنا رواحلنا؟ وكل القوم أحب الدخول على النبي ﷺ وكره التخلف عنه؟

قال عثمان: وكنت أصغر القوم، فقلت: إن شئتم أمسكت لكم على أن عليكم عهد الله لتمسكن لي إذا خرجتم؟

قالوا: فذلك لك. فدخلوا عليه»[2]

(١) جزء من الحديث الصحيح الذي مر معنا حول شهادة حمزة وهذا لفظ ابن إسحاق.

(٢) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ٩-٥٠ حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ثنا سعيد بن أبي مريم ثنا محمد بن جعفر عن سهيل بن أبي صالح عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن عثمان بن أبي العاص. حكيم وتلميذه صدوقان. التقريب ١٧٦ و٢٥٩ وابن جعفر ثقة وتلميذه ثقة ثبت فقيه وشيخ الطبراني صدوق التقريب ٤٧١ و٢٣٤ و٥٥٨.

تركنا عثمان لفترة ولحقنا بالوفد الذي كان بينهم الآن رجل مصاب بمرض معد. فأحب النبي ﷺ أن يقدم لأمته وللدنيا درساً في الوقاية من الأمراض المعدية.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: «كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ إنا قد بايعناك فارجع»(١) فرجع.

حدث ذلك في الوقت الذي يقول فيه عليه السلام: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»(٢) ففي هذا التطبيق العملي إسقاط لخرافة العقيدة الجاهلية.. حول العدوى والتشاؤم والبومة وشهر صفر، وأن هذه الأشياء موجودة حقيقة، لكنها لا تقدم ولا تؤخر، ولا تضر ولا تنفع ولا تؤثر بنفسها، وأن الأمر بيد الله وحده.. أما عن انتقال المرض فقد خلق الله له أسباباً وطرقاً.. حث النبي ﷺ على قطعها والسلامة منها، فالجذام قد ينتقل عن طريق اللمس أو استخدام أدوات المريض، ولذلك أمر ﷺ بالفرار من المجذوم، وأما الطاعون وهو مرض معدي وفتاك، فقد شدد ﷺ في أمره، حتى أوجب أن يكون هناك حجر صحي على المريض والمرض معاً، حتى في حالة عدم وجود دولة أو نظام أو أطباء فقال: «إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»(٣)

إذاً فقد رجع الثقفي المريض من حيث أتى، أما بقية وفد ثقيف فبايعوا واشترطوا شروطهم، ولما سألنا «جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت؟

قال: اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد، وأنه سمع النبي ﷺ بعد ذلك يقول: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»(٤)

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٥٢.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢١٥٨.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٧٣٨.

(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٣-١٦٣ حدثنا الحسن بن الصباح ثنا إسماعيل يعني ابن عبد الكريم حدثني إبراهيم يعني ابن عقيل بن منبه عن أبيه عن وهب قال سألت.. وله طريق آخر عند أحمد ٣-٣٤١ وفي الآحاد والمثاني ٣-١٨٨ من طريق ابن لهيعة وموسى بن عقبة عن أبي الزبير سألت جابر وهما طريقان الأول قوي والثاني صحيح.

تلك هـــي نظرة النبي الحكيم الذي يبحث عن القلــوب لا عن الجيوب.. كان ﷺ يدرك أن هؤلاء القوم الباحثين عن تميز إيجابي لن يرضوا بالنقيصة مســتقبلاً، فهم وإن امتنعوا عن الجهاد ودفع الزكاة، فسيأتي اليوم الذي يشعرون فيه أن امتيازهم هذا تحول إلى نقص في الحقيقة وعيب لن يرضوه لأنفسهم.. عندما يرون الأمة كلها تدفع زكاة ربها، وتهب كلها للجهاد في سبيله.

ولم يكن النبي يســتخدم هذا الأســلوب مع الجماعة فقط، بل مع الأفراد أيضاً، فقد قدم إلى المدينة رجل يريد الإســلام، ولكن بشــرط أغرب من شرط ثقيف: «أتى النبي ﷺ على أن يصلي صلاتين. فقبل منه»[1] لأن المشكلة هنا هي الشرك ووحشته، فإذا خرج من ضيق الشــرك إلى فضاءات الإســلام الرحبة، فإنه سوف يرف مع غيره في تلك الأجواء الجميلة والرائعة، ولن يرضى لنفســه البقاء في المؤخرة، لا سيما وأن من يشــترطون تلك الشــروط.. يرون لأنفسهم ما لا يرون لغيرهم قبل دخول الإسلام، فإذا دخلوه أدركوا أن غيرهم قد تجاوزهم بمسافات من الوعي والإنجاز.

لنعد إلى ثقيف التي دخلت الإسلام، فضرب لهم النبي ﷺ قبة، وأقام معهم فيها ترقيقــاً لقلوبهم، ولمنحهم مزيداً من الجرعات الإيمانية والعلمية، حتى بدأوا يســألون عن فروع الإسلام، فتحت تلك القبة تلقت ثقيف دروساً واشترطت شروطاً.

يقول الأنصاري الكريم «جابر بن عبد الله: إن وفد ثقيف سألوا النبي ﷺ فقالوا: إن أرضنا أرض باردة فكيف بالغسل؟ فقال: أمَّا أنا فأفرغ على رأسي ثلاثاً»[2]

ويقول أحدهم واسمه أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه: «أتيت رسول الله ﷺ في وفد ثقيف فكنا في قبة، فقام من كان فيها غيري وغير رسول الله ﷺ، فجاء رجل فســاره فقال: اذهب فاقتله. ثم قال: أليس يشــهد أن لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكنه يقولها تعوذاً.

---

(١) ســنده صحيح رواه أحمد ٥-٣٦٣ ثنا وكيع ثنا شــعبة عن قتادة عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أتى.. ووكيع وشــعبة وقتادة أئمة معروفون ونصر تابعي ثقة من رجال مســلم وقتادة عن نصر على شرط مسلم.. انظر صحيح مسلم ١-٢٩٣.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٥٩.

فقال: رده. ثم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»[(١)]

درس في الوقاية من الأمراض، ودرس في النظافة، وثالث في وقاية النفس وحفظ الدماء يقدمها النبي ﷺ للمتهورين، الذين سمحوا لأنفسهم بالقفز فوق أسوار المظاهر لاقتحام النوايا والبواطن. وخلال تلك الدروس تسلل من تلك الخيمة رجل تلفع بالخجل والعار، والخوف والرجاء أيضاً.. تسلل وحشي فجأة رامياً بحربة الشرك وحريته ودماء حمزة، وكل ذنوبه بين يدي الله ورسوله.. راضياً بحكم الله في مصيره.

وحشـــي يكمل فصول قصته فيقول أنه: «لما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليســلموا تعيت علي المذاهب، فقلت: ألحق بالشـــام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك، إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشـــهد شـــهادته. فلما قال لي ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعه إلا بي قائماً على رأسه.. أتشهد بشهادة الحق.

فلما رآني قال: أوحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله.

قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة. قال: فحدثته كما حدثتكما. فلما فرغت من حديثي قال: ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك. قال: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله ﷺ»[(٢)] مع بقائه رضي الله عنه في المدينة وسكناه فيها، ومشـــاركته للنبي ﷺ في غزواته، وحضوره لمجالســـه وروايته لحديثه. لكن حجم حمزة رضي الله عنه وطريقة قتله في ميزان محمد الإنسان، لا النبي.. جعلته لا يطيق النظر إلى وجه قاتل حمزة.. ذلك الوجه الذي سيجدد أحزانه وينشط أوجاعه.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٨ والدارمي ٢-٢٨٧ والطبراني ١-٢١٧ والنسائي في الكبرى ٢-٢٨٣ من طرق عن شعبة عن النعمان قال سمعت أوساً.. وشعبة بن الحجاج إمام لقب بأمير المؤمنين في الحديث وشيخه تابعي ثقة من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٠٤.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - السيرة النبوية ٤ - ١٧.
حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث عن ســليمان بن يسار عن جعفر ابن عمرو بن أمية الضمري قال: خرجت أنا وعبيد الله بن عدي بن الخيار... وقد مر معنا تخريجه، فشيخ ابن اسحاق وشيخ شيخه ثقتان.

وبعد إسلام ثقيف ووحشي..

بعد تلك الدروس وغيرها وبعد أيام ودعوا نبيهم ﷺ متجهين ومبتهجين نحو الطائف، وكان قلبه عليه السلام مبتهج بإسلام هؤلاء القوم.. هؤلاء الذين أبكوه يوما وأدموا قدميه.. كان سعيداً بهم.. كيف لا، وهو يرى دعوته المريرة قد استجيبت.. وهو يرى رحمته بهم وحنوه عليهم تجعلان من قلوب أهل الطائف بساتين للإسلام.. يالها من ذكريات قصها على عائشة عن هؤلاء القوم، عندما قال لها: «عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد.... إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[1]

ها هم يعبدون الله لا شريك له، ويبايعون، وينصرفون مصحوبين بالسلامة، ولما وصلوا إلى حيث رواحلهم التي يحرسها الشاب عثمان بن أبي العاص.. طلبوا منه التحرك نحو الطائف وعدم الدخول إلى المدينة.

لكن ذلك الشاب كان عالما من الشوق لنبيه.. كان يحمل في قلبه أشياء لا يستطيع أحد أن يحملها أو يترجمها عنه.

يقول رضي الله عنه: إن قومه ثقيف «خرجوا فقالوا: انطلق بنا قلت: أين؟ فقالوا: إلى أهلك.

فقلت: ضربت من أهلي حتى إذا حللت بباب النبي ﷺ أرجع ولا أدخل عليه؟ وقد أعطيتموني من العهد ما قد علمتم! قالوا: فاعجل فإنا قد كفيناك المسألة، لم ندع شيئاً إلا سألناه عنه.

فدخلت، فقلت: يا رسول الله، ادع الله يفقهني في الدين ويعلمني. قال: ماذا قلت؟

---

(١) صحيح ٣-١١٨٠.

فأعدت عليه القول. فقال: لقد سألتني شيئاً ما سألني عنه أحد من أصحابك. اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تقدم عليه من قومك، وأُمَّ الناس بأضعفهم»[1] أي إذا صليت بقومك، فاجعل طول صلاتك مناسبا لأضعفهم.

ثم أوصاه النبي ﷺ بوصية هامة:

النهي عن اتخاذ مؤذن يطلب أجراً على أذانه

قال ﷺ لعثمان «أنت إمامهم، فاقتد بأضعفهم واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً»[2] فالتطويل على الناس في الصلاة ليس دليل علم، بل دليل جهل وقلة فقه.. إذا كان فيهم الضعيف والمريض، واتخاذ الأجر على الأذان ينقل الأذان من قائمة العبادات، إلى قائمة الحرف والمهن والوظائف الدنيوية، وقد يفقد صاحب هذه النية ذلك الحلم الرائع، الذي بشر به النبي ﷺ المؤذنين عندما يكون «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[3]

وهذا ما يبحث عنه عثمان، الذي يواصل حديثه الممتع فيقول: «فخرجت حتى قدمت عليه مرة أخرى فقلت: يا رسول الله اشتكيت بعدك»[4] حيث «شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم؟ فقال له رسول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً. وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[5]

وشكا له أمراً آخر يجده في صلاته «فقال: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها علي؟

(١) حديث صحيح مر معنا أوله عند قدوم وفد ثقيف.
(٢) سنده صحيح أحمد ٤-٢١ وغيره من طريق سعيد الجريري عن أبي العلاء عن مطرف عن عثمان بن أبي العاص.. فسعيد بن إياس ثقة التقريب ٢٣٣ وأبو العلاء كان ثقة فاضلاً كبير القدر سير أعلام ٤-٤٩٤ ومطرف بن عبد الله تابعي كبير ثقة التقريب ٥٣٤.
(٣) صحيح مسلم ١-٢٩٠.
(٤) هو آخر حديث عثمان السابق.
(٥) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

فقال: رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً.

قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»[1]

ومثل هذا الشيطان الذي عرض لعثمان في صلاته شياطين آخرون.. يعرضون لكل مسلم يصلي، وبطريقة غاية في الخبث، فهم يشغلون المصلي بالطريقة التي يحبها المصلي نفسه، فهو يأتي التاجر أثناء صلاته بقائمة من المشاريع الاقتصادية الناجحة، ويذكره بما له وما عليه، ويثير خوفه على ماله. ويقدم لمن تستهويه النساء ألبوماً بالصور والأساليب الجديدة للقنص، أما العلماء فهو يحاورهم في بحوثهم ومراجعهم، وآخر ما توصلوا إليه، بل يناقش بعضهم بأمور الصلاة نفسها، ويشغلهم بصلاة من حولهم، وكيف يرتكبون أخطاء فيها. أما العباد والزهاد الذين لا يحتمل أن الشيطان يستطيع التغلغل إلى صلاتهم، فهو يقدم لهم النصح والإرشاد والوعظ أيضاً أثناء صلاتهم، ويحثهم على القيام بأداء النوافل بعد الصلاة، والتصدق وبر الوالدين وصلة الرحم، بل ويذكرهم بعناوين الأقارب الذين لم يروهم منذ فترة، وفي النهاية يسلم المصلي وقد أدرك أنه كان في رحلة مثيرة مع الشيطان.

أما قصة عثمان مع الشيطان فيقول عنها: «قلت: يا رسول الله إني أجد في نفسي شيئاً قال: أدنه فجلسني بين يديه، ثم وضع كفه في صدري بين ثديي، ثم قال: تحول. فوضعها في ظهري بين كتفي. ثم قال: أم قومك فمن أم قوماً فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده فليصل كيف شاء»[2] فكان «آخر ما فارقه رسول الله ﷺ قال: إذا صليت بقوم فخفف بهم، حتى وقت لي: اقرأ باسم ربك الذي خلق» «وأشباهها من القرآن»[3] وهي

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٧٢٨.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٤١.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٤-٢١٨ واللفظ له والآخر لـ ابن سعد ٥-٥٠٨ عن عبد الله بن عثمان بن خثيم حدثني داود بن أبي عاصم عن عثمان بن أبي العاص. داود تابعي ثقة: التقريب ١١٩ وتلميذه عبد الله صدوق من رجال مسلم: التقريب ٣١٣.

سـنة النبـي ﷺ التي يقول عنها أنس رضي الله عنه «مـا صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من رسول الله ﷺ»[1].

انطلق وفد ثقيـف، وجاءت وفود أخرى، وكان أفضلها وفـد قبائل: عبد القيس، وأسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقدمت بعدها وفود أخرى

وفد جميل من المشرق

هذا الوفد القادم من المشرق.. قد تميز بأشياء جميلة عطر بها النبي ﷺ أجواءهم، وأشـجى بها أسماعهم، وكأنها مكافأة لهم على تجشـمهم الصعاب في الوصول إليه، حيث إنهم لا يسـتطيعون السـفر للمدينة إلا في الأشـهر الحرم، نظراً لأن أعداءهم يحولون بينهم وبين ذلك.. ذلك الوفد هو:

وفد البحرين

يقول أحد الصحابة: «إن وفد عبد القيس لما أتوا رسول الله ﷺ قال: مَنِ الوفدُ؟ قالوا ربيعة. قال: مرحباً بالوفد أو القوم غير خزايا ولا ندامى.

قالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك كفار مضر، فمرنا بأمر ندخل به الجنة، ونخبر به من وراءنا؟

فسـألوا عن الأشـربة؟ فنهاهم عن أربع، وأمرهم بأربع.. أمرهم بالإيمان بالله. قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم

قال: شـهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأظن فيه صيام رمضان، وتؤتوا من المغانم الخمس، ونهاهم عن الدباء، والحنتم، والمزفت، والنقير»[2] «احفظوهن وأبلغوهن من وراءكم»[3]

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٥٢.

«قالــوا: يا نبي الله ما علمك بالنقير؟ قال: بلــى جذع تنقرونه، فتقذفون فيه من القطيعاء، أو من التمر، ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا ســكن غليانه شــربتموه، حتى إن أحدكم أو إن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف.

وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك قال: وكنت أخبئها حياء من رسول الله ﷺ. فقلت: ففيمَ نشرب يا رسول الله؟

قال: في أسقية الأدم التي يلاث على أفواهها. قالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان، ولا تبقى بها أسقية الأدم؟

فقال نبي الله ﷺ: وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان، وإن أكلتها الجرذان»[١] أي وإن قلت تلك الجلود، وأصبحت نادرة لأكل الجرذان لها.

لكن هذا الحكم لم يدم، فقد أنزل الله على نبيه حكماً بالسماح بالشرب في الدباء، وهو وعاء مصنوع من القرع بعد تفريغه. والحنتم، وهي جرة الخمر الخضراء، والمزفت. وهو وعاء مطلي بالزفت. وكذلك النقير، وهو خشــبة منحوتة على شــكل إناء لشــرب الخمر. وكأن الحكم السابق نزل لنزع كل ما يذكر الإنسان بالخمر من أواني.. تفنن في صنعها لإضفاء أجواء معينة على مجالس الشرب، كما نزلت أحكام أخرى جديدة.

قال «بريدة: قال رســول الله ﷺ: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحــوم الأضاحي فوق ثلاث فأمســكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في ســقاء، فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكراً»[٢]

ثــم توجه ﷺ إلى أبرز رجل في هذا الوفد الكريم وأثنى على صفتين من صفاته، حيــث «قال نبي الله ﷺ لأشــج عبــد القيس: إن فيك لخصلتــين يحبهما الله: الحلم والأناة»[٣]

وقــد طال مجلس عبد القيس مع النبــي ﷺ من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، ولمــا انصرفوا حدث من النبي ﷺ شــيء لم يكن يصنعه. فقــد كان ﷺ لا يصلي بعد

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ١-٤٨.
(٢) صحيح مسلم ١-٤٨.
(٣) صحيح مسلم ٣-١٥٦٣.

العصر بل قد «نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب الشمس»[1]

«قالت أم سلمة سمعت رسول الله ﷺ ينهى عنهما، ثم رأيته يصليهما. أما حين صلاهما فإنه صلى العصر، ثم دخل وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فصلاهما.

فأرسلت إليه الجارية فقلت: قومي بجنبه فقولي له: تقول أم سلمة يا رسول الله: إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين، وأراك تصليهما!! فإن أشار بيده فاستأخري عنه.

ففعلت الجارية، فأشار بيده فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: يا بنت أبي أمية سألت عن الركعتين بعد العصر، إنه أتاني ناس من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهما هاتان»[2]

انصرف وفد عبد القيس ليبني مسجداً في البحرين، وليكون هذا الوفد قد حقق سبقاً قال عنه ابن عباس «إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس، بجواثي من البحرين»[3]

وجاءت وفود أخرى، ولم يكن متوقعاً من كل تلك الوفود أن تكون على مستوى واحد من حسن التعامل والثقافة، فهي وفود ضاربة الجذور في الجاهلية، كما أن تلك الوفود لم تكن تمثل قبائلها إلا رسمياً، لكنها لا تمثل أخلاقيات وسلوك كل فرد فيها، فعند:

قدوم وفد تميم ووفد من اليمن

كان هناك تنافس بين سيدي كهول أهل الجنة حول من يتكلم من بني تميم أولاً فقد «قدم ركب من بين تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلى أو إلا خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) صحيح البخاري ١-٢١٢.
(٢) صحيح مسلم ١-٥٧١.
(٣) صحيح البخاري ١-٣٠٤.

ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ حتى انقضت الآية»[1]

وكان لخلاف الشيخين العظيمين ورفع أصواتهما عقوبة آنية،عندما خيب المحتفى بهما آمال الشيخين. أحد المحتفى بهما يقول عن نفسه « إنه أتى النبي ﷺ فناداه [فلم يجبه] فقال: يا محمد إن مدحي زين، وإن شتمي شين. فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ويلك ذلك الله فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ [أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾]»[2]

لكن هذا الرجل الذي غلبته أعرابيته تمادى ليفخر على من سبقه بالبيعة فقال: «إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة.. وجهينة بن أبي يعقوب»[3] فكان رد النبي ﷺ عليه قاسياً جداً. ثم التفت عليه السلام إلى من جاء معه من قومه مبشراً فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين.

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض

يقول راوي القصة واسمه ابن الحصين: فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين. فانطلقت، فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها»[4]

وبعد أن عاد الأقرع ومن معه إلى ديارهم.. بشر النبي ﷺ أمته بخروج جيل من

(١) صحيح البخاري ٤-١٨٣٤ وقد أكملت الآية للفائدة.

(٢) سنده صحيح روه الطبري في التفسير ٢٦-١٢٢ والزيادة لأحمد ٣-٤٨٨ من رواية عفان ثنا وهيب ثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة ثنا الأقرع بن حابس التميمي.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٩٤.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٦٦ وابن الحصين هو راوي الحدث وكان حاضراً.

أصلاب هؤلاء الأجلاف يعز الله بهم الإسـلام، كما تنبـأ لثقيف من قبل بذلك، فقال عليه السـلام: «هم أشـد أمتي على الدجال»[1] بل أحبهم، فأحبتهم عائشة وروت سر حبها لتميم عندما قالت: «لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: هم أشد أمتي على الدجال. وكانت منهم سبية عند عائشة فقال: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل. وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قوم، أو قومي»[2]

أما أهل اليمن الذين قبلوا البشـرى فالمدينة تسـتقبل كل فترة وافداً منهم.. فمن أرض اليمن انطلق رجل يقال له جرير بن عبد الله البجلي نحو المدينة، ولما وصلها غير ملابسـه ودخلها، وعندما دخلها وجد النبي ﷺ يخطـب في أصحابه، ولكن أصحابه كانوا لا ينظرون إلى نبيهم، بل ينظرون إلى جرير وهو يمشي نحوهم.

كل الصحابة كانوا يحدقون بوافد اليمن

لماذا..؟ أوليس من هدي الصحابة الإنصات للنبي عليه السـلام؟ بلى، ولكن لدى جرير ما يثير، ولديه ما يخبرنا عنه فيقول رضي الله عنه: «لما دنوت من المدينة أنخت راحلتـي، ثـم حللت عيبتي، ثم لبسـت حلتي، ثم دخلت فإذا رسـول الله ﷺ يخطب، فرماني الناس بالحدق فقلت لجليسي: يا عبد الله ذكرني رسول الله ﷺ؟

قال: نعم ذكرك آنفاً بأحسن ذكر، فبينا هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: يدخـل عليكـم من هذا الباب، أو مـن هذا الفج من خير ذي يمـن، ألا إن على وجهه مسحة ملك.

قال جرير: فحمدت الله عز وجل على ما أبلاني»[3]

وبعـد أن التقى جرير بالنبي ﷺ وجده كالنسـمة الباردة لهجيـره.. كالماء البارد لعطشـه. يقول رضي الله عنه: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسـلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»[4]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٨٩٨.

(٢) صحيح البخاري٤- ١٥٨٧.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٤-٣٥٩ وغيره من طريق يونس بن أبي إسحاق ثنا المغيرة بن شبل الأحمسي سمعت جرير... المغيرة ثقة: التقريب ٥٤٣ وتلميذه صدوق التقريب ٦١٣.

(٤) صحيح البخاري ٥-٢٢٦٠.

هذا هو سلوك النبي ﷺ مع الصحابة، فليبحث المتجهمون عن قدوة غيره ليبرروا تجهمهـم وضيقهم بالناس وبأنفسـهم. أما عبارات بيعة جريـر فتغير أعماق الأرض وأعماق البشر.

يقول رضي الله عنه: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»[١] و«على السمع والطاعة فلقنني: فيما استطعت. والنصح لكل مسلم»[٢]

وجاء وافد آخر من أهل اليمن، وزعيم من زعمائهم، بل ورجل سـبق الأنصار في دعوة النبي ﷺ للهجرة، لكنه لم يكن واثقاً من ردة فعل قومه إزاء قراره اسـتقبال هذا النبي المضطهد، وعند قدومه اصطحب معه رجلا كاد يفقد يديه.

«الطفيل بن عمرو الدوسـي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة - حصن كان لدوس في الجاهلية؟

قال ﷺ: [أمعك من وراءك؟ قال: لا أدري]

فأبـى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصـار، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة، فمرض فجزع فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات. فرآه الطفيل بن عمرو في منامه فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطياً يديه. فقال له: ما صنع بك ربك؟

فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ. فقال: ما لي أراك مغطياً يديك؟ قال: قيل لي لن نصلح منك ما أفسـدت. فقصها الطفيل على رسـول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اللهم وليديه فاغفر»[٣]

ثم شـكا الطفيل رضي الله عنه ومن معه تأخر إسلام قومهم وعصيانهم، فقالوا: «يا رسـول الله إن دوسـاً عصت وأبت فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. قال: اللهم اهد دوسا وأت بهم»[٤]

وعاد أبو موسى الأشعري إلى اليمن ليأتي بقومه فقال ﷺ: و

---

(١) صحيح مسلم ١-٧٥ والزيادة من صحيح ابن حبان ٧-٢٨٧ وهي صحيحة السند.
(٢) صحيح مسلم ١-٧٥ والزيادة من صحيح ابن حبان ٧-٢٨٧ وهي صحيحة السند.
(٣) صحيح مسلم ١-١٠٨.
(٤) صحيح البخاري ٣-١٠٧٣.

الأشعريون في طريقهم إلى المدينة

«يقدم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوباً. فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة كانوا يرتجزون يقولونَ:

غـــداً نـــلـــقـــى الأحـــبـــة مـــحـــمـــداً وحـــزبـــه»[1]

النبي يثني على أهل اليمن

فيقول: «أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانية، رأس الكفر قبل المشـرق»[2] «أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان والحكمـة يمانيـة، والفخر والخيلاء فـي أصحاب الإبل، والسـكينة والوقار في أهل الغنم»[3] والذي يبدو من سـياق الأحاديث، أن سـر الوهج اليماني وعلو منزلتهم يكمن فـي تواضعهم، وابتعادهم عن مظاهر الفخر والسـلوك الجاهلي القائم على الاعتداد بالنفس وازدراء الآخرين، فالنبي ﷺ يقول: «أهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسـم على الله لأبره.. وأهل النار كل جواظ عتل مستكبر»[4]

وإذا كانت القلوب اليمنية بهذه الرقة والصفاء، فلا بد أن يوازيها صفاء على أرض اليمن نفسـها، فهي مازالت تئن تحت أكوام من ركام الجاهلية وأوثانها وأصنامها، بل لقد بنى المشركون هناك كعبة لهم. فمن المرشح لـ:

هدم كعبة اليمانية

لم يجد النبي ﷺ أنسـب من صاحب المسـحة الملائكية (جرير بن عبد الله) لكن جريراً كان يفقد توازنه عند ركوبه الخيل، ويتمنى لو يثبت على ظهرها.. لاسـيما وهو يقول: «رأيت رسـول الله ﷺ يلـوي ناصية فرس بإصبعه، وهو يقـول: الخيل معقود

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-١٠٥ وابن حبان ١٦-١٦٤ من طريق ابن أبي عدي ويزيد ابن هارون عن حميد عن أنس.. فميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس: التقريب ١٨١.

(٢) صحيح مسلم ١-٧٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٩٤.

(٤) صحيح البخاري ٦-٢٤٥٢.

بنواصيهــا الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة»[1] ثم يواصل جرير حديثه قائلا أن النبــي ﷺ قال لــه: «يا جرير، ألا تريحني من ذي الخلصــة؟ (بيت لخثعم) كان يدعى كعبة اليمانية.

فنفرت في خمسين ومائة فارس، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فضرب يده في صدري فقال: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. فانطلق فحرقها بالنار.

ثم بعث جرير إلى رســول الله ﷺ رجلاً يبشــره، يكنى أبا أرطأة منا. فأتى رسول الله ﷺ فقال له: ما جئتك حتى تركناها كأنها جمل أجرب. فبرَّك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات»[2] أي دعا لهم بالبركة.

أما اليمن فقد أصبحت أكثر استعداداً لتقبل الدعاة والأمراء إلى هذا الدين الجديد.. بعد تلــك الإرهاصات، وبعد انتشــار التوحيد على أرضها. فمن ســيبعث ﷺ إلى اليمن للتعليم؟ ومن سيعين أميراً عليها؟ لاسيما وأن هناك اثنين تقدما بطلب تلك الوظيفة

قصة الرجلين اللذين طلبا إمارة اليمن

هما رجلان من أهل اليمن.. قدما إلى المدينة بصحبة أبي موســى الأشعري دون أن يشعر أبو موسى بما يضمران في نفسيهما، ولما وقفا أمام النبي ﷺ قدما طلبيهما، فماذا كانت إجابة النبي ﷺ على من يطلب الإمارة؟

أبو موســى حضر تلــك المحادثة وروى تلك القصة فقــال: «أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان [من بني عمي] من الأشــعريين، أحدهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما ســأل العمل، والنبي ﷺ يستاك. فقال: ما تقول يا أبا موسى، أو يا عبد الله بن قيس؟

فقلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفســهما، وما شــعرت أنهما يطلبان العمل، وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت، فقال: لن، أو لا نستعمل

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٩٢٦.

على عملنا من أراده [ولا أحداً حرص عليه]، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس. فبعثه على اليمن، ثم أتبعه معاذ بن جبل»[1] وكان في تعليماته عليه السلام لمعاذ منهجاً لمن بعده في التأني والتدرج في الدعوة، حتى وإن كان الداعية أميراً أو قائداً، فالعقول والقلوب لاتشرع أبوابها إلا للجميل والمقتع. لذا «قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[2]

تعاليم تحلق في سماء التحضر.. تبدأ بنظافة العقول والقلوب من الخرافة والوثنية، وبإخضاع كل شيء لمن يستحق الخضوع والعبودية، ثم تمر ببيوت المعوزين لتملأها بالغنى والفرح، وأخيراً والأهم نظافة يد الأمير.. (إياك وكرائم أموالهم) فمتى ما كانت يد الأمير نظيفة من نهب أموال رعيته فإنها تمتلىء بقلوبهم، وأخيرا.. نظافة سجله من الظلم، وإلا فإن دعوة المظلوم بالمرصاد.

أنصت معاذ لتلك التعليمات النبوية، وبدأ التحليق نحو آفاقها و«لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم»[3]

وبعد أن «بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وبعث كل واحد منهما على مخلاف -واليمن مخلافان- ثم قال: يَسِّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا،

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٥٦ والزوائد له أيضاً.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

[وتطاوعا. فقال أبو موسى: يا نبي الله إن أرضنا بها شراب من الشعير المزر، وشراب من العسل البتع؟ فقال: كل مسكر حرام.

فانطلقا فقال معاذ لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن؟ قال قائماً وقاعداً وعلى راحلتي، وأتفوقه تفوقاً[1] قال: أما أنا فأنام وأقوم، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[2]، وضرب فسطاطاً، فجعلا يتزاوران]، فانطلق كل واحد منهما إلى عمله، وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه، وكان قريباً من صاحبه أحدث به عهداً، فسلم عليه، فسار معاذ في أرضه قريباً من صاحبه أبي موسى، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه، وإذا هو جالس، وقد اجتمع إليه الناس، وإذا رجل عنده قد جمعت يداه إلى عنقه، فقال له معاذ: يا عبد الله بن قيس أيم هذا[3]؟ قال: هذا رجل كفر بعد إسلامه. قال: لا أنزل حتى يقتل. قال: إنما جيء به لذلك، فانزل. قال: ما أنزل حتى يقتل. فأمر به فقتل، ثم نزل»[4].

لقد أمرهما بالتيسير، ولكن لا يعني قول النبي ﷺ: يسرا وبشرا أن يتخليا عن تنفيذ الحدود الموحى بها، لأن التيسير مساحة لا نهاية لها، أما تطبيق الحدود فهو وإن كان في مخالفات قليلة بعدد أصابع اليد الواحدة، إلا أن هذه الحدود تحفظ أساسات الحياة الخمس: العرض، والمال، والدم، والعقل، والدين.

فإذا تم العبث بهذه الأشياء، وانعدمت حمايتها.. تحول العالم إلى بقعة شرسة.. بقعة أشرس وأسوأ مما يحدث في الغابة الحيوانية، فما يجري في الغاب هو صراع من أجل البقاء لا أكثر، أما على الأرض فسيتحول الصراع إلى هدف لإفناء الآخر وسحقه، فإذا غابت الحدود يوماً عن الأرض، فستغيب أشياء كثيرة وجميلة.. أولها التسامح وآخرها الإنسان، وما وصل الإسلام إلى اليمن إلا من أجل الإنسان.

هكذا جرت الأحداث في اليمن، أما في المدينة فقد كانت ساحة احتفالات وحفاوة.. الوفود تسيل إليها ومنها في الوقت الذي قرر النبي ﷺ إرسال أكبر بعث لا

---

(١) أي أقرأه ليلا ونهاراً، ولكن ليس دفعة واحدة.
(٢) أي أرجو من الله أن يثيبني على نومي، كما يثيبني وأنا مستيقظ.
(٣) إيش هذا أو ما هذا؟
(٤) صحيح البخاري ٤-١٥٧٨ والزيادة له ٤-١٥٧٩.

للغزو، بل إلى مكة.. لأداء الحج، وقد اختار لإمارة المسلمين والعرب جميعهم في هذا البعث صاحبه أبا بكر الصديق وقد سميت هذه الحجة:

حجة أبي بكر رضي الله عنه

وقبل أن ينطلق رضي الله عنه.. أمره النبي ﷺ بإعلان بيانين نبوين خلال مواسم الحج القادمة.. تحمل توحيداً نقياً يقطع آخر الطرق بين الشرك والأجيال الجديدة المفعمة بالفطرة:

الأول: منع أي مشرك يعلن شركه من الحج بعد هذا العام.

الثاني: منع التعري داخل البيت الحرام.. خاصة أثناء الطواف، وهي من عادات الشرك البالية المتخلفة.

يقول أبو هريرة: «بعثني أبو بكر الصديق، في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع، في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(١) وهذا يعني أن أبا بكر حج بالمسلمين وبالعرب كافة مسلمهم ومشركهم، أما في المدينة فقد نزلت سورة براءة على النبي ﷺ، وقد أمر جبريل النبي ﷺ بإعلانها بنفسه على الحجاج، أو أن يكلف رجلاً من أهل بيته بذلك، فأمر علياً رضي الله عنه أن يحملها إلى مكة، وأن يعلنها بنفسه على أولئك الحجاج، مما خلق تساؤلاً لدى أبي بكر الصديق بصفته أميراً على الحجاج كافة، وأميراً على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يكن يعلم وقتها أن علياً كان مكلفاً فقط بإعلان (براءة) مع بقائه تحت إمرة أبي بكر رضي الله عنهما.

يقول أبو هريرة:« فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»(٢)

أحد الصحابة يقص ما حدث بتفصيل أكثر فيقول: «بعث النبي ﷺ أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثم أتبعه علياً، فبينا أبو بكر في بعض الطريق، إذ سمع رغاء ناقة رسول الله ﷺ القصواء، فخرج أبو بكر فزعاً، فظن أنه رسول الله ﷺ، فإذا هو

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٧٠٩.

علي، فدفع إليه كتاب رسـول الله ﷺ، وأمر علياً أن ينـادي بهؤلاء الكلمات، فانطلقا فحجا، فقام علي أيام التشريق فنادى: ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك، فسيحوا في الأرض أربعة أشـهر، ولا يحجن بعد العام مشـرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن. وكان علي ينادي، فإذا عيي قام أبو بكر فنادى بها»[1]

ولما سـئل علي: «بأي شيء بعثت؟ قال: بأربع، أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم ومشرك بعد عامهم هذا في الحج، ومن كان له عهد، فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأربعة أشـهر»[2] وبذلك تم تحرير مكة من كل علاقة بالشرك والمشركين، وقطعت كل صلة لها بالخرافة والوثنية.

أتم الجميع مناسك حجهم وعلمت الأمة مكانة أبي بكر الصديق.. الذي استخلفه رسول ﷺ وهو حي في قيادة الأمة وأمارتها لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام.. أدرك الجميع ذلك وهم يعودون إلى ديارهم، وتوجه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة، وعند وصوله سلم على النبي ﷺ، وسأله عن ذلك الأمر الذي أقلقه «فلما رجع أبو بكر قال: هل نزل في شيء؟ قال: لا ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي»[3]

ولم يكن في الأمر سـوى تكريم لعلي علـى بقية أهل البيت، وتكريم أبي بكر على الأمة كلها، فقد خصه بقيادة المسلمين كافة إلى الحج، ولو كان في الأمر مساس بأبي بكر، وإمارة أبي بكر لعزله النبي ﷺ من الأمارة، وسـلمها لأحد الصحابة، لكن الأمر غيـر ذلـك، فقد بقي علي وغيره رضي الله عنهم تحت إمـرة أبي بكر رضي الله عنه طوال مدة الحج.

---

(١) سنده قوي، رواه الترمذي ٥-٢٧٥ وغيره عن عباد بن العوام حدثنا سفيان بن حسين عن الحكم ابن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس، وله شاهد على شرط مسلم عند النسائي في الكبرى ٢-٤١٦ والدارمي ٢-٩٢ وغيرهما من طريق موسى بن طارق عن ابن جريج حدثني عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبي الزبير عن جابر.

(٢) سـنده صحيح رواه سـعيد ابن منصور ٥-٢٣٣ واللفظ له من طرق عن سفيان عن أبي إسحاق الهمداني عن زيد بن يثيع قال سألنا علياً.. انظر ما بعده.

(٣) سـنده صحيح تفسـير الطبري ١٠-٦٤ وأحمد ١-٣ من طريق يونس بن أبي إسـحاق وإسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال الدارقطني في العلل ١-٢٧٤ بعد أن ذكر طرق الحديث: وقال ابن عيينة عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال سألنا علي بن أبي طالب بأي شيء بعثني النبي ﷺ بأربع وقول بن عيينة أشبه بالصواب والله أعلم وكذلك قال أبو بكر بن عياش وأبو شيبة إبراهيم بن عثمان عن أبي إسحاق.

وخـــلال تلك الأيام.. لم تنقطع الوفود عن القـــدوم إلى المدينة لمبايعة النبي ﷺ.. كانوا يتدفقون موجات من الحب والشوق نحو المدينة، فهذا وفد لم يمنعه الفقر والعوز من الرحيل إلى المدينة:

وفد مزينة

يقــول أحدهم وهو النعمان بن مقرن رضي الله عنه «قدمنا على رســول الله ﷺ في أربعمائة من مزينة، فأمرنا رســول الله ﷺ بأمره فقال بعض القوم: يا رسول الله ما لنا طعام نتزوده؟

فقال النبي ﷺ لعمر: زودهم. فقال ما عندي إلا فاضلة من تمر، وما أراها تغني عنهم شيئاً. فقال: انطلق فزودهم.

فانطلــق بنا إلى علية له، فإذا فيها تمر مثل البكر الأورق، فقال: خذوا. فأخذ القوم حاجتهم. وكنت أنا في آخر القوم، فالتفت وما أفقد موضع تمرة، وقد احتمل منه أربعمائة رجل»[1] ثم عادوا إلى بلادهم مزودين بالتمر والإيمان ومشاهدة المعجزات، وجاء:

وفد بني أسد

وتميز هذا الوفد بلغة بليغة، لكن بعضهم أفســدها ببعض الفخر والمنة، في وقت لا مكان فيه للفخر ولا للمنة.. لاســيما وهم قد قدموا لتقديم الولاء والبيعة والطاعة. «ابن عباس قال: قدم على النبي ﷺ وفد بني أســد فتكلموا فأبانوا فقالوا: يا رســول الله قاتلتك مضر كلها ولم نقاتلك، ولسنا بأقلهم عدداً، ولا أكلهم شوكة، وصلنا رحمك. فقال رســول الله ﷺ لأبي بكر وعمر حيث ســمع كلامهم: (أفتقولان هكذا؟ قالا: لا) قال: إن فقههم لقليل وإن الشيطان لينطق على لسانهم»[2]

أما الوفد القادم فكانت تحملهم الذكريات وتنطق المشاعر على لسانهم إنهم:

---

(١) ســنده صحيح رواه أحمد ٥-٤٤٥ ثنا عبد الصمد ثنا حرب يعني بن شــداد ثنا حصين عن ســالم بن أبي الجعد عن النعمان بن مقرن وســالم تابعي ثقة ســمع من النعمان هذا الحديث كما في التدوين في أخبار قزوين ١-٨٢ وحصين الســلمي تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين التقريب ١-١٨٢ وتلميذه حرب ثقة أيضاً وكذلك عبد الصم بن عبد الوارث.

(٢) ســنده صحيح رواه النســائي في الكبرى ٦-٤٦٧ أبو يعلى ٤-٢٥٠ حدثنا ســعيد بن يحيى بن سعيد الأموي حدثنا أبي حدثنا محمد بن قيس الأسدي عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: محمد أبو عون تابعي ثقة وتلميذه ثقة: التقريب ٤٩٥ و٥٣٠ ويحيى صدوق وابنه ثقة وهما من رجالهما.

وفد بني محارب

وأحدهم يحمل ذكريات أليمة عن مكة، وعن بدايات الدعوة في مكة المكرمة، واسمه طارق بن عبد الله المحاربي حيث يقول رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي المجاز وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء فسمعته يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا.

ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا فإنه كذاب.

فقلت: من هذا؟ فقيل: غلام من بني عبد المطلب. فلما أظهر الله الإسلام خرجنا من الربذة ومعنا ظعينة لنا، حتى نزلنا قريباً من المدينة، فبينا نحن قعوداً إذ أتانا رجل عليه ثوبان، فسلم علينا.

فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الربذة، ومعنا جمل أحمر فقال: تبيعوني هذا الجمل؟ فقلنا: نعم. فقال: بكم؟ فقلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر. قال: أخذته وما استقصي.

فأخذ بخطام الجمل فذهب به حتى توارى في حيطان المدينة، فقال بعضنا لبعض: تعرفون الرجل؟ فلم يكن من أحد يعرفه، فلام القوم بعضهم بعضاً فقالوا: تعطون جملكم من لا تعرفون!! فقالت الظعينة: فلا تلاوموا، فلقد رأينا رجلاً لا يغدر بكم، ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه.

فلما كان العشي أتانا رجل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أأنتم الذين جئتم من الربذة؟ قلنا: نعم.

قال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا.

فأكلنا من التمر حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، ثم قدمنا المدينة من الغد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يخطب الناس على المنبر، فسمعته يقول: يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك، وثَمَّ رجل من الأنصار

فقال: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلاناً في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا. فرفع رسول الله ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه فقال: لا تجني أمّ على ولد، لا تجني أمّ على ولد»[1]

إذا كان طارق المحاربي مسافر تحمله الذكريات إلى حيث النبي عليه السلام، فإن هذا المســافر يجعل الذكريات تحمل النبي ﷺ إلى عالم الطفولة.. حيث مضارب بني سعد وحيث الغنيمات وإخوته الصغار وأمه حليمة السعدية إنه:

أفضل وافد: ضمام بن ثعلبة من هوازن

أما لماذا صار هذا الأعرابي أفضل وافد على النبي ﷺ، فله قصة يرويها أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المســجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد، ثم عقله ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟

فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك. فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك.

فقال: سل عما بدا لك.

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم.

قال أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؛ قال: اللهم نعم.

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم.

قال: أنشــدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقســمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: اللهم نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رســول من ورائي من قومي، وأنا (ضمام بن ثعلبة) أخو بني سعد بن بكر»[2] «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله،

---

(١) سنده صحيح ابن حبان ١٤-٥١٨ وغيره من طرق عن يزيد بن زياد ابن أبي الجعد عن جامع بن شداد عن طارق : وجامع تابعي ثقة وتلميذه ثقة أيضاً: التقريب ١٣٧ و٦٠١.

(٢) صحيح البخاري ١-٣٥.

وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً.

فقال رسول الله ﷺ: إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة.

فأتى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى. قالوا: مه يا ضمام، اتق البرص اتق الجنون. قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه....

فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

قال عبد الله بن عباس: فما سمعنا بوافد قدم كان أفضل من ضمام ابن ثعلبة»[1].

كانت الوفود تأتي وتذهب، وكانت الأمراء تذهبو وتأتي.. هاهو:

النبي ﷺ يرسل خالداً إلى اليمن

يرسله أميراً وداعية لأرض الإيمان والحكمة، وبعد فترة بعث إليه علي بن أبي طالب كي يخلفه، ويقبض منه خمس الغنائم التي كانت تحت إدارة سيف الله..

يقول أحد الصحابة وهو البراء: «بعثنا رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه، فقال: مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب، ومن شاء فليقبل. فكنت فيمن عقب معه، فغنمت أواقي ذوات عدد»[2]

وقد حدثت خلال تلك الفترة الانتقالية بعض القصص، مثل هذه القصة التي أضافت لعلي رضي الله عنه الجديد من الفضائل.

---

(١) سنده قوي رواه ابن إسحاق السيرة ٥-٢٦٧ حدثني محمد بن الوليد بن نويفع عن كريب عن ابن عباس وابن الوليد قال عنه الدارقطني يعتبر به وتابعه سلمة بن كهيل عند أبي داود ١-١٣٢ وغيره وسلمة وكريب تابعيان ثقتان من رجالهما: التقريب ٤٦١.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٨٠.

يقول «بريدة رضي الله عنه: بعث النبي ﷺ علياً إلى خالد ليقبض الخمس، وكنت أبغض علياً وقد اغتسل. فقلت لخالد: ألا ترى إلى هذا؟ فلما قدمنا على النبي ﷺ ذكرت ذلك له.

فقال: يا بريدة، أتبغض علياً؟ فقلت: نعم. قال: لا تبغضه فإن له في الخمس أكثر من ذلك»[1] ويقصد النبي ﷺ تلك الجارية التي اغتسل علي من أجلها بعد أن أخذها من الخمس، فغضب بريدة من صنعه واستكثرها عليه أما علي رضي الله عنه فقد استلم مهمته الجديدة وبدأ بإدارة الأمور بكفاءة، وحصل المسلمون على بعض الغنائم فأرسل علي منها للنبي ﷺ، فقسمها بين بعض أصحابه وحضر تلك القسمة متطرف من:

جذور الخوارج

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، فقسمها بين أربعة نفر بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل.

فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ألا تأمنونني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً.

فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة كث اللحية، محلوق الرأس مشمر الإزار فقال: يا رسول الله اتق الله.

قال: ويلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؛ ثم ولى الرجل. قال خالد ابن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟

قال: لا، لعله أن يكون يصلي.

فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

قال رسول الله ﷺ: إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم.

ثـم نظـر إليه وهو مقف فقال: إنه يخرج من ضئضئ هـذا، قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود»[1]

فقتال هؤلاء الخوارج من واجبات إمام المسـلمين حتى تنكسـر شـوكتهم، وينعدم تأثيرهم على أمن دولة الإسلام، فبعد كسر شوكتهم يتحولون إلى مجرد أفكار متطرفة.. تعرض على الكتاب والسنة، لكنها لا تعرض على السيف إلا في حالة تحولها إلى سرايا أو قوة تتحرك على وجه الأرض، لشـق جماعة المسلمين وزعزعة أمنهم وأمن دولتهم. وهـذا ما فعله النبي ﷺ وخطه لأمته، فهو لم يكفره، ولم يقتله، بل ولم يمسـه بأذى، لأنه لا يمثل تهديداً في ظل توجه الدولة بكليتها بكتاب الله وسـنة رسـوله.. إنما بين انحرافه وانحراف أمثاله، وهذا الصنف من المسلمين قد لا ينقصهم الإخلاص وحسن النية، لكنهما لا يكفيان لتبرير أقوالهم وأفعالهم المتطرفة.

وإذا كان علي أرسـل للنبي ﷺ بذهب (تبر) من اليمن، فإن أحد الصحابة الذين رافقـوا علياً إلـى اليمن لم يبعث هديـة لزوجته بل بعث لها بطلقتهـا الثالثة قبل أن يستشهد رضي الله عنه هناك.

وأثناء تأيمها حدثت بعض المشـاكل حول حقهـا في الحصول على مصروفها من دخل زوجهـا الذي طلقها، وهل للمطلقة ثلاث طلقات حـق في الحصول على النفقة والسكن من مال زوجها المتوفى أم لا؟

«فاطمة بنت قيس تقول: أرسل إليَّ زوجي (أبو عمرو بن حفص بن المغيرة) عياش بن أبي ربيعة بطلاقي، وأرسـل معه بخمسة آصع تمر وخمسة آصع شعير. فقلت: أما لي نفقة إلا هذا ولا أعتد في منزلكم؟ قال: لا.

فشـددت عليّ ثيابي، وأتيت رسـول الله ﷺ فقال: كم طلقـك؟ قلت: ثلاثاً قال: صدق، ليس لك نفقة [فانطلق خالد بن الوليد في نفر فأتوا رسـول الله ﷺ في بيت

(١) البخاري ٤-١٥٨١.

ميمونة فقالوا: إن أبا حفص طلق امرأته ثلاثاً فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله ﷺ: ليست لها نفقة وعليها العدة. وأرسل إليها أن لا تسبقيني بنفسك، وأمرها أن تنتقل إلى أم شريك.

ثم أرسل إليها أن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون، فانطلقي إلى ابن أم مكتوم الأعمى فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك].. اعتدي في بيت ابن عمك ابن أم مكتوم، فإنه ضرير البصر تلقي ثوبك عنده، فإذا انقضت عدتك فآذنيني»(١)

وبعد ان انتهت عدتها كثر حولها الخطاب، فكان في فترة الخطوبة درس للمؤمنين بهذا النبي وتعاليمه، وتحطيمه لأصنام العادات والتقاليد، حيث قال لها «رسول الله ﷺ: إذا حللت فآذنيني. فآذنته فخطبها معاوية، وأبو جهم، وأسامة بن زيد. فقال رسول الله ﷺ: أما معاوية فرجل ترب لا مال له، وأما أبو جهم فرجل ضراب للنساء. ولكن أسامة بن زيد.

فقالت بيدها هكذا: أسامة.. أسامة. فقال لها رسول الله ﷺ: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك قالت: فتزوجته فاغتبطت»(٢)

إن زواج هذه السليلة الجميلة بهذا الشاب الأسود العظيم يحمل من الرقي وانتفاء العنصرية والكبر والجاهلية ما يكفي لمن رضي بالله ربا وبمحمد عليه السلام نبيا، فقد وصف نبي هذه الأمة واجها بقوله: طاعة الله وطاعة رسوله خير لك.

أما الجميل والمدهش في هذا الدين النظيف من الجاهلية، فهو أن أسامة لم يكن ضمن قائمة الخطاب، وأن أسامة أيضاً لم يكن ضمن من تحلم بهم، أو حتى من ترضى بهم.

هي بنفسها تعترف بذلك.. فاطمة رضي الله عنها تقول: «لما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباني.

فقال رسول الله ﷺ: أما جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحي أسامة بن زيد. قالت: فكرهته.

---

(١) صحيح مسلم ٢-١١١٩ والزيادة لمسلم ٢-١١١٥.
(٢) صحيح مسلم ٢-١١١٩.

ثم قال: انكحي أسامة بن زيد. فنكحته فجعل الله تعالى فيه خيراً كثيرا واغتبطت به»[1]

بإمكانهــا أن ترفض ولا تثريب عليها، فهي حرة في انتقاء شـريك حياتها، لكنها لم ترفض بداعي العصبية، فقبل أسامة تزوج والده من زينب بنت جحش، وقبله تزوج بــلال من أخت عبد الرحمن بن عوف وغيرهــم، وغيرهم.. في حياة النبي وبحضوره وبمباركته.. أما من يلبسون كبرهم عباءة الإسلام، فلا يكتفون بحقهم في الرفض، بل يتجاوزونه إلى تزوير الإسلام نفسه.

ســعد أســامة بفاطمة، ولكن قبل حفل الزفاف وأثناء فترة العدة سمعت فاطمة أشياء خطيرة حملها وافد قدم على النبي ﷺ..

هــذا الوافد المحمل بالأخبار وغرائب الأســفار التــي لا يصدقها أحد لولا إقرار النبي ﷺ له، وقد كان في قدوم هذا المســافر نســفاً لشــكوك تدور في أذهان بعض الصحابة حول رجل مخيف وغريب وغامض.. كان بعض الصحابة يعتقد أن هذا الرجل هو المســيح الدجال الذي حذر النبي ﷺ أمته منه.. ذلك الدجال اليهودي الذي أخبر عنه الأنبياء وحذروا منه أممهم.. ذلك الدجال الذي سيعيث يوماً من الأيام فساداً في الأرض، وســيخوض حروباً طاحنة ضد المؤمنين، وهو يقود يهود العالم للسيطرة على الأرض محــاولاً إقامة دولة لليهود.. الشــبهات اليوم تدور حول رجل من اليهود يعيش في المدينة، ويعتقد البعض أنه الدجال. أما النبي ﷺ فلم ينزل عليه شــيء حول هذا الرجل، لكنه كان حريصاً على اكتشاف أمره وكشف حقيقته.

دعونا نتجول في شوارع المدينة وبين نخيلها لنتعرف إلى هذا الرجل المخيف، الذي يشك بعض المؤمنين أنه المسيح الدجال تعالوا نتعرف على:

ابن صياد وهل هو المسيح الدجال

كان في المدينة رجل يهودي مخيف الشكل.. مريب الحركات والأصوات والتصرفات، وقد شــك الرسول ﷺ وبعض الصحابة أنه المســيح الدجال وكان يدعى (ابن صياد).

---

(١) حديث صحيح رواه أبو داود ١-٦٩٥.

فعندمـــا كان ذلك اليهودي طفلاً يلعب مع الصبيـــان قرب حصن أناس يقال لهم (بني مغالة) حدث شيء غريب يرويه عبد الله بن عمر فيقول: « إن عمر بن الخطاب انطلق مع رســـول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابن صياد، حتـــى وجده يلعب مع الصبيان عند أطم بن مغالة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم. فلم يشـــعر حتى ضرب رســـول الله ﷺ ظهره بيده.

ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟

فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله.

فرفضه رسول الله ﷺ وقال: آمنت بالله وبرسله.

ثم قال له رسول الله ﷺ: ماذا ترى؟ قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب.

فقال له رســـول اللـــه ﷺ: خلط عليك الأمر، ثم قال له رســـول الله ﷺ: إني قد خبأت لك خبيئاً. قال ابن صياد: هو الدخ؟

فقال له رسول الله ﷺ: اخسأ، فلن تعدو قدرك.

فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه.

فقال له رسول الله ﷺ: إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»[(١)]

فـــي هذا الحوار بين النبـــي ﷺ وابن صياد.. اتضح تعاطي ابـــن صياد لنوع من السحر والكهانة، وذلك عندما قال: (الدخ) ويعني بذلك سورة الدخان التي نزلت على النبي ﷺ، لكنه قال الدخ فقط، لأن النبي عليه السلام قاطعه فوراً قبل أن يكمل اسم السورة وقال له: اخسأ.

أما عن تلك الأشـــياء التي يراها ابن صياد فيقول «جابر بن عبد الله: إن رســـول اللـــه ﷺ لقي ابن صياد ومعه أبو بكر وعمر أو قال رجلان، فقال له رســـول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٤.

فقال ابن صياد أتشهد أني رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى؟

فقال ابن صياد: أرى عرشاً على الماء.

فقال له رسول الله ﷺ: ترى عرش إبليس على البحر.

ما ترى؟ قال: أرى صادقين أو كاذبين.

فقال رسول الله ﷺ لبس عليه فدعوه»[1]

وقد وصل الشك ببعض الصحابة إلى درجة اليقين أنه الدجال، ومنهم جابر رضي الله عنه، حيث يقول أحد أصحاب جابر: «رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله أن ابن صائد الدجال.

فقلت: أتحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ، فلم ينكره النبي ﷺ»[2] وذلك للشبه الكبير بين الاثنين: الدجال وابن صياد، ولتصرفات ابن صياد المريبة، وما يصدر عنه من أفعال لا تصدر عن إنسان طبيعي أبداً.

كان يتعاطى السحر والشعوذة، ويتعامل مع شياطين الجن، ولا أدل على ذلك من هذه القصة التي حدثت أمام عيني ابن عمر في سكة ضيقة، وذلك عندما «لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة، فقال له قولاً أغضبه: فانتفخ حتى ملأ السكة[3].. فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها ما رآه من فقالت له: رحمك الله ما أردت من ابن صائد أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إنما يخرج من غضبة»[4]

ويقول «ابن عمر لقيته مرتين، فلقيته فقلت لبعضهم: هل تحدثون أنه هو؟ قال: لا والله.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤٩٥ حدثنا يزيد بن هارون قال أخبرنا سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر. أبو نضرة تابعي ثقة . وتلميذه سليمان بن طرخان تابعي مشهور وهو ثقة من رجال الشيخين، وتلميذه ثقة معروف مر معنا كثيراً.

(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٣ عن محمد بن المنكدر قال رأيت..

(٣) الطريق الضيقة جداً.

(٤) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٦.

قلت: كذبتني، والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم.

فتحدثنا، ثم فارقته، فلقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه، فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري.

قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه. فنخر كأشد نخير حمار سمعت.

فزعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا فوالله ما شعرت، وجاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثها، فقالت ما تريد إليه: ألم تعلم أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه؟»[1]

وقد حاول النبي ﷺ -بعد أن سمع كلامه وهو يلعب مع الصبيان- التسلل ليسمع زمزمته، والأصوات الغريبة الصادرة عنه.. عله يكتشف هويته، لكن ذلك لم يتم.

يقول ابن عمر: «انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد. فرآه النبي ﷺ وهو مضطجع يعني في قطيفة له فيها رمزة، أو زمرة، فرأت أم ابن صياد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صياد: يا صاف -وهو اسم ابن صياد- هذا محمد.

فثار ابن صياد فقال النبي ﷺ: لو تركته بين»[2] واتضح أمره. كل تلك الأمور كانت قبل أن يأتي تميم الداري رضي الله عنه إلى المدينة ويسلم، ويقص على النبي ﷺ قصته العجيبة المخيفة:

قصة الدجال الحقيقي والجساسة

هذه القصة ترويها تلك الصحابية الجليلة التي اختار لها ﷺ أسامة بن زيد (فاطمة بنت قيس) وكانت من المهاجرات الأول فتقول: «خطبني رسول الله ﷺ على

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٤٦.
(٢) صحيح البخاري ١-٤٥٤.

مولاه أسـامة بـن زيد، وكنت قد حدثت أن رسـول الله ﷺ قال: مـن أحبني فليحب أسامة.

فلما كلمني رسول الله ﷺ قلت: أمري بيدك فأنكحني من شئت.

فقال: انتقلي إلى أم شريك، وأم شريك امرأة غنية من الأنصار، عظيمة النفقة في سـبيل الله، ينزل عليها الضيفان. فقلت: سأفعل. فقال: لا تفعلي، إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان، فإني أكره أن يسـقط عنك خمارك، أو ينكشـف الثوب عن سـاقيك، فيـرى القوم منك بعض مـا تكرهين، ولكن انتقلي إلى ابن عمك عبدالله ابن عمرو بن أم مكتوم.

فانتقلـت إليه فلما انقضت عدتي سـمعت نداء المنادي، منادي رسـول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة!

فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسـول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك. فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه. ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟

قالـوا: الله ورسـوله أعلم. قال: إنـي والله ما جمعتكم لرغبـة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسـيح الدجال. حدثني أنه ركب في سـفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفؤا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقالوا: ويلك ما أنت؟

فقالت: أنا الجساسـة. قالوا: وما الجساسـة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال: لما سمت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسـان رأيناه قط خلقاً وأشـده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه مـا بين ركبتيـه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك ما أنت؟ قـال: قد قدرتم على خبري، فأخبرونـي ما أنتـم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سـفينة بحرية، فصادفنا

البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها. فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بيسان؟ قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر.

قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب.

قال: أخبروني عن عين زغر؟ قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتَله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني: إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما. كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحداً منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته[1] في المنبر: هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة. يعني المدينة. ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟

فقال الناس: نعم، فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة، ألا أنه في بحر الشام، أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو. وأومأ بيده إلى المشرق.

---

(١) بعصاه.

قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ»[1]

وقد حث النبي ﷺ أصحابه وأمته على الاستعاذة من هذا اليهودي الدجال، بل كان يستعيذ منه كل صلاة، حيث تقول عائشة زوج النبي ﷺ: « إن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم. فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم.

فقال: إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف»[2]

إذاً فالدجال مأسور في تلك الجزيرة، أما ابن صياد فهو شخص آخر يحاول استغلال الشبه بينه وبين الدجال، لإخافة من حوله وبث الرعب فيهم، محاولاً إشباع غروره، مع أنه من المحتمل أن يكون بينه وبين الدجال صلة ما، لكن ما هي؟ الله أعلم..

تبين ذلك في حوار جرى بين ابن صياد وأبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهما في سفر متجهين نحو مكة، حيث بث ابن صياد شكواه وبعض أسراره لأبي سعيد، وبث فيها مرارة كذبه وانتحاله لتلك الشخصية، ونتائج تلك الأشياء التي ارتكبها من أجل لفت الأنظار إليه.

قال أبو سعيد: «أقلنا في جيش من المدينة قبل هذا المشرق، فكان في الجيش عبد الله بن صياد، وكان لا يسايره أحد ولا يرافقه ولا يؤاكله ولا يشاربه، ويسمونه الدجال. فبينا أنا ذات يوم نازل في منزل لي إذ رآني عبد الله بن صياد جالساً، فجاء حتى جلس إلي، فقال: يا أبا سعيد.. ألا ترى إلى ما يصنع الناس.. لا يسايرني أحد، ولا يرافقني أحد، ولا يشاربني أحد، ولا يؤاكلني أحد، ويدعوني الدجال؟ وقد علمت أنت يا أبا سعيد أن رسول الله ﷺ قال: إن الدجال لا يدخل المدينة، وأني ولدت بالمدينة!

وقد سمعت رسول الله ﷺ: يقول إن الدجال لا يولد له. وقد ولد لي. فوالله لقد هممت مما يصنع بي هؤلاء الناس أن آخذ حبلاً، فأخلو فأجعله في عنقي، فأختنق

---

(١) صحيح مسلم ٤-٢٢٦٣.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٨٦.

فأستريح من هؤلاء الناس، والله ما أنا بالدجال. ولكن والله لو شئت لأخبرتك باسمه، واسم أبيه، واسم أمه، واسم القرية التي يخرج منها»[1]

تلـك هي قصة ابن صيـاد الدجال. لكن ذلك الدجال المنتظـر، ليس هو الدجال الوحيد الذي سيظهر في أمة محمد عليه الصلاة والسلام. لقد حذر عليه السلام من ثلاثين دجالاً سيظهرون قبله، لكنه أشدهم خطراً على هذه الأمة، أما أسرعهم ظهوراً فكانا كذابين.. أحدهم وصل الآن ضمن:

وفد اليمامة

لبيعـة النبي ﷺ، وكان يدعى مسـيلمة. وقد رأى عليه السـلام رؤيا قصها على أصحابـه «قال رسـول الله ﷺ: بينا أنا نائـم أتيت خزائـن الأرض، فوضع في يدي إسوارين من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحى إلي: أن انفخهما.

فنفختهما فذهبـا، فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»[2]

ولما وصل وفد اليمامة «قدم مسـيلمة الكذاب على عهد رسـول الله ﷺ، فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته.

وقدمها في بشـر كثير من قومه، فأقبل إليه رسـول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه. فقال: لو سـألتني هذه القطعة مـا أعطيتكها، ولن تعدو أمر اللـه فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني.

ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ: إنك أرى الذي أريت فيه ما رأيت، فأخبرني أبو هريرة أن رسـول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سـوارين من

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٧٩ ثنا محمد بن جعفر ثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد أبو نضرة تابعي ثقة وعوف بن أبي جميلة وغندر ثقتان: التقريب٥٤٦ و٤٣٣ و٤٧٢

(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٨١.

ذهب، فأهمني شأنهما فأوحي إلي في المنام: أن انفخهما. فنفختهما فطارا. فأولتهما كذابين يخرجان بعدي. أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة»(1) الكذاب الذي يعود خائباً محتقناً من الغيظ إلى بلاده، بعد أن حوله النبي ﷺ إلى حاوية للسخرية بين الوفود، هذا الأفاك الذي لا يعي ما يخرج من رأسه.. يريد أن يكون نبياً!!

يريد كما يريد تلاميذه من بعده أن يستبدلوا شريعة الله بثرثرتهم وتخاريفهم.. إنهم لا يقدمون بدائل صناعية، أو زراعية، أو حتى عسكرية.. فيها من الإبداع ما يقد يشفع لهم، لكنهم أعجز من ذلك. إنهم لا يملكون سوى الوهم فقط.. لا أكثر.

لذلك رفض النبي ﷺ تقديم أي تنازل لأستاذهم مسيلمة، حتى ولو كان مجرد قطعة من جريد النخل، لا تنفع ولا تضر، ولا تقدم ولا تؤخر. أما:

كذاب اليمن الأسود العنسي

فقد كان يضمر في نفسه الخروج على النبي ﷺ في أقرب فرصة، أما الآن فهو لا يستطيع الجهر بما في نفسه.. خوفاً من علي بن أبي طالب الأسد الهصور.. القادم من المدينة إلى اليمن، ولم يكن الأسود وحده الذي سيدعي النبوة، فقد قال أحد الصحابة: «أكثر الناس في مسيلمة قبل أن يقول رسول الله ﷺ فيه شيئاً، فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: أما بعد ففي شأن هذا الدجال الذي قد أكثرتم فيه، وإنه كذاب من ثلاثين كذاباً يخرجون بين يدي المسيح»(2)

أولهم مسيلمة الذي عاد إلى دياره، ثم أفرز ما كان محتقناً به من أكاذيب، وأعلن أنه نبي جديد لهذه الأمة، ولم يكتف بذلك، بلغت به الوقاحة أن يبعث إلى النبي ﷺ برسولين يخبرانه بما فعل.

يقول الصحابي نعيم بن مسعود: «سمعت رسول الله ﷺ يقول حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه، ورسول الله ﷺ يقول لهما: وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟

(1) صحيح البخاري ٤-١٥٩٠.

(2) سنده صحيح رواه معمر بن راشد في الجامع ١١-٣٩٢ عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن طلحة بن عبيد الله بن عوف عن أبي بكرة قال وهذا السند صحيح. الزهري وشيخه طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري تابعيان ثقتان تهذيب التهذيب ٥-١٨.

قالا: نعم، فقال رسول الله ﷺ، لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»[1] فاحترام الرسل مبدأ إسلامي رفيع.. زاد من رصيد الاحترام للدولة الإسلامية وقائدها، إلا أن الجاهلية أعمت الكثيرين عن رؤية الحقيقة، هذا أحدهم يعترف بذلك:

أبو رجاء العطاردي يعترف

يقـــول رضي الله عنه: (كنا نعبـــد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشـــاة فحلبناه، ثم طفنا به، فإذا دخل شـــهر رجب قلنا: منصل الأســـنة. فلا ندع رمحاً فيه حديدة، ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب....

كنت يوم بعث النبي ﷺ غلاماً أرعى الإبل على أهلي، فلما سمعنا بخروجه فررنا إلى النار، إلى مسيلمة الكذاب)[2]

وإذا كان مســـيلمة قد تميز بالوقاحة والكذب، فإن الحقيقة التي جاء بها الإسلام كفيلـــة بإحراقه وإحراق من صدقه، واحداً واحداً.. الحقيقة التي لا يصمد أمامها أي منتحل، أو معاند لها.

وكان مـــن بين الوفود القادمة رجل من النصارى.. يدعى (عدي بن حاتم الطائي) هذا الرجل الذي هرب من بلاده خوفاً من جيش الإســـلام، وتوجه نحو الشـــام.. نحو الكنائس، لكن تلك الكنائس زادته غربةً، فعاد إلى رشـــده، وطرح على نفســـه أسئلة.. تغنيه عن الهرب لو طرحها في وقت أبكر.

أسئلة محرجة أخجلته، خاصة وهو ابن رمز الكرم العربي في الجاهلية.

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥٤: حدثني سعد بن طارق عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه قال.. وسعد بن طارق تابعي ثقة من رجال مسلم (أبو مالك الأشجعي) تابعي ثقة، انظر التقريب ١-٢٨٧ وشيخه صحابي.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٩١.

قدوم عدي بن حاتم

دعونا نستمع إلى عدي وهو يقص حكايته، وحكاية هروبه وعودته للحق، فيقول: «بعث رسول الله ﷺ حيث بعث، فكرهته أشد ما كرهت شيئاً قط، فانطلقت حتى كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم، فقلت: لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذباً لم يخف علي، وإن كان صادقاً اتبعته.

فأقبلت، فلما قدمت المدينة استشرف لي الناس، وقالوا: جاء عدي بن حاتم.. جاء عدي بن حاتم. فقال النبي ﷺ لي: يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم. قلت: إن لي ديناً. قال: أنا أعلم بدينك منك.. أنا أعلم بدينك منك... مرتين أو ثلاثاً. ألست ترأس قومك؟ قلت: بلى. قال: ألست تأكل المرباع[١]؟ قلت: بلى.

قال: فإن ذلك لا يحل لك في دينك.

قال عدي: فتضعضعتُ[٢] لذلك، ثم قال: يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم، فإني قد أظن أنه ما يمنعك أن تسلم خصاصة تراها من حولي، وتوشك الظعينة أن ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز، وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل منه ماله صدقة.[٣]

قال عدي بن حاتم: فقد رأيت الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وكنتُ في أول خيل أغارت على المدائن، على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة. إنه لقول رسول الله ﷺ لي»[٤]

هكذا حولت الحقيقة هذا الرجل النصراني المتشائم.. المغتصب حق غيره إلى ثقة بالله ورسوله، فبعد أن كان مزيجاً من الشكوك والتساؤل المحير.. أصبح يحلف ثقة،

---

(١) أي أنه كان يغتصب من قومه ربع أرباحهم وغنائمهم دون حق.

(٢) ضعفت.

(٣) أي إن الرجل لا يجد من يأخذ الصدقة منه.

(٤) سنده قوي رواه الحاكم ٤-٥٦٤ من طريق هشام بن حسان عن محمد بن سيرين وابن أبي شيبة ٧-٣٤٢ من جرير بن حازم عن محمد بن سيرين ابن حبان ١٥-٧١ من طريق أيوب عن محمد عن أبي عبيدة بن حذيفة سمعه من عدي. أبو حذيفة ثقة روى عنه محمد بن سيرين ويوسف بن ميمون وخالد بن أبي أمية الكوفي وحصين بن عبد الرحمن السلمي وغيرهم. تهذيب التهذيب ١٢-١٧٧ ووثقه العجلي توثيقاً لفظياً فقال في: معرفة الثقات ٢-٤١٣ أبو عبيدة بن حذيفة كوفي تابعي ثقة وابن سيرين غني عن التعريف.

ويتحـرك ثقـة، ويعد من حوله ثقة، فإذا لم يثق بالحقيقـة المحمدية فبم تكون ثقته؟! لاسـيما وقد اعتنق النصرانية كخلاص مـن الوثنية، ولم يرثها عن والديه وراثة، فمن الصعوبـة التخلص من الموروث، حتى ولو كان غير مقنـع، ولعل في هذا الوفد القادم من نجران:

وفد نصارى نجران

دليل على صعوبـة التخلص من الموروث، حيث جاءوا من بلادهم بعد أن وصلتهم بعوث الإسـلام، وأخبار انتصاراته. وكانوا في بلادهم يحاولون إحراج هؤلاء المسلمين بالتنقيـب عن أي خطأ في تعاليم هذا الدين الجديـد، وقد حدث هذا مع الصحابي الداهية المغيرة بن شـعبة، الذي كل دهاؤه عن إجابة تسـاؤلهم، فقال رضي الله عنه: «لما قدمت نجران سـألوني فقالوا: إنكم تقرؤون (يا أخت هارون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟

فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»[1]

ولعل تلك التساؤلات خلقت لدى هؤلاء شعوراً بالتفوق والجرأة، فبحثوا عن مزيد من الإحـراج، فأحبوا أن يفجروه علـى أرض المدينة معقل الإسـلام وعاصمته، وقد تصـدى لهذا رجـلان من رجال الدين، حيـث إن الدين النصراني يقسـم الناس إلى طبقتين لا وجود لهما في الدين الإسلامي إطلاقاً.. هاتان الطبقتان هما: طبقة رجال الدين، وطبقة أخرى لبقية الرجال.

أما النساء فلا دور لهن ولا طبقات.

وكان اسـم رجلي الدين هذين: (العاقب) و(السـيد) وقد بلغـت بهما الجرأة أن يطالبا النبي ﷺ بالملاعنة على الحقيقة، والملاعنة هي (المباهلة) وهي أن يدعو كل من الخصمين على نفسه باللعنة إن كان كاذباً في دعواه.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٦٨٥.

كانت نتيجة المباهلة اكتشاف هذه الأمة لأمينها، في قصة يرويها لنا حذيفة بن اليمان أمين سر النبي ﷺ الذي يقول: «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ، يريدان أن يلاعناه. فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً.

فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة»(١) الذي فاز بلقب كما فاز غيره بألقاب، أما نصارى نجران فعادوا مثقلين بالشك والجزية والهزيمة.. الهزيمة التي لحقت بكل من أعمى قلبه عن رؤية الشمس التي يحملها ﷺ خارج المدينة وداخلها.

أما داخل المدينة فأقدام الوفود تطحن في ذهابها وإيابها رجلاً كالحجارة عناداً وحسداً، وأيديهم المبايعة الممتدة تخنق أنفاسه.. عبد الله بن أبي بن سلول يتجرع اليوم سموماً كثيرة، ويتلقى طعنات لا تعد ولا تحصى.. لم يصنعها أحد له.. هو الذي صنعها بحقده وعناده، وهو من يطعن ويخنق نفسه بها.

عبد الله بن سلول مريض

ويبدو من تقاسيمه وهزاله أنه راحل عن هذه الدنيا، ورغم كل ما فعله وما خطط له، وما جرى منه ضد النبي ﷺ، وضد المسلمين ودولتهم.. رغم ذلك كله ينهض النبي ﷺ لزيارته، عله يجد في قلبه مكاناً لله ولرسوله. عبد الله بن أبي بن سلول تاريخ أسود من التآمر والخيانة والنفاق، ومع ذلك فلا يأس في حياة الداعية. استأذن النبي ﷺ في الدخول عليه، ولما دخل عرف فيه الموت. «دخل رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي يعوده في مرضه الذي مات فيه. فلما عرف فيه الموت، قال رسول الله ﷺ: أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود.

فقال: أبغضهم أسعد بن زرارة فمه»(٢) أي فماذا أفاد أسعد بن زرارة كرهه لليهود، حيث مات أسعد في أول أيام الهجرة.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٩٢.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود ٣-١٨٤ حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد. الزهري تابعي ثقة رأس طبقته وعروة تابعي كبير وإمام ثقة معروف.

هذه الإجابة تكشـف عن ضيـق أفق هذا المنافق، ونظرتـه المحدودة بين جدران الدنيا فقط، فالنبي ﷺ لم يكن يعني أن حب اليهود هو الذي يجلب لك الموت، فاليهود قد غادروا غير مأسـوف عليهم، بل كان يعني أننـي كنت أنهاك عن موالاتهم، التي لا تفيدك في مثل هذه السـاعة التي تكون فيها أحوج ما تكون لله ولرسـوله، وللحقيقة - الإسلام، لكنه الحسد والحقد الذي يتفنن في إحراق أصحابه.

كان ابن سلول مغروراً متكبراً حتى في أيام احتضاره.. لم يقل للنبي عليه السلام أي كلمـة تشـير إلى أسـفه وندمه أو توبتـه، ولكن بعد أن خرج النبـي ﷺ من عنده استدعى ابنه، وطلب منه أمراً غريباً.

ابن سلول يطلب ثوب النبي ﷺ

فبعد خروجه عليه السـلام اسـتدعى عبد الله بن سلول ابنه، وقال له: «أي بني، اطلب ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ، فكفني فيه ومره فليُصلّ عليّ»[(١)]

ويبدو أن الابن شـعر بالإحراج، أو نسي ذلك حتى وضع أبوه في قبره، فتوجه نحو النبي ﷺ: «فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه واستغفر له»[(٢)]

يقـول جابر بن عبد الله: «أتى النبـي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما دفن، فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه»[(٣)]

وعندما أراد ﷺ الصلاة على ابن أبي سلول وقف عمر بن الخطاب في وجهه، بل جذبه من ثوبه معترضاً على الصلاة عليه.

شاهد عبد الله بن عمر ما حدث فقال: «إن عبد الله بن أبي لما توفي جاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصل عليه، واستغفر له.

---

(١) سنده صحيح رواه الطبراني في الكبير ١١-٤٣٨ والأوسط ٦-١٦ من طرق عن بشر بن السري قال نا رباح بن أبي معروف المكي عن سالم بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن ابن عبد الله بن أبي قال له أبوه: سعيد بن جبير من أئمة التابعين الثقات وسالم بن عجلان الأفطس ثقة من رجال البخاري: التقريب ١-٢٨١ ورباح حسن الحديث من رجال مسلم ١-٢٤٢ وبشر بن السري ثقة متقن: التقريب ١-٩٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ١-٤٢٧.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ١-٤٢٧.

فأعطـاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذني أصلي عليـه فآذنه. فلما أراد أن يصلي عليـه جذبه عمر رضي الله عنه فقال: أليس نهاك أن تصلي على المنافقين. فقال: أنا بين خيرتين.. قال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. فصلى عليه.. فنزلت ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾»[1] والآية التي نهت عـن الصلاة المنافقين بعد اليوم هي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[2].

شـاهد جابر ما حدث فقال مفسراً ما حدث حول قميص النبي ﷺ: «لما كان يوم بدر أتى بأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه»[3] مكافأة له.

هذه هي وجهة نظر جابر رضي الله عنه، فربما لم تبلغه قصة طلب ابن أبي سلول.

لكن هناك سـؤالاً يطرح نفسـه على الصحابة هو: أنهم سـيتمكنون من معرفة المنافقين بعدم صلاة النبي ﷺ عليهم عند وفاتهم، لكن كيف سـيعرفون المنافقين بعد وفاة النبي ﷺ؟

لم يغب ذلك عن النبي ﷺ، فقد قام ﷺ باستدعاء أحد الصحابة ليقدم له:

قائمة بأسماء المنافقين

يقـول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كنت آخذاً بخطام ناقة رسـول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة، أو أنا أسوقه وعمار يقوده، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا أنا باثني عشـر راكباً قد اعترضوه فيها، فانبهت رسـول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم، فولوا مدبرين. فقال لنا رسـول الله ﷺ: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسـول الله، قد كانوا متلثمين، ولكنا قد عرفنا الركاب.

(١) صحيح البخاري ١-٤٢٧.

(٢) سورة التوبة: ٨٤.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٩٥.

قــال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا لا. قال: أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة، فيلقوه منها. قلنا: يا رسول الله، أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟

قــال: لا، أكره أن تتحدث العرب بينها، أن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم.

ثم قال: اللهم أرمهم بالدبيلة»[1]

ولما سـئل عمار حول قيام النبي ﷺ بتقديم توصية خاصة له قال: (ما عهد إلينا رسـول الله ﷺ شـيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن النبي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: في أصحابي اثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة)[2] وهي دمل أو خراج يسبب الموت.

وبذلك التحديد لأسـماء هؤلاء المنافقين تم عزلهـم وإقصاء رواياتهم وأخبارهم، بـل لقد تحولوا إلى رمـاد تذروه رياح التاريخ، بعد أن نجح الشـيطان في إنزالهم من مقاعدهـم الرفيعـة، التي منحهم إياها الإسـلام، فرضوا بالدرك الأسـفل من النار التي يقـول الله تعالى عنهـا: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا

---

(١) حديث صحيح رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة: تفسـير ابن كثير ٢-٣٧٣ ولم يصرح ابن إسـحاق بالسـماع وله شاهد عند أحمد ٥-٤٥٣ حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل وهو سـند ثلاثي حسـن وشاهد عن عروة مرسلاً.

(٢) صحيح مسلم ٤- ٢١٤٣.

﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ
نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾(١).

وهناك من تـــاب من المنافقين قبل هؤلاء، بعد أن زالت عنهم العصبية، وتبين لهم خواء ابن سلول وخواء أفكاره. لكن تلك الأسماء التي تلقاها حذيفة ظلت على عنادها حتى انتزعها الموت كما انتزع ابن سلول، والذي برحيله انكسرت شوكة النفاق والخيانة والتآمر. أما النبي ﷺ وأصحابه فيتمنون لو آمن ابن سلول ومن معه، فرسالته في هذه الدنيـــا موجهة إلى بقع الظلام وبؤره، لملئهـــا بنور التوحيد.. طهرت المدينة من قيادات اليهـــود والمنافقين المشـــركين، ومرت الأيام فعاد الموت مـــرة أخرى إلى بيت النبي ﷺ، وكأنه يزاحم كل خبر سار يبتهج به النبي عليه السلام..

ذات يوم ألم المرض بإبراهيم بن محمد ﷺ، ثم انتزعه الموت فكانت دموع النبي ﷺ وحزنه تسيل لـ:

موت إبراهيم عليه السلام

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه عن حياة إبراهيم وموته: «قال رسول الله ﷺ: ولد لي الليلة غلام، فســـميته باســـم أبي إبراهيم، ثم دفعه إلى (أم ســـيف) امرأة قين يقال له (أبو ســـيف) فانطلق يأتيه واتبعته، فانتهينا إلى أبي ســـيف وهو ينفخ بكيره.. قد امتلأ البيت دخاناً، فأســـرعت المشي بين يدي رســـول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف أمسك، جاء رسول الله ﷺ.

فأمسك فدعا النبي ﷺ بالصبي، فضمه إليه وقال ما شاء الله أن يقول.

فقـــال أنس: لقد رأيته وهو يكيد بنفســـه بين يدي رســـول الله ﷺ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، فقال: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا

(١) النساء: ١٣٨-١٤٦.

إبراهيم إنا بك لمحزونون»[1] وقد أثارت تلك الدموع وذلك الحزن التساؤل لدى بعض الصحابة حيث «قال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟

فقال: يابن عوف، إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2]

وفي هذا اليوم نفسه الذي توفي فيه إبراهيم عليه السلام نظر الناس إلى السماء فوجدوا أن:

الشمس قد كسفت يوم موت إبراهيم

وكان هناك اعتقاد سائد في الجاهلية، أن كسوف الشمس لا يكون إلا لموت إنسان عظيم، أو لمولد عظيم. فما موقف النبي ﷺ من هذا الاعتقاد الجاهلي.. لاسيما وقد صادف يوم رحيل ابنه الحبيب (إبراهيم)؟

يقول «المغيرة بن شعبة: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم.

فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»[3] ثم أمر الناس بالاجتماع في المسجد حيث يقول «عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لما كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ نودي: إن الصلاة جامعة»[4] ويقول أبو بكر: «كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس، فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم»[5]

كانت صلاة الكسوف ركعتين لكن كيف كانت:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٧.
(٢) صحيح البخاري ١-٤٣٩.
(٣) صحيح البخاري ١-٣٥٤.
(٤) صحيح البخاري ١-٣٥٤.
(٥) صحيح البخاري ١-٣٥٣.

صفة صلاة الكسوف

هي ركعتان لكن باختلاف بسيط عن الركعات المعتادة، فالصلاة العادية المكونة من ركعتين كالفجر والجمعة.. تكون الركعة الواحدة فيها عبارة عن: قراءة الفاتحة وبعض القرآن، ثم الركوع، ثم الرفع من الركوع، ثم السجود، ثم الرفع من السجود، والجلوس، ثم السجود مرة ثانية.

هذا باختصار ما تتكون منه الركعة الواحدة: أي ركوع واحد وسجدتان.

أما في صلاة الكسـوف فتتكون كل ركعة من ركوعين وسـجودين، أي أن المصلي يقـوم فيقرأ الفاتحة وبعض القرآن، ثم يركع، ثم يرفع من الركوع ثم يقرأ الفاتحة وما تيسـر من القرآن، ثم يركع ثانية، ثم يرفع من الركوع، ثم يسجد، ثم يرفع من السجود ويجلس، ثم يسجد ثانية. ثم يقوم ليفعل مثل ذلك في الركعة الثانية.

أي أن عدد الركوعات يساوي عدد السجودات.

تقول عائشـة رضي الله عنها: «خسفت الشـمس في حياة النبي ﷺ، فخرج إلى المسـجد فصف الناس وراءه، فكبر فاقترأ رسـول الله ﷺ قراءة طويلة، ثم كبر فركع ركوعـاً طويلاً، ثم قال سـمع الله لمن حمده، فقام ولم يسـجد، وقرأ قراءة طويلة هي أدنـى من القـراءة الأولى، ثم كبر وركع ركوعاً طويلاً، وهـو أدنى من الركوع الأول، ثم قال: سـمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. ثم سـجد. ثم قال في الركعة الأخيرة مثل ذلك. فاسـتكمل أربع ركعات في أربع سـجدات، وانجلت الشمس قبل أن ينصرف، ثم قـام فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: هما آيتان من آيات الله، لا يخسـفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة»(١)

فهذه الآية تذكر الإنسان الغافل في خضم الحياة، وسعير المادة والركض خلفها.. تذكـره عندما يغفل، ويتبلد إحساسـه تجاه موقعه من خالقـه وفضله عليه. ففي تلك الصلاة إيقاظ لما نام من مشاعره. وفي تلك الصلاة أيضاً قام النبي ﷺ بحركة غريبة ليسـت من الصلاة، فسأله الصحابة عنها وذلك بعد أن «قال ﷺ: إن الشمس والقمر

---

(١) صحيح البخاري ١-٣٥٥.

آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله. قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كعكعت؟

قال ﷺ: إني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن.

قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[1]

ووصفه هذا لا يعني النساء جميعاً، بل يعني إن نسبتهن تفوق نسبة الرجال، نظراً لصفة الجحود التي تتميز بها هذه النسبة من النساء تجاه أفضال الغير عليها، حتى أن هذه النوعية من النساء وفي لحظة عتاب أو غضب يسيرة.. تنسف كل أفضال الآخرين خاصة الزوج، دون مبرر، بل دون أن يكون هناك داع لذكر تلك الأفضال والتطرق لها. وكأن النبي ﷺ يحذر من هذه الصفة التي تقترب من صفة المنافق، الذي إذا خاصم فجر.

في هذه الأثناء كانت أسماء ذات النطاقين في طريقها نحو بيت أختها عائشة، وتحكي ذلك فتقول رضي الله عنها: «أتيت عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها إلى السماء وقالت: سبحان الله. فقلت: آية؟ فأشارت: أي نعم.

فقمت حتى تجلاني الغشي فجعلت أصب فوق رأسي الماء، فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار. ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنة الدجال، يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن، أو الموقن فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا. فيقال له: نم صالحاً، فقد علمنا إن كنت لموقنا. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[2] وتقول أسماء: «إن النبي ﷺ صلى صلاة الكسوف فقال:

(١) صحيح البخاري ١-٣٥٧.
(٢) صحيح البخاري ١-٣٥٨.

دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم؟ فإذا امرأة تخدشها هرة قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً»[1] وكأن صلاة الكسوف هذه توقظ مشاعر المؤمنين على هذا الكون كله، حتى البهائم.. حتى البهائم تنعم بحياة طيبة إذا كانت في محيط يحكمه الإسلام، ويحكم أهله الإسلام. كان ذلك الكسوف آية ورحمة لعباد الله.

تقول ذات النطاقين: «أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس»[2] أي أمر أصحابه بإعتاق عبيدهم، وحثهم على ذلك فقال: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار»[3] وحتى ذلك الرقيق الذي يملكه أكثر من شخص دخل في ذلك. بل نظم النبي ﷺ عملية إعتاقه، فألزم الشركاء الآخرين بقبول العتق، مع حقهم في أخذ تعويض مالي من الشريك الذي أعتق نصيبه. يقول عليه السلام: «من أعتق عبداً بين اثنين، فإن كان موسراً قوم عليه ثم يعتق»[4]

دفن إبراهيم عليه السلام وانتهى الكسوف ومرت الأيام وجاء رمضان فكان:

رمضان العام العاشر مختلفاً

صام المسلمون شهر رمضان في أجواء نقية آمنة.. بسط الإسلام فيها سيطرته على كل جزيرة العرب، لكنه كان بالنسبة للنبي ﷺ مختلفاً فقد «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام»[5] العاشر الذي نحن فيه الآن «اعتكف عشرين يوماً»[6]

ليس ذلك فحسب، بل كان جبريل عليه السلام يراجع معه كل ما نزل من القرآن «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي»[7] نحن فيه الآن.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٨٣٣.
(٢) صحيح البخاري ٢-٨٩٢.
(٣) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٩.
(٤) صحيح البخاري ٢-٨٩٢.
(٥) صحيح البخاري ٢-٧١٩.
(٦) صحيح البخاري ٢-٧١٩.
(٧) صحيح البخاري ٤-١٩١١.

وانقضى رمضان، وجاء العيد فاحتفى به المسلمون واحتفلوا، وبعد أن احتفل المؤمنون بعيد الفطر، ودخل أول أشهر الحج (شوال) قرر النبي ﷺ القيام بأداء فريضة الحج.

قصة حجة النبي ﷺ

البداية كانت ترغيباً

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: « سئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله. قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله. قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»[1]

ويقول رضي الله عنه: «سمعت النبي ﷺ يقول: من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[2]

ويقول أيضاً: « إن رسول الله ﷺ قال: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[3]

ثم دعوة للحج

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا.

فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً.

فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[4] لأن التشدد والتقعر ليس من

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.
(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٣.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٢٩.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٧٥.

الصفات التي تعود على صاحبها بخير، وكانت تلك الدعوة أمنية حملتها عائشة رضي الله عنها عندما قالت: «يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور. فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ»[1]

ونظراً لخطورة الوضع الأمني على المرأة، وتعرضها أكثر من الرجل للاستغلال الجسدي في الأسفار فقد «قال النبي ﷺ: لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، ولا يدخل عليها رجل إلا ومعها محرم.

فقال رجل: يا رسول الله، إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا وامرأتي تريد الحج؟ فقال: اخرج معها»[2] وكأن هذا الحديث يعطي لمن يسافر مع زوجته لأداء الحج أجراً أكثر من أجره إذا سافر مع الجيش للجهاد. هذه العناية بالمرأة لا تعني كما يتصور البسطاء فرض حصار على المرأة، بقدر ما هو حمايتها في عالم يتسيد فيه الرجل من أقصاه إلى أقصاه.

لم تكن عائشة وحدها في شوق إلى الحج. هذه امرأة مؤمنة أرادت أن يحملها الحج إلى البر «امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت. أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها. أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء»[3]

وقد حدد النبي ﷺ لكل بلد من البلاد مكاناً يبدؤون منه حجهم، وسميت هذه الأماكن بـ

مواقيت الحج المكانية

فالحج لا يؤدى إلا في مواقيت زمانية هي: شهر شوال وشهر ذي القعدة، وشهر ذي الحجة.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦٥٨.
(٣) صحيح البخاري ٢-٦٥٦.

أمـــا المواقيت المكانية فهي أماكن محددة.. يبدأ الحـــاج والمعتمر منها، أو قبل أن يصلها حجـــه وعمرته. وهي تحيط بمكة من جميع الجهـــات، وتمثل نقاط مرور على الطرقات المؤدية إليها، فإذا وصلها الحاج أو المعتمر وجب عليه خلع ثياب معينة حددها النبي ﷺ:

ملابس لا تجوز في الإحرام

الســـنة أن تكون مكونة من قطعتي قماش: إزار ورداء يلف إحداهما حول وســـطه لتغطي عورته وأسفل جسمه، فتكون له إزاراً.

وأما القطعة الأخرى فيديرها تحت إبطه الأيمن.. مغطياً بها كتفه الأيسر، وتسمى رداءً، وطريقة لف الرداء تحت الإبط الأيمن وفوق الكتف الأيسر تسمى (الاضطباع)

وليـــس للإزار أوالـــرداء ألوان، محددة لكـــن النبي ﷺ قال: «البســـوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم»[1].

أما الملابس التي يحرم لبسها على الرجال فهي التي أخبر عنها النبي ﷺ عندما «قـــام رجل فقال: يا رســـول الله، ماذا تأمرنا أن نلبس مـــن الثياب في الإحرام؟ فقال النبي ﷺ: لا تلبسوا القميص ولا السراويلات، ولا العمائم، ولا البرانس[2]، إلا أن يكون أحد ليست له نعلان فليلبس الخفين، وليقطع أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا شيئاً مسه زعفران ولا الورس[3]»[4]

أمـــا «من لم يكـــن له إزار، فليلبس الســـراويل، ومـــن لم يكن له نعـــلان فليلبس خفين»[5]

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٣-٤٢٩ وغيره من طرق عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وعبد الله بن خثيم صدوق من رجال مســـلم: التقريب ١-٤٣٢ وشـــيخه من أئمة التابعين الثقات.

(٢) هي ثياب في أعلاها غطاء للرأس. كالثياب المغربية.

(٣) نبات أصفر ينبت في اليمن تزين المرأة به وجهها.

(٤) صحي البخاري ٢-٦٥٣.

(٥) صحيح البخاري ٥-٢١٩٩.

أما النســـاء فليس لهــن ملابس معينة، لكـــن لا يجوز للمرأة لبــس القفازين ولا النقاب إذا دخلت في الحج أو العمرة. فقد قال ﷺ: «لا تنقب المرأة المحرمة، ولا تلبس القفازين»[1]

وبعد أن يرتدي الحاج أو المعتمر ملابس الإحرام، ينوي البدء والدخول في العبادة التي ســـافر من أجلها، ســـواء كانت حجاً أو عمرة. والسنة أن يكون ذلك في المواقيت المكانية المحددة، فإذا دخل في الإحرام، وجب عليه الامتناع عن عدة أشياء كانت مباحة له قبل أن يحرم تسمى:

محظورات الإحرام

ومنهـــا باختصار: الصيد في البر فقط لا في البحـــر، لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2].

الخطبـــة والـــزواج والجمـــاع، لقوله عليه الســـلام «لا ينكح المحـــرم ولا ينكح ولا يخطب»[3] وقوله تعالـــى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[4].

حلق الشعر، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[5]

أسماء المواقيت المكانية

«وقَّتَ رسول الله ﷺ: لأهل المدينة: ذا الحليفة[6]، ولأهل الشام: الجحفة[7]، ولأهل نجد: قرن المنازل[8] ولأهل اليمن: يلملم[9]» [10].

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٥٣.

(٢) المائدة: ٩٦.

(٣) صحيح مسلم ٢-١٠٣٠.

(٤) البقرة: ١٩٧.

(٥) البقرة: ١٩٦.

(٦) مكان يبعد ستة أميال أو أكثر من المدينة.

(٧) قرية قريبة من مدينة رابغ الآن.

(٨) مكان بين الطائف ومكة.

(٩) بينه وبين مكة ثلاثون ميلاً.

(١٠) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.

إذاً لــكل جهة ميقات، لكن ماذا عن الحاج والمعتمر الذي يمر بميقات غير ميقات بلاده، وماذا عن الحاج والمعتمر الذي تكون بلاده أقرب إلى مكة من الميقات؟

يشير النبي ﷺ أن تلك المواقيت لمن مر عليهن كائناً من كان، فيقول: «هن لهن ولمن أتــى عليهن من غير أهلهن، ممن أراد الحج والعمرة، فمن كان دونهن فمن أهله وكذا، فكذلك حتى أهل مكة يهلون منها»(١)

أي أن مــن كان بيته أقرب إلى مكة من الميقات.. يحرم من بيته حتى أن أهل مكة يحرمون من بيوتهم. هذه بعض المعلومات التي تلقاها الصحابة قبل تحركهم إلى مكة، وأثناء فترة الاستعداد للحج انتشر الخبر في أرجاء الجزيرة، فعادت معظم تلك الوفود، وقدمت إلى المدينة حشود عظيمة كلها رغبة في الحج والاقتداء بسنة النبي ﷺ.

جابر يتحدث عن تلك الأيام البهيجة فيقول: «إن رســول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه»(٢)

متى غادروا المدينة.

وماذا فعل النبي ﷺ قبل مغادرته؟

لقد لبد عليه الســلام شــعره بالصمغ أو غيره من مثبتات الشعر، حتى لا يتطاير ويدخله الغبار، وقد قامت عائشة رضي الله عنه بتطييبه حيث تقول: «كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرماً ينضخ طيبا»(٣) ثم سار أميالا حتى:

توقف في واد يقال له وادي العقيق

حيــث جاءه الوحي في ذلك الوادي، وأمره بســنة يقول عنها عمر رضي الله عنه «ســمعت النبي ﷺ بوادي العقيق يقول: أتاني الليلــة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك. وقل: عمرة في حجة»(٤)

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٣٨.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٦.
(٣) صحيح البخاري ١-١٠٤.
(٤) صحيح البخاري ٢-٥٥٦.

ما معنى عمرة في حجة

قبل ذلك كان النبي ﷺ منطلقاً قاصداً الحج فقط.

تقول «عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ أفرد الحج»[1] أي نوى الحج فقط، لكن جبريل أتاه في واد العقيق، وأمره أن يقرن العمرة بالحج، ويجعلهما معاً في سفرته هذه.

ومعنى القران هو: أن يؤدي العمرة، فإذا انتهى منها بقي على إحرامه حتى ينتهي من الحج دون فاصل بينهما.

أما المفرد فهو: الذي ذهب لأداء الحج فقط دون عمرة.

إذاً لا يوجد حتى الآن إلا طريقتان، أو نسكان للحج هما: القِران و الإفراد.

سار عليه السلام قاصداً (ذا الحليفة) وهو ميقات المدينة

الوصول إلى الميقات

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق النبي ﷺ من المدينة بعد ما ترجل وادهن، ولبس إزاره ورداءه هو وأصحابه، فلم ينه عن شيء من الأردية والأزر تلبس إلا المزعفرة، التي تردع على الجلد، فأصبح بذي الحليفة [صلى الظهر بذي الحليفة، ثم دعا ببدنته، أو أتى ببدنته، فاشعر صفحة سنامها الأيمن، ثم سلت الدم عنها، وقلدها بنعلين ثم أتى راحلته، فلما قعد عليها واستوت به على البيداء أهل بالحج] ركب راحلته حتى استوى على البيداء أهل هو وأصحابه[2]، وقلد بدنته[3] وذلك لخمس بقين من ذي القعدة»[4] أي قبل نهاية شهر ذي القعدة بخمسة أيام.

---

(١) صحيح مسلم ٢ - ٨٧٥ .

(٢) أي لبى ومعنى أشعر أي جرح سنامها تمييزاً لها عن بقية الإبل.

(٣) أي علق على رقبتها شيئاً يميزها وقد علق نعلين عليها.

(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٠ والزيادة سندها صحيح رواها أحمد ١-٢٥٤ وغيره من طريق شعبة قال قتادة سمعت أبا حسان يحدث عن ابن عباس أن النبي ﷺ. فأبو حسان الأعرج ثقة وليس كما قال الحافظ في التقريب: صدوق. انظر التهذيب.

«فأهل بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وأهــل الناس بهذا الذي يهلون به [والناس يزيــدون: ذا المعارج ونحوه من الكلام، والنبي ﷺ يســمع فلا يقول لهم شــيئاً] فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رســول اللــه ﷺ تلبيته. قال جابر رضي الله عنه: لســنا ننوي إلا الحج لســنا نعرف العمرة»[1]

إذا فالصحابــة كانوا لأول مرة يســمعون بعمرة في وقت الحــج، وكانوا لأول مرة يسمعون بشيء اسمه:

الاشتراط

أي ماذا عن حاج تعرض لمشكلة ما وهو في طريقه للحج، وهذه المشكلة أعاقته عن الوصول إلى مكة، أو أعاقته أثناء أداء الحج فلم يتمكن من المواصلة؟

في هذه الحالة عليه أن يذبح هدياً من الغنم أو البقر أو الإبل: لأن الله ســبحانه يقول: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ﴾ لكن هنا يأتي الاشتراط مخرجــاً من هذه الأزمــة، وكان مبعث هذا الفرج ابنة عمــه (الزبير بن عبد المطلب) تتحدث عنها عائشــة رضي الله عنها فتقول: «دخل رســول الله ﷺ على ضباعة بنت الزبير فقال لها: لعلك أردت الحج؟ قالت والله لا أجدني إلا وجعة.

فقال لها: حجي واشــترطي، قولــي: اللهم محلي حيث حبســتني»[2] أي أنها إذا تعرضــت لمانع ما بعد تلك الكلمات، فإن إحرامها ينتهي مباشــرة، وتصبح في حل من إحرامها دون ذبح فدي.

امتثلت ضباعة ورددت كلمات الاشتراط، لكن هناك امرأة أخرى كانت فرحا آخر للنســاء رغم معاناتها الشديدة، إنها زوجة جعفر بن أبي طالب سابقاً، وزوجة أبي بكر الصديق حالياً، المؤمنة المهاجرة (أســماء بنت عميس) رضي الله عنها. وجابر بن عبد

(١) حديث جابر في صحيح مسلم والزيادة عند البيهقي ٥-٤٥ وغيره من الطريق نفسه.
(٢) صحيح البخاري ٥ - ١٩٥٧.

الله يقص علينا معاناتها، والتشريع الذي نزل في النساء بسببها فيقول: «أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس (محمدَ بن أبي بكر)، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي، واستثفري بثوب وأحرمي»[1] أي أن النفاس والولادة لا تمنعان الحج ولا العمرة، وكل ما عليها هو أن تنتبه لنظافتها والدم الخارج منها، عن طريق الاستثفار، أي القيام بما تقوم به المرأة من احتياطات، ثم تواصل رحلتها وحجها وعمرتها.

ثم يكمل جابر قائلا: «فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك. ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به»[2]

كان ما حوله عليه السلام سيلا بشريا جميلا وهادرا ومؤثراً، سال هذا الجمع حتى بلغ مكاناً يبعد من المدينة ستاً وثلاثين ميلاً يقال له:

الروحاء حيث الذكريات والوعود والتشريع

أما الذكريات، ففي ذلك الوادي زُفت أم المؤمنين صفية إلى النبي ﷺ بعد عودته من غزوة خيبر.

يقول أنس إن صفية: «اصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الروحاء حلت، فبنى بها، ثم صنع حيساً في نطع صغير، ثم قال رسول الله ﷺ: آذن من حولك. فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفية»[3].

أما الوعود، فيقول عليه السلام: «والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً»[4]

وأما التشريع، فيقول ابن عباس إن النبي ﷺ «لقي ركباً بالروحاء فقال: مَنِ القومُ؟ قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٧.

(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٧.

(٣) صحيح البخاري ٢-٧٧٨.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩١٥.

قال: رسـول الله، فرفعـت إليه امرأة صبياً.. فقالت: ألهـذا حج؟ قال: نعم ولك أجر»[1]

لكـن يلزم هذا الصبي أن يحج إذا بلغ لأنـه الآن غير مكلف، فقد قال ﷺ: «رفع القلـم عن ثلاثة عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يسـتيقظ، وعن المعتوه حتى يعقل»[2]

واصل عليه السـلام سـفره وهو يلبي مضطبعاً وتلبيته هي: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[3].

لكن ماذا عن مستوى الصوت أثناء التلبية؟

يقول ﷺ «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية أو بالإهلال»[4]

كان سيلاً بشرياً متدفقاً هادراً كالرعد.. يغسل السماء والأرض من بقايا الخرافة والوثنية. يا الله.. رجل كان قبل عشـر سنوات يفر مع رفيقه من مكة طريداً شريداً.. باحثـاً عن مأوى! واليوم يعود إلى مكـة بالمهاجرين والأنصار، وبالجزيرة العربية كلها. مشهد يتمنى المرء لو تمتع به ولو للحظات.. كان بعض الصحابة قد أحضر معه هدياً من الإبل، ليذبحه لله في الحج، فتحرج من ركوبها، واكتفى بالسـير على قدميه، فرآه النبي ﷺ.. «فقال: اركبها. قال: إنها بدنة! قال: اركبها. قال: إنها بدنة.

قال: اركبها ويلك»[5] «اركبها بالمعروف حتى تجد ظهراً»[6].. ركب الصحابي دابته، وجاء صحابي آخر يسأل عن:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٧٤.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٠١ ثنا حسن بن موسى وعفان وروح قالوا ثنا حماد بن سلمة عن حماد عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة عن النبي ﷺ وله شواهد كثيرة.

(٣) صحيح البخاري ٢ - ٥٦١.

(٤) سـنده صحيح رواه مالك ١-٣٣٤ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن عبد الملك بن أبي بكر بن الحارث بن هشام عن خلاد بن السائب الأنصاري مرفوعاً. خلاد وتلميذه وعبد الله تابعيون ثقات التقريب: ١٩٦ و٣٦٢ و٢٩٧.

(٥) صحيح البخاري ٥-٢٢٨٠.

(٦) صحيح مسلم ٢ - ٩٦١.

حكم الهدي إذا جرح أو أصيب

وذلك بعد تقليده وإشعاره.. الصحابي الذي قدم سؤاله هو (ناجية الخزاعي) وكان مسؤولاً عن شؤون الهدي الذي ساقه النبي ﷺ معه «ناجية الخزاعي صاحبُ بُدْنِ رسول الله ﷺ قال: قلت يا رسول الله كيف أصنع بما عطب من البدن؟

قال: انحرها، ثم اغمس نعلها في دمها، ثم خل بين الناس وبينها فيأكلوها»(١)

لكن لا يأكل منها هو أو أحد رفاقه. لأن ابن عباس يقول: «إن ذؤيباً (أبا قبيصة) حدثه أن رسول الله ﷺ كان يبعث معه بالبدن، ثم يقول: إن عطب منها شيء، فخشيت عليه موتاً، فانحرها ثم اغمس نعلها في دمها، ثم أضرب به صفحتها، ولا تطعمها أنت ولا أحد من أهل رفقتك»(٢)

اقترب السيل البشري من مكة وكان:

تاريخ الوصول إلى مكة

بالتحديد هو ما ذكره ابن عباس أن النبي ﷺ: «قدم مكة لأربع ليال خلون من ذي الحجة» (٣) أي في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة، فيكون قد بقي على وقوف الحجاج بعرفة خمسة أيام. وهنا نزل حكم جديد فيه رحمة بهذه الجموع الغفيرة.

تقول عائشة رضي الله عنها «فلما دنونا من مكة أمر رسول الله ﷺ من لم يكن معه هدي، إذا طاف وسعى بين الصفا والمروة أن يحل»(٤) أي عليه بعد أن ينتهي من العمرة أن يخلع لباس الإحرام. مما يعني نزول الوحي بنسك ثالث من أنساك الحج هو:

التمتع

أي أن من لم يحضر معه هدياً من البقر أو الغنم أو الإبل، فله أن يكمل عمرته، ثم يتحلل من إحرامه، أي يتمتع بكل ما كان نهي عن فعله من الأشياء الجائزة قبل أن

---

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٣-٢٥٣ وغيره من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن ناجية الخزاعي وهو سند صحيح مشهور من أصح الأسانيد.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦١١.

يحرم. كالطيب ولبس القميص وغيرها، ويخلع لباس إحرامه حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو الذي سماه النبي ﷺ (يوم التروية).

وقد أثار هذا الأمر تساؤل بعض الصحابة، لأن النبي ﷺ أمر به ولم يفعله هو؟ فكانت الإجابة عند جابر الذي يروى عن النبي ﷺ قوله: «أحلوا من إحرامكم بطواف البيت وبين الصفا والمروة، وقصروا، ثم أقيموا حلالاً حتى إذا كان يوم التروية فأهلوا بالحج، واجعلوا التي قدمتم بها متعة.

فقالوا: كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج؟ فقال: افعلوا ما أمرتكم، فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم. ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدي محله. ففعلوا»[1] أي أن النبي أمرهم بذلك لأنهم لم يحضرو الهدي مثله، أما من أحضر هديه معه مثل النبي ﷺ، فعليه أن ينتهي من عمرته، ويتحلل من إحرامه، ويتمتع حتى يأتي اليوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)

ولعل في إدخال العمرة في أشهر الحج ضربة موجعة لبقايا الشرك، الذي تسلل إلى الحج قبل الإسلام، حيث كان العرب قبل الإسلام «يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض»[2] هذا عن الرجال ف:

ماذا عن النساء في دورتهن

لم تغب النساء يوما عن الوحي والتشريع.. كن ملء السمع والبصر بالنسبة لمحمد عليه السلام. جاء موعد الدورة الشهرية لأم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، فأصيبت بالخوف من فوات الحج والعمرة، فقالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فأهللنا بعمرة، ثم قال رسول الله ﷺ: من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً، فقدمت معه مكة وأنا حائض، ولم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوت إلى رسول الله ﷺ فقال: انقضي رأسك وامتشطي وأهلي بالحج، ودعي العمرة ففعلت»[3]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.
(٢) صحيح البخاري ٢-٥٦٧ عن ابن عباس.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٩٦.

اتضحـــت الصورة تماماً ونحن على أبواب مكة، حيث توقف النبي ﷺ عن التلبية وبات في مكان يسمى بـ: ذي طوى، ودخل مكة صبحاً لكنه قام بـ:

الاغتسال قبل دخول مكة

حيث «كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا دخل أدنى الحرم أمســك عن التلبية، ثم يبيت بذي طوى، ثم يصلي به الصبح ويغتسل، ويحدث أن نبي الله ﷺ كان يفعله»[١]

من أي مكان دخل مكة وفي أي وقت

يقول «ابن عمر رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ دخل مكة من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء، ويخرج من الثنية الســفلى»[٢] وهو ما تؤكده عائشــة رضي الله عنها بقولها: « إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخلها من أعلاها وخرج من أسفلها»[٣]

توجه عليه السلام نحو بيت الله الحرام، فـ:

ما هو أول شيء فعله

كان «أول شــيء بدأ به حين قدم مكة أنه توضأ»[٤] أي أنه «توضأ ثم طاف»[٥] لأن «الطواف صلاة»[٦] ولذلك لم يجز لعائشة أن تطوف بالكعبة لأنها حائض.

تقــول رضي الله عنهــا «دخل علي النبي ﷺ وأنا أبكي، فقــال: ما يبكيك؟ قلت: لوددت والله أني لم أحج العام.

قال: لعلك نفست؟ قلت: نعم.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٥٧٠.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٧١.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩١٨.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٠٦.

(٥) صحيح البخاري ٢-٥٨٤.

(٦) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ عن ابن جريج أخبرني الحسن بن مسلم عن طاووس عن رجل قد أدرك النبي ﷺ أن النبي ﷺ: ابن جريج لم يدلس والحســن وطاووس من التابعين الثقات. التقريب ١٦٤ و٢٨١ وله شاهد عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً.

قال: فإن ذلك شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري»[1] أي أنها تمارس كل مناسك الحج إلا الطواف حول الكعبة.

بعد ذلك توجه ﷺ نحو الكعبة، وبالتحديد نحو الحجر الأسـود، حيث يقول جابر رضي الله عنه متحدثاً عن:

الطواف

« إن رسـول الله ﷺ لما قدم مكة أتى الحجر فاستلمه، ثم مشى على يمينه فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً »[2] أي جعل الكعبة والحجر عن يساره، ثم يبدأ بالطواف حول الكعبة سـبعة أشواط.. يرمل في أول ثلاثة أشواط، أي يسـير سيراً بين الركض والمشي، ثم يمشـي مشياً عادياً في بقية الأشواط، وكان في طوافه لا يستلم من الكعبة إلا الحجر الأسود والركن اليماني.

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: « إن رسول الله ﷺ كان لا يستلم إلا الحجر والركن اليماني»[3] والاسـتلام يكون باليد، كما أن النبي ﷺ يقوم بتقبيل الحجر الأسود فقط، لكنـه لا يقبل الركن اليماني. ولذلك توجه عمر نحو الحجر الأسـود ممتلئاً بالتوحيد والإخـلاص لله، وخاطبه بلغة المتبع للوحي لا المبتدع.. بلغه حفظها لنا الصحابي عبد الله بن سرجس رضي الله عنه فقال «رأيت الأصلع يعني عمر بن الخطاب يقبل الحجر ويقول: والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك»[4]

أما ابنه عبد الله بن عمر فكان «يسـتلم الحجر بيده، ثم قبل يده وقال: ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله»[5]

إذاً فلدينا حتى الآن ثلاث سنن حول الحجر الأسود هي:

---

(١) صحيح البخاري ١-١١٧.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٢٥.
(٥) صحيح مسلم ٢-٩٢٤.

تقبيل الحجر مباشرة، الاستلام باليد ثم تقبيل اليد، الاستلام باليد فقط.

هذا هو الطواف.. لكن:

هل هناك أدعية مخصوصة أثناء الطواف

الطواف عبادة، والعبادة في الإسلام لا بد أن تكون وحياً نقياً فقط، وإلا فقدت كونها عبادة، لأنها لا تستند إلى دليل. والصحابة لم ينقلوا لنا عن النبي ﷺ حديثاً صحيحاً يجعل للطواف أذكاراً خاصة به، لذا فالأمر متسع لكل الأذكار، من قراءة القرآن، إلى الدعاء إلى التسبيح والتهليل، بل وحتى الصمت. أما الكلام في الطواف فجائز إذا كان قليلاً، لقوله عليه السلام: «إنما الطواف صلاة فإذا طفتم فأقلوا الكلام»[1]

طاف النبي ﷺ سبعة أشواط فماذا فعل:

بعد الطواف

بعد أن انتهى توجه عليه السلام مباشرة نحو مكان يقع أمام باب الكعبة والحجر بمسافة قصيرة، يسمى (مقام إبراهيم) ثم صلى خلفه ركعتين. رآه جابر يفعل ذلك فقال: «ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت»[2] و«كان يقرأ في الركعتين (قل هو الله أحد) و(قل يا أيها الكافرون) ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج»[3] نحو جبل الصفا، وبذلك انتهى من الطواف تماماً ليبدأ في

السعي بين الصفا والمروة

أي المشي بين جبلي الصفا والمروة. حيث قال عليه السلام بعدما «خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾: أبدأ بما بدأ

---

(١) سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٥-٤٩٥ وقد تم تخريجه قبل أربعة أحاديث ولم أجد سنداً صحيحاً لذكر معين بين الركنين.

(٢) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٣) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

اللـــه به، فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت، فاســـتقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شـــريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم دعا بين ذلك.

قـــال مثل هـــذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتـــى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى»[١] أي ركض ركضاً عندما نزل بطن الوادي، وقد رأته إحدى الصحابيات فقالت: «أبصرت النبي ﷺ وهو يســـعى بين الصفا والمروة، يقول: لا يقطع الأبطح إلا شداً»[٢]وقد أشير لبطن الوادي بعلامتين بعد ذلك.

وقد ســـعى النبي ﷺ سبعة أشواط.. مقدار كل شوط هو مقدار ما بين الجبلين، من الصفا إلى المروة شـــوط، ومن المروة إلى الصفا شـــوط. وبذلك تكون نهاية الشوط السابع والأخير عند المروة، وتنتهي العمرة بعد إكمال الشوط السابع.

ولما أكمل النبي ﷺ وصحابته شوط السعي السابع.. ذكرهم بما قاله من قبل، وهو أن من لم يحضر معه غنماً أو إبلاً أو بقراً فعليه أن يقصر شعره، ويخلع لباس إحرامه، ويتمتع بكل المباحات حتى يأتي اليوم الثامن من هذا الشهر (ذي الحجة).

نحـــن الآن في اليـــوم الرابع وقد «كان آخر طوافه على المـــروة، فقال ﷺ: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة[٣]، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة. فقام ســـراقة بن مالك بن جعشـــم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشـــبك رســـول الله ﷺ أصابعـــه واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج.. دخلت العمرة في الحج، لا بل لأبد أبد»[٤]

---

(١) جزء من حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٧.

(٢) ســـنده صحيح رواه أحمد ٦-٤٠٤ وغيره من طريق هشـــام الدستوائي عن بديل بن ميسرة عن صفية بنت شـــيبة عن أم ولد شـــيبة وهشـــام وبديل ثقتان وصفية صحابية وقال العجلي: تابعية ثقة. معرفة الثقات ٢-٤٥٤.

(٣) أي لو كنت أعرف المستقبل قبل حدوثه لما أحضرت الهدي معي، ولتمتعت بالعمرة.

(٤) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٨٨.

قــال جابر: «لم يكن بيننا وبين عرفة إلا خمس»[1] «فقام النبي ﷺ فينا فقال: قد علمتم أني أتقاكم لله، وأصدقكم وأبركم، ولولا هديي لحللت كما تحلون، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي، فحلوا.

فحللنا وســمعنا وأطعنا»[2] فحلوا وخلعوا ثيــاب إحرامهم، وتطيبوا وفعلوا ما كان محظوراً عليهم أثناء الإحرام.

نفــذ الصحابة ما طلب منهم، وبقي النبــي ﷺ على إحرامه هو والصحابة الذين ساقوا الهدي معهم، ثم توجه ﷺ لـ:

السكن في الحجون

مــكان في أعلى مكــة، وهو ذلك المــكان الذي خاطب فيه النبــي ﷺ الجن قبل الهجــرة.. إذاً فهــو قد «نزل بأعلى مكــة عند الحجون، وهو مهــل بالحج، ولم يقرب الكعبــة بعد طوافه»[3] وكانت «فاطمة رضي الله عنها ممن حل، ولبســت ثياباً صبيغاً واكتحلت»[4]

وقد استغربت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها تصرف النبي ﷺ وتصرف بعض صحابته.. يقول أخوها «ابن عمر عن حفصة رضي الله عنهم زوج النبي ﷺ إنها قالت: يا رســول الله، ما شأن الناس حلوا بعمرة، ولم تحلل أنت من عمرتك؟ قال: إني لبدت رأسي، وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر»[5]

أي حتى يذبح الهدي الذي أحضره معه.

أثناء ذلك وبينما كان النبي ﷺ في الحجون شاهد الصحابة:

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٣.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٨٣.
(٣) صحيح البخاري ٢-٥٦٠.
(٤) حديث جابر عند مسلم.
(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٨.

علي بن أبي طالب وأبا موسى يصلان من اليمن

حيث كانا قد علما بتحركه عليه السلام لأداء الحج فلحقا به، وكان لكل واحد منهما حالة تختلف عن الآخر، فقد «قدم علي من اليمن ببدن النبي ﷺ[1]، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممن حل ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها. فقالت: إن أبي أمرني بهذا.

فكان علي يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشاً[2] على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها؟ فقال: صدقت.. صدقت. ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: اللهم إني أهلّ بما أهلّ به رسولك. قال: فإن معي الهدي، فلا تحل.

فكان جماعة الهدي[3] الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة. فحل الناس كلهم وقصروا، إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي»[4] يقول جابر رضي الله عنه: «لم يكن مع أحد منا هدي غير النبي ﷺ وطلحة، وجاء علي من اليمن معه الهدي، فقال أهللت بما أهل به رسول الله ﷺ»[5]

أما أبو موسى فيقول رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ بعثني إلى اليمن، فوافقته في العام الذي حج فيه، فقال لي رسول الله ﷺ: يا أبا موسى كيف قلت حين أحرمت؟ قلت: لبيك إهلالاً كإهلال النبي ﷺ. فقال: هل سقت هدياً؟ فقلت: لا.

قال: فانطلق فطف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم أحل»[6] «ففعلت حتى مشطت لي امرأة من نساء بني قيس»[7]

وبذلك بقي علي بن أبي طالب في إحرامه، لأنه ساق الحيوانات (الهدي) معه، وخلع أبو موسى إحرامه بعد العمرة لأنه لم يحضر معه هدياً، أي أن علياً أصبح قارناً،

---

(١) البدن هي ما يهدى للحرم من الإبل والبقر.

(٢) أي يريد من النبي ﷺ أن يعاتبها.

(٣) أي مجموع الإبل والبقر التي أحضرها علي وأحضرها النبي عليه السلام.

(٤) حديث جابر الصحيح عند مسلم.

(٥) صحيح البخاري ٦-٢٦٤٢.

(٦) صحيح مسلم ٢-٨٩٦.

(٧) صحيح البخاري ٤-١٥٧٩.

أما أبو موسى فصار متمتعاً مثل جابر الذي يقول: «خرجنا مع رسـول الله ﷺ مهلين بالحج معنا النساء والولدان فلما قدمنا مكة طفنا بالبيت وبالصفا والمروة فقال لنا رسـول الله ﷺ: مـن لم يكن معه هدي فليحلل قلنا: أي الحـل؟ قال: الحل كله. قال: فأتينا النساء ولبسنا الثياب ومسسنا الطيب»[1]

واستمر الوضع على هذه الحال حتى:

جاء اليوم الثامن من ذي الحجة

وهو المسمى بـ (يوم التروية) وهو بداية أيام الحج.

يقـول جابر: إنه لما «كان يوم التروية أهلوا بالحج»[2] حيث غادر النبي ﷺ الحجون متجهاً بالجموع نحو (منى) لقضاء يوم التروية كاملاً فيها «فلما كان يوم التروية توجهوا إلـى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسـول الله ﷺ فصلى بها الظهـر والعصر والمغرب والعشـاء والفجر»[3]. كان يوماً جميلاً حافلاً بذكر الله، لكنه كان يوماً حزيناً بالنسـبة لعائشة التي يتحدث جابر بن عبد الله عن بكائها ذلك اليوم فيقول: «أهللنا يوم التروية، ثم دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها فوجدها تبكي. فقال: ما شأنك؟

قالت: شأني أني قد حضت، وقد حل الناس، ولم أحلل، ولم أطف بالبيت، والناس يذهبون إلى الحج الآن.

فقال: إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم، فاغتسـلي ثم أهلي بالحج. ففعلت»[4] عائشـة ما أمرت به، ودخلت في الحج يوم التروية، حيث يسن أن يقضي الحجاج ذلك اليوم في منى. وليس هناك أذكار مخصوصة أو أفعال مخصوصة في ذلك اليوم، سوى التزود بالطاعات، ومحاولة ضبط النفس عن الانفعال في تلك الأيام التي يشـتد فيها الزحـام، وأحياناً العطش والتعب. فالحج جهاد ومجاهـدة للانفعالات وردود الأفعال البشرية غير المحمودة.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٨٢.
(٢) صحيح البخاري ٢-٥٦٢.
(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٩.
(٤) صحيح مسلم ٢-٨٨١.

وجاء اليوم التاسع (يوم عرفة)

فبعد أن صلى النبي ﷺ وأصحابه فجر ذلك اليوم في منى.. أمر بعض صحابته ببناء خيمة صغيرة في مكان في عرفة يسمى (نمرة)، ثم تحرك هو وأصحابه نحو عرفة وكان الصحابة بين:

التكبير والتلبية يوم عرفة

فقد سأل رجل أنس بن مالك: عن الذكر في الطريق «من منى إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟

فقال: كان يهل منا المهل، فلا ينكر عليه، ويكبر منا المكبر، فلا ينكر عليه»

توقف ﷺ عند تلك الخيمة، وبقي تحتها حتى مالت الشمس من فوق الرؤوس نحو الغروب، وهو وقت صلاة الظهر، أو ما يسمى بالزوال. يقول جابر: «إن النبي ﷺ صلى الفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز[1] رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها»[2] حيث خطب الناس هناك، وكانت:

الخطبة يوم عرفة

قصيرة ومختصرة، رغم أن الخطيب كان أبلغ الناس، وأعلم الناس، وأكثرهم تأثيراً، وأنه لا ينطق عن الهوى.. ورغم أن الناس لن يملوا حديثه، إلا أنه سن سنته لمن بعده أن يقصروا الخطبة.

يقول جابر «حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادي، فخطب الناس وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

---

(١) أي تحرك ولم يتوقف كما توقعوا.

(٢) حديث جابر عند مسلم ٢-٨٩٠.

ألا كل شـــيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع[1]، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم بن ربيعة بن الحارث، كان مســترضعاً في بين ســعد فقتلته هذيل.

وربــا الجاهليـــة موضوع، وأول ربــاً أضع ربانا، ربا عباس بن عبــد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النســاء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني[2] فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت،

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس:

اللهم اشهد، اللهم اشهد. ثلاث مرات»[3]

صلاة الظهر والعصر في عرفة

«ثــم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شــيئاً»[4] ثم تحرك لـ:

الوقوف عند جبل عرفة

«ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص»[5]. وقبل أن نغادر عرفة نود أن نعرف:

(١) أي باطل ساقط لا قيمة له.

(٢) ستسألون عني يوم القيامة أو في القبر.

(٣) حديث جابر عند مسلم.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

أي الأماكن من عرفة يجوز الوقوف بها

يقول عليه السلام: «وقفت ههنا وعرفة كلها موقف»[1] أما عن:

فضل يوم عرفة

فتقول عائشة: «إن رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟»[2]. وقد قدم أناس من أهل نجد يوم عرفة متوجهين بسؤال عن الحج.. ذلك السؤال الذي حملت إجابته:

أهمية الوقوف بعرفة بالنسبة للحجاج

يقول الصحابي: عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه: «رأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات، فأقبل أناس من أهل نجد فسألوه عن الحج؟ فقال: الحج يوم عرفة. من أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج»[3] أي أن من لم يقف بعرفة قبل طلوع الفجر من هذه الليلة، فقد فاته الحج، ومن وقف بعرفة ولو ساعة من نهار أو ليل، فقد أدرك الحج.

وبعد أن غابت الشمس ركب عليه السلام ناقته لـ:

مغادرة عرفة نحو مزدلفة

ولمزدلفة اسم آخر هو: (جمع) يقول جابر رضي الله عنه «وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة.. السكينة.

كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً، حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة»[4] ولما سئل أسامة بن زيد رضي الله عنه عن طريقة سير النبي ﷺ نحو مزدلفة: «كيف كان

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٨٢.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي ٥-١٥٢ وغيره من طرق عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن ابن يعمر الديلي وبكير بن عطاء الليثي تابعي ثقة من رجال التقريب ١-١٠٨.

(٤) حديث جابر.

رسول الله ﷺ يسير في حجة الوداع حين دفع؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص»[1] أي كان يسير ببطء في المكان الضيق، حتى لا يتضايق من وراءه من الزحام، فإذا وجد طريقاً فسيحاً انطلق.

ويقول: «ابن عباس رضي الله عنهما: أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً، وضرباً، وصوتاً للإبل. فأشار بسوطه إليهم وقال: أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع»[2] أي ليس البر أن ترغموا الرواحل على السرعة.

استمر الحال على ذلك حتى توقف النبي ﷺ في الطريق، وعن ذلك التوقف يقول رديف النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنه: «دفع رسول الله ﷺ من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال، ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله.

فقال: الصلاة أمامك. فركب، فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما»[3]

في تلك الأثناء وصل رجل من جبل طي.. أنهكه التعب، وأنهك راحلته، حيث كان يقوم بعمل غريب ومرهق جداً، رغبة في إدراك الحج. كان لا يمر بجبل من جبال مكة إلا وقف عليه، حتى انتهى إلى النبي ﷺ وهو في مزدلفة.. عندها طرح أسئلته التي بينت:

أهمية الوقوف بمزدلفة

كان اسم ذلك الصحابي: «عروة بن مضرس بن أوس بن حارثة بن لام الطائي، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، فقلت: يا رسول الله جئت من جبلي طيء، والله ما جئت حتى أتعبت نفسي، وأنضيت راحلتي، وما تركت جبلاً إلا وقفت عليه؟

فقال رسول الله ﷺ: من شهد معنا هذه الصلاة، وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه، وقضى تفثه»[4]

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٠٠.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦٠١.
(٣) صحيح البخاري ١-٦٥.
(٤) سنده صحيح رواه الحميدي ٢-٤٠٠ وغيره من طرق عن الشعبي قال سمعت عروة بن مضرس والشعبي تابعي إمام ثقة معروف.

إذاً فالنبـــي عليه الســـلام «وقـــف بالمزدلفة وقـــال: وقفت هاهنـــا والمزدلفة كلها موقف»[١]

ثم نادى النبي ﷺ ابن عباس ومن معه من الصغار والنســـاء الضعفة، وأمرهم أن يتوجهوا من الليل نحو منى ليرموا الجمرات، وذلك لشـــدة الزحام المتوقعة غداً، ولكنه نبههم إلى عدم رمي الجمرات قبل طلوع الشمس.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا ممن قدم رســـول الله ﷺ ليلة المزدلفة في ضعفة أهله»[٢] وقال أيضاً: «كان رســـول الله ﷺ يقـــدم ضعفاء أهله بغلس ويأمرهم، يعني لا يرمون الجمرة حتى تطلع الشمس»[٣]

في تلك الليلة لم يقم النبي ﷺ، ولم يتهجد حيث «اضطجع رســـول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة»[٤] ثم نهض قبل أن يســـفر الجو لـ:

التوجه نحو المشعر الحرام

والمشعر الحرام عبارة عن جبل في منطقة مزدلفة. يقول جابر: «ثم ركب القصواء حتى أتى المشـــعر الحرام، فاســـتقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً»[٥] وعن موقفه في مزدلفة يقول عليه السلام: «وقفت هـهنا وجمع كلها موقف»[٦] وبعد أن أسفر الجو توجه عائداً:

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابـــن خزيمة ٤-٢٧١ وغيره من طرق عن جعفر ثنا أبي قـــال أتينا جابر ابن عبد الله وهذا هو سند مسلم.

(٢) ســـنده صحيح رواه أبو داود ٢-١٩٤ حدثنا أحمد بن حنبل ثنا ســـفيان أخبرني عبيد الله بن أبي يزيد أنه سمع ابن عباس... وعبيد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٥٤٠.

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود ٢-١٩٤ والنســـائي في الكبرى ٢-٤٣٧ وغيرهما من طرق عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عباس لولا عنعنة حبيب وله شـــاهد عند ابن ماجه ٢-١٠٠٧ من طريق الحســـن العرني عن ابن عباس وفيه إرســـال وعند ابن أبي شـــيبة ٣-٢٣٤ وغيره من طريق المسعودي وهو ضعيف عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس.

(٤) حديث جابر عند مسلم.

(٥) حديث جابر عند مسلم.

(٦) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

إلى منى لرمي جمرة العقبة

يقـــول جابر رضي الله عنه: «فدفـــع قبل أن تطلع الشـــمس، وأردف الفضل ابن عباس، وكان رجلاً حســـن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشـــق الآخر ينظر، فحول رســـول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر حتى»(١)

مر بطريقه بوادي محسر

وهو الوادي الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل، ولذلك أسرع بالسير حتى تجاوز الوادي وهو مستمر في التلبية..

يقول جابر رضي الله عنه أنه عليه الســـلام «أتى بطن محســـر فحرك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى»(٢) وصل إلى منى.

عندها توقف لالتقاط الحصى. لكن ما حجم الحصى، وهل يزيد الأجر كلما كبر حجم الحصاة؟ الإجابة بالعكس.. يرويها لنا ابن عباس الذي أوصاه النبي ﷺ بالتقاط الحصى وحدد له:

حجم الحصى

قال ابن عباس: «قال رســـول الله ﷺ غـــداة العقبة وهو واقف على راحلته: هات القـــط لي. فلقطت له حصيات، وهي حصا الخذف(٣) فلما وضعتهن في يده قال: نعم، بأمثال هؤلاء فارمـــوا.. بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا. وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»(٤) ومن الغلو في الدين الرمي بأحجار كبيرة، أو بالأحذية، أو أي شيء غير حصى الخذف الصغير.

---

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) الرمي بالحصى الصغار بأطراف الأصابع لسان العرب ٩-٤٠.

(٤) ســـنده صحيـــح رواه ابن حبان - موارد الظمآن ١-٢٤٩ وأبو يعلـــى ٤-٣١٦ وغيرهما من طرق عن عوف الأعرابي عن زياد بن حصين حدثني أبو العالية حدثني ابن عباس. أبو العالية رفيع بن مهران تابعي ثقة وتلميذه ثقة التقريب ٢١٠ و٢١٩وعوف ثقة التقريب ٤٣٣.

أخبر النبي ﷺ أصحابه بسنته ثم «أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي»[1]

كان عليه السلام يكبر فقط، يعني يقول: الله أكبر لا يزيد ولا ينقص عليها شيء، وهذا معناه أنه:

توقف عن التلبية عند الرمي

كما يقول رديفه الفضل بن عباس رضي الله عنهما: «إن النبي ﷺ لم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة»[2] وهذا معناه أنه ترك التلبية عند بدء الرمي مباشرة، لأنه انشغل بالتكبير أثناء الرمي، «فرمى الجمرة بسبع حصيات، وجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه»[3] وقد كان عليه السلام يرمي جمرة العقبة راكباً، ويقدم لأمته صورة من صور التلاحم، والتواضع، والسكينة، وضبط النفس، في شدة الزحام التي تحتاج إلى هذا المستوى الرفيع من التعامل والأخلاق والقيادة.

عظمة هذا النبي يوم الرمي

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم «رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر على ناقته صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك»[4] أي أن الناس لا يُضربون ولا يُدفعون أثناء مروره، بل لا يقال لهم: أفسحوا الطريق، أو ابتعدوا كي يمر.. كان جزءاً من أمته.. يسبح في مشاعرها، وتسبح في مشاعره.. يمتع ناظريه بهم ويمتعون أنظارهم به.

صحابية أخرى تدعى: أم الحصين «تقول حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيته حين رمى جمرة العقبة، وانصرف وهو على راحلته، ومعه بلال وأسامة أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس. فقال رسول

(١) حديث جابر عند مسلم.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٣١.

(٣) صحيح مسلم ٢ - ٩٤٣.

(٤) سنده قوي رواه ابن خزيمة ٤-٢٧٨ والترمذي ٣-٢٤٧ وغيرهم عن أيمن بن نابل أخبرني قدامة بن عبد الله. أيمن تابعي حسن الحديث من رجال البخاري. التقريب ١١٧.

الله ﷺ قولاً كثيراً ثم سمعته يقول: إن أمر عليكم عبد مجدع أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا»[1]

ويقول جابر رضي الله عنه: «رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر ويقول لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[2]. ثم تحرك عليه السلام متوجهاً

نحو المذبح

لينحر هديه بيده، ولذلك سمي هذا اليوم بـ (يوم النحر)، ولما وصل عليه السلام قام بذبح ثلاث وستين منها، بيده ثم ترك لعلي رضي الله عنه الباقي ليذبحه. يقول جابر رضي الله عنه: «ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده»[3] ثم بين لهم:

سنته في نحر الإبل

يقول ابن عمر رضي الله عنه عن هدي النبي ﷺ في نحر هديه من الإبل: «كان هو ينحر هديه بيده، يصفهن قياماً، ويوجههن إلى القبلة، ثم يأكل، ويطعم»[4]

ولذلك لما شاهد ابن عمر رجلاً ينحر إبله وقد أناخها على الأرض، قال له: «ابعثها قياماً مقيدة سنة محمد ﷺ»[5] أما:

سنته في ذبح الغنم

فقد بينها عليه السلام قبل ذلك في المدينة، حيث يقول أنس رضي الله عنه «ضحى النبي ﷺ بكبشين أملحين، فرأيته واضعاً قدمه على صفاحهما يسمي ويكبر فذبحهما بيده»[6] أي وضع قدمه على جنبها و«يقول باسم الله، والله أكبر»[7]

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٤.
(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٣.
(٣) حديث جابر عند مسلم.
(٤) سنده صحيح رواه مالك ١-٣٧٩ عن نافع عن عبد الله بن عمر وهذا سند كالذهب.
(٥) صحيح البخاري ٢-٦١٢.
(٦) صحيح البخاري ٥-٢١١٣.
(٧) صحيح مسلم ٣-١٥٥٧.

وقال رجل لـ «ابن عباس رضي الله عنهما: قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ قال: إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها، ثم قل: الله أكبر الله أكبر، منك ولك، ثم سم، ثم انحرها.

قلت: وأقول ذلك في الأضحية؟ قال: والأضحية»[١] «ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها»[٢] ثم بين لأصحابه:

السماحة في مكان الذبح

فقال: «نحرت ههنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم»[٣] أي اذبحوا في أماكن إقامتكم في منى، دون التكلف للذهاب إلى المذبح.

أما عن الاشتراك في البقر أو الإبل فيقول جابر: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر، كل سبعة منا في بدنة»[٤] «فنحرنا البعير عن سبعة، والبقرة عن سبعة»[٥]، ثم أرشدهم ﷺ إلى:

التيسير في أمر لحوم الهدي

فبعد أن كانوا لا يأكلون لحوم الهدي إلا لمدة ثلاثة أيام، هي أيام منى، سمح لهم بالأكل. بل بالتزود من ذلك اللحم، وأخذه معهم إلى ديارهم، وخلال أسفارهم.

يقول جابر: «كنا لا نمسك لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نتزود منها ونأكل منها، يعني فوق ثلاث»[٦] ويجوز لمن شاء أن يأخذ من ذلك اللحم ما شاء إذا أذن صاحبه، فقد قال أحد الصحابة الذين حضروا النبي ﷺ وهو يذبح

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم ٢-٤٢٢ وغيره عن الأعمش ومنصور وغيرهما عن أبي ظبيان عن ابن عباس. وأبو ظبيان تابعي كبير وثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-١٨٢.

(٢) حديث جابر عند مسلم.

(٣) صحيح مسلم ٢-٨٩٣.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

(٥) صحيح مسلم ٢-٩٥٥.

(٦) صحيح مسلم ٣-١٥٦٢.

واسـمه: «عبد الله بن قرط، قال: قال رسـول الله ﷺ: إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم (القر) وهو الذي يليه.

فقدمنا إلى رسـول الله ﷺ بدنات خمس، أو سـت فطفقن يزدلفن[1] إليه بأيتهن يبدأ، فلما وجبت جنوبهم تكلم بكلمة خفية لم أفهمها. فقلت للذي يليني: ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: من شـاء اقتطع»[2] وقد كان ذلك السـلوك الكريم من النبي ﷺ تأثراً بقولـه تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[3]

وأرسل النبي ﷺ إلى زوجاته بلحم بقر كان قد ذبحه عنهن.

تقول عائشـة رضي الله عنها: «دخل علينا يوم النحـر بلحم بقر فقلت: ما هذا؟ قال: نحر رسول الله ﷺ عن أزواجه»[4] لكن

ماذا عن الذي لا يستطيع النحر؟

لفقره مثلاً؟

الحجاج أربعة أنواع:

حاج من أهل مكة، فلا يجب الذبح عليه.

حاج مفرد نوى الحج فقط، فليس عليه أن يذبح.

وحاج قارن أحضر معه هديه وانتهى أمره.

---

(١) معجزة للنبي ﷺ وهي أن هذه الحيوانات يسرن نحوه.

(٢) سـنده صحيح رواه البيهقي ٧-٢٨٨ وغيره عن ثور بن يزيد عن راشـد بن سعد عن عبد الله بن لحي عن عبد الله بن قرط. وعبد الله مخضرم ثقة: التقريب ٣١٨ وتلميذه راشد بن سعد تابعي ثقة: التقريب ٢٠٤ وثور بن يزيد ثقة ثبت: التقريب ١٣٥.

(٣) الحج: ٣٧.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦١١.

والحـاج الرابـع: هو المتمتع وعليه ذبـح هدي، فإذا عجز عـن الذبح لظرف من الظـروف فعليـه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسـبعة أيام إذا رجـع إلى بلاده لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[1]. هذه الآيات التي تعلم بعض أحكام الحج توحي ببعض مكاسـبه - ضبط النفس، والتحكـم في الغرائز المتوثبة، والامتناع عن الانتصار لغرور الذات، والتفوق الواهم..

آيات تنثر على دروب الحج عطوراً، وتغمر أجواءه بنسيم بارد: حسن الخلق وحسن الجوار والإيثار. ومن الأشياء التي تقدم للحاج المساعدة في أداء ذلك السلوك الجميل.. التزود بالمال والمركب والأمتعة، التي تجعل الرحلة أكثر راحة، والرفقة أكثر متعة. فقد «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون. فإذا قدموا مكة سـألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ﴾»[2]

إذاً فقد أرسل عليه السلام لنسائه اللحم ثم نادى حلاقه ليقوم ب:

الحلق بعد النحر

فبعد أن «انصرف إلى البدن فنحرها، والحجام جالس وقال بيده عن رأسه، فحلق شـقه الأيمن»[3] لقد «ناول الحالق شـقه الأيمن فحلقه، ثم دعـا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: احلق.

---

(١) البقرة: ١٩٦-١٩٧.

(٢) صحيح البخاري ٢-٥٥٤.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

فحلقه، فأعطاه أبا طلحة. فقال: أقسمه بين الناس» وقد كان بيت أنس بن مالك أسعد الناس بشعره ﷺ، فهو لم يعط أبا طلحة فقط، بل أعطى زوجته أم سليم، وهي أم أنس الذي يقول: «وزعه الشعرة، والشعرتين بين الناس»[١] «ثم أشار إلى الحلاق، وإلى الجانب الأيسر، فحلقه فأعطاه أم سليم»[٢]

ثم قال ﷺ: «اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟

قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟

قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟

قال: وللمقصرين»[٣]

أما النساء فقال ﷺ: «ليس على النساء حلق، إنما على النساء التقصير»[٤] ثم توجه ﷺ إلى عائشة لتطيبه، وهذا يعني أنه قد أبيح له الطيب وانتهى من الإحرام.

تقول رضي الله عنها: «طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل، قبل أن يطوف وبسطت يديها»[٥] وتقول: «طيبت رسول الله ﷺ لحرمه حين أحرم، ولحله قبل أن يفيض بأطيب ما وجدت»[٦] ومعنى يفيض، أي يطوف بالبيت طوافاً آخر يسمى طواف الإفاضة. وبعد أن تطيب ﷺ:

خطب الناس يوم النحر

وخاطب فيهم إيمانهم بالله.. خاطب فيهم هذا الصفاء، وهذه الأخوة الرائعة.. آملاً أن تستمر دون منغصات. قال ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

(٢) صحيح مسلم ٢-٩٤٧.

(٣) صحيح مسلم ٢-٩٤٦.

(٤) سنده صحيح رواه الدارمي ٢-٨٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد الحميد بن جبير عن صفية بنت شيبة أخبرتني أم عثمان بنت أبي سفيان عن بن عباس مرفوعاً.. وعبد الحميد تابعي ثقة: التقريب ٣٣٣ والبقية صحابة.

(٥) صحيح البخاري ٢-٦٢٤.

(٦) صحيح مسلم ٢-٨٤٧.

السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى.

قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى.

قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.

قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه.

ثم قال: ألا هل بلغت.. ألا هل بلغت»[١]

وبعد أن انتهى عليه السلام من خطبته.. سأله بعض الصحابة عن أشياء كانت الإجابة عليها كلها واحدة هي:

لا حرج

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «إنه شهد النبي ﷺ يخطب يوم النحر، فقام إليه رجل فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا، ثم قام آخر فقال: كنت أحسب أن كذا قبل كذا»[٢] لقد «وقف رسول الله ﷺ على راحلته، فطفق ناس يسألونه فيقول القائل منهم: يا رسول الله إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل الرمي؟ قال رسول الله ﷺ: فارم ولا حرج. وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر؟ فيقول: انحر ولا حرج.

---

(١) صحيح البخاري ٥-٢١١٠ وبعد كلمة وأموالكم «قال محمد وأحسبه قال».

(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٩.

فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء، ويجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشباهها، إلا قال رسول الله ﷺ: افعلوا ذلك ولا حرج»[1] ثم: توجه عليه السلام لمكة لأداء

طواف الإفاضة

يقول جابر رضي الله عنه: «ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت»[2]. ومعنى أفاض، أي طاف طوافاً يسمى طواف الإفاضة، وقد كان عليه السلام في طوافه ذلك راكباً لشدة الزحام، كما تقول عائشة رضي الله عنها: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره، يستلم الركن كراهية أن يضرب عنه الناس»[3]

أما جابر فيعتقد أن هناك سبباً آخر، هو تعليم الناس المناسك.

يقول رضي الله عنه: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة، ليراه الناس وليشرف وليسألوه فإن الناس غشوه»[4].

وهنا يتساءل المسلم: كيف يستلم عليه السلام الحجر وهو راكب على بعير؟ والإجابة عند ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول: «إن رسول الله ﷺ طاف بالبيت وهو على بعير، كلما أتى على الركن أشار إليه بشيء في يده وكبر»[5]

سألنا الصحابي أبا الطفيل رضي الله عنه: ما هذا الشيء الذي بيده فقال: «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت، ويستلم الركن بمحجن معه، ويقبل المحجن»[6] والمحجن هو العصا المعوجة الرأس، ويسمى الصولجان أيضاً. لكن ماذا عن الأشخاص ضعيفي البنية، الذين لا يطيقون الزحام وشدته؟

ها هي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تتوجه للنبي ﷺ وهو يصلي داخل المسجد، لتسأله عن طوافها وضعفها وتقول: «شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٨.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٩.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٥) صحيح البخاري ٢-٥٨٨.
(٦) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.

فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة. قالت: فطفت»[1] وطافت فاطمة بنت النبي ﷺ وصفية وبقية أمهات المؤمنين، حتى عائشة التي كانت سعيدة أكثر من غيرها بهذا اليوم، فقد طهرت فيه من حيضها، وأصبح بإمكانها الطواف بالبيت، بعد أن أدت مع الحجيج مناسك الحج كلها عدا الطواف.

وإذا كانت عائشة قد طهرت وطافت، فإن صفية قد طافت ثم أصابها الدم بعد طوافها، وعن ذلك تقول عائشة رضي الله عنها «حججنا مع النبي ﷺ فأفضنا يوم النحر، فحاضت صفية. فأراد النبي ﷺ منها ما يريد الرجل من أهله؟ فقلت: يا رسول الله، إنها حائض. قال: حابستنا هي؟ قالوا: يا رسول الله، أفاضت يوم النحر. قال: اخرجوا»[2]

ويعني بذلك أنها لو حاضت قبل طواف الإفاضة، لوجب عليها أن لا تسافر حتى تطوف طواف الإفاضة، لكنها إذا أدت طواف الإفاضة فعليها إكمال باقي مناسك حجها، ثم السفر دون حاجة إلى طواف الوداع قبل مغادرة مكة.

أكمل النبي ﷺ طوافه وصلى ركعتي الطواف ثم قام بـ:

التوجه نحو بئر زمزم للشرب منه

يقول جابر: «فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم.. فناولوه دلواً فشرب منه»[3] ثم توجه عليه السلام إلى منى.

العودة بعد الإفاضة إلى منى

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ أفاض يوم النحر، ثم رجع فصلى الظهر بمنى»[4] «فكان ابن عمر يفيض يوم النحر، ثم يرجع فيصلي الظهر بمنى، ويذكر أن النبي ﷺ فعله»[5]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٢٧.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.
(٣) حديث جابر عند مسلم.
(٤) صحيح مسلم ٢-٩٥٠.
(٥) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.

عاد ﷺ إلى منى ليمضي بقية أيام الحج في منى وتسمى هذه الأيام الباقية: «أيام التشريق» وهي: اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة.

وخـــلال تلك الأيام يجب على الحاج أن يبيت بمنـــى، لكن يجوز له التحرك خارج منـــى وزيارة الكعبة، لكن مبيته (أي قضاء الليـــل) يجب أن يكون في منى، وخلال تلك الأيـــام يجب علـــى الحاج أن يرمي الجمرات الثلاث يومياً، كل جمرة بســـبع حصيات. ووقت الرمي يختلف عن وقت الرمي يوم النحر.

يقول جابر رضي الله عنه: «رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد فإذا زالت الشمس»[1] أي أن رمي أيام التشريق يكون بعد دخول وقت صلاة الظهر.

سنته عليه السلام وطريقته في الرمي:

هـــي أنه يأتي للجمرة الأولى، وهي الصغرى، فيرميها بســـبع حصيات، يقول بعد كل رميـــة: الله أكبر. فإذا انتهى من الرمي تحرك عن يمينه، ثم اســـتقبل القبلة، ورفع يديه ودعا طويلاً.

ثم يتحرك نحو الجمرة الوســـطى، ثم يرميها بسبع حصيات، يكبر بعد كل حصاة، ثم يتحرك عن يساره ويستقبل القبلة، ويدعو دعاءً طويلاً رافعاً يديه.

ثم يتحرك نحو جمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات، ثم يغادرها دون أن يقف عندها.

فابن عمر رضي الله عنهما «كان يرمي الجمرة الدنيا بســـبع حصيات، يكبر على إثر كل حصاة، ثم يتقدم حتى يسهل فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلاً ويدعو ويرفع يديه، ثم يرمي الوســـطى، ثم يأخذ ذات الشمال، فيسهل ويقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويـــلاً ويدعو ويرفع يديه، ويقوم طويلاً، ثم يرمي جمرة ذات العقبة من بطن الوادي، ولا يقـــف عندها ثم ينصرف، فيقول: هكـــذا رأيت النبي ﷺ يفعله»[2] وذلك لمدة ثلاثة أيام هي أيام التشريق. لكن من الممكن:

(١) صحيح مسلم ٢-٩٤٥.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦٢٣.

الاكتفاء بالرمي يومين فقط

بحيث يستطيع الحاج مغادرة منى في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة قبل غروب الشمس، لكن إذا غابت الشمس قبل مغادرته، فيجب عليه المبيت في منى، ليرمي اليوم الثالث عشر. لقول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾[1] ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما: «من غربت له الشمس من أوسط أيام التشريق وهو بمنى، فلا ينفرن حتى يرمي الجمار من الغد»[2] لكن:

المبيت في منى ليس واجباً على كل الحجيج

فالنبي ﷺ سمح للمضطرين، وأصحاب الأعذار بالمبيت خارج منى فقد «استأذن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيت بمكة ليالي منى، من أجل سقايته فأذن له»[3] والسقاية هي تقديم الشراب إكراماً لضيوف بيت الله.

يتحدث ابن عباس عن سقايتهم فيقول: «إن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها. فقال: اسقني. قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه. قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح. ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه يعني عاتقه، وأشار إلى عاتقه»[4].

وكان العباس يقدم النبيذ المباح.. الذي لم يتحول إلى خمر، وقد انتقد أحد الأعراب بني العباس تقديمهم للنبيذ، حيث يروي أحد الجالسين أثناء ذلك الحوار واسمه: بكر بن عبد الله المزني فيقول: «كنت جالساً مع ابن عباس عند الكعبة، فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن، وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن

---

(١) البقرة: ٢٠٣.
(٢) سنده صحيح رواه مالك ١-٤٠٧: عن نافع عن ابن عمر : وهذا أصح الأسانيد.
(٣) صحيح البخاري ٢-٥٨٩.
(٤) صحيح البخاري ٢- ٥٨٩.

حاجـــة بكـــم، أم من بخل؟ فقال ابن عباس: الحمد لله، ما بنا من حاجة ولا بخل. قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أســامة فاستســقى، فأتيناه بإناء من نبيذ فشرب وسقى فضله أسامة، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول اللـــه ﷺ»(١) ومن أجل ذلك توجه العباس نحو مكة للمبيت بها من أجل الســقاية، كما أذن النبي ﷺ:

للرعاة أن يرموا بالليل

حيث «رخص للرعاء أن يرموا بالليل، وأن يجمعوا الرمي»(٢) «وقد أوضح الصحابي الذي روى هذا الحديث معنى الجمع بقوله: «إن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا يوماً، ويدعــوا يوماً»(٣) أخبر عليه الســلام أصحابه بذلك، وقضى أيام التشــريق بمنى، ولما انتهت أيام التشــريق الثلاثة، توجه ﷺ نحو مكة ليطوف بالكعبة سبعة أشواط تسمى: (طواف الوداع)، وبين لأصحابه أن:

طواف الوداع واجب

فقـــال لهم: «لا ينفرن أحـــد حتى يكون آخر عهده بالبيـــت»(٤) ثم طاف النبي ﷺ طواف الوداع.. ســبعة أشــواط يفعل مثل ما كان يفعل في أي طواف. ويفعل الصحابة مثل ما فعل لكن:

ماذا عن المرأة الحائض وطواف الوداع

هل تحبس من معها فينتظرونها حتى تطهر، أم تغادر مكة معهم ولا شــيء عليها؟ هذه المشكلة تعرضت لها أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٥٣.

(٢) ســنده صحيــح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ حدثنا ســلم بــن جنادة ثنا وكيع عن مالك عــن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبي بداح عن أبيه أن رســول الله ﷺ. ســلم ثقة التقريب ٢٤٥ وعبد الله تابعي ثقة مر معنا: التقريب لكنه سمع الحديث من والده الثقة أبي بكر كما في الحديث التالي وأبو البداح تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٩٤ ووالده صحابي رضي الله عنه.

(٣) سنده صحيح رواه ابن خزيمة ٤-٣١٩ وهو الحديث السابق.

(٤) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.

مرة أخرى تروي عائشة العالمة قصتها فتقول: «إن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ حاضت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ.. فقال: أحابستنا هي؟ قالوا: إنها قد أفاضت.

قال: فلا، إذاً»[1] أي أنها لن تحبسكم عن الخروج، فليس عليها طواف وداع، ويكفيها طواف الإفاضة عن طواف الوداع، وذلك لما «قالوا: يا رسول الله، أفاضت يوم النحر. قال ﷺ: اخرجوا»[2] ويقول ابن عباس: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»[3] ولكن بشرط أن تكون قد طافت طواف الإفاضة.

وقبل أن يخرج النبي ﷺ حدد لأصحابه مكاناً للاجتماع قبل الانطلاق.. اسمه: (المحصب)، وهو ذلك المكان الذي يحمل ذكريات مريرة جداً للنبي عليه السلام وأهله وصحابته، عندما حاصرتهم قريش فيه وقاطعتهم، ومنعت الاتصال بهم والتعامل معهم. قال أسامة بن زيد: «قلت: يا رسول الله، أين تنزل غداً في حجته قال: وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟ ثم قال: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة المحصب»[4] فيقول عليه السلام: «حين أراد أن ينفر من منى: نحن نازلون غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، يعني بذلك المحصب، وذلك أن قريشاً وبني كنانة تقاسموا على بني هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوها، ولا يكون بينهم شيء حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ»[5].

خرج النبي ﷺ وخرج الصحابة رضي الله عنهم، ولكن قبل خروجهم طلبت عائشة من النبي عليه السلام طلباً فيه قربة إلى الله.

عائشة تريد أداء العمرة

وهي تشتكي من أن الناس سوف يرجعون إلى ديارهم وقد أدوا عمرة وحجاً، أما هي فستعود وقد أدت حجة فقط.

---

(١) صحيح البخاري ٢-٦٢٥.
(٢) صحيح البخاري ٢-٦١٨.
(٣) صحيح مسلم ٢-٩٦٣.
(٤) صحيح البخاري ٣-١١١٣.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم والبيهقي في الكبرى ٥-١٦٠ واللفظ له.

تقــول رضي الله عنها: «قدمت مكة وأنــا حائض، لم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشـكوت ذلك إلى رسـول الله ﷺ فقال: انقضي رأسـك وامتشطي، وأهلي بالحج، ودعي العمرة.

قالـت: ففعلـت فلما قضينا الحج»[1] «قالت: يا رسـول اللـه يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة؟»[2] «أيرجع الناس بأجرين، وأرجع بأجر؟

فأمـر عبد الرحمن ابن أبي بكر أن ينطلق بها إلى التنعيم. قالت: فأردفني خلفه على جمل له»[3] لكي تحرم بالعمرة من ذلك المكان الذي يسـمى (التنعيم)، وهو مكان خارج الحرم.

تقــول رضي الله عنها: إن النبي ﷺ قــال: «اذهبي مع أخيك إلى التنعيم، فأهلي بعمرة ثم موعدك كذا وكذا»[4]

وتقدم عائشـة تفصيـلات أكثر عن ذلك المكان، الذي حدده النبي ﷺ ويسـمى: المحصب، فتقول: «دعا عبد الرحمن ابن أبي بكر فقال: اخرج بأختك من الحرم، فلتهل بعمرة، ثم افرغا، ثم ائتيا هاهنا فإني أنظركما حتى تأتياني.

قالـت: فخرجنا حتى إذا فرغت وفرغت من الطواف ثم جئته بسـحر فقال: هل فرغتـم؟ فقلت: نعـم فآذن بالرحيل فـي أصحابه، فارتحل الناس فمـر متوجهاً إلى المدينـة»[5] فتقـول: «فلقيني النبي ﷺ وهـو مصعد من مكة، وأنـا منهبطة عليها»[6] «فاعتمرت فقال ﷺ: هذه مكان عمرتك»[7]

ثم لحقت هي وأخوها عبد الرحمن بالنبي ﷺ، ولما التحقت عائشة بالركب حدثت قصـص طريفة بين زوجات النبي ﷺ، وبينه وبينهن. لعبـت الغيرة دورها المعتاد رغم عودة الجميع من رحلة الحج الرائعة، وتألق النبي ﷺ كعادته بسلوكه الرائع.. في طريق الأشواق إلى المدينة كان النبي عليه السلام يشعر بمعاناة و:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٨٧٠.
(٢) صحيح مسلم ٢-٨٧٣.
(٣) صحيح مسلم ٢-٨٨٠.
(٤) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.
(٥) صحيح البخاري ٢-٥٦٥.
(٦) صحيح البخاري ٢-٥٦٦.
(٧) صحيح البخاري ٢-٥٩٠.

شكوى زوجته صفية من جملها

وقد كانت صفية قاسـية على مشـاعره الفياضة، وقد اسـتغلت صفية كون ذلك اليوم يومها كي تتهل المزيد من الحنان والدلال، لكنها بالغت في الشـكوى حتى كلفتها مبالغتها تلك متعة يومها ذلك.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كانت صفية مع رسـول الله ﷺ في سـفر، وكان ذلك يومها فأبطأت في المسـير، فاستقبلها رسـول الله ﷺ وهي تبكي، وتقول: حملتني على بعير بطيء.

فجعل رسـول الله ﷺ يمسـح بيديه عينيها، فأبت إلا بكاء [وجعلت تزداد بكاء، وهو ينهاها فلما أكثرت زبرها وانتهرها، وأمر الناس بالنزول، فنزلوا ولم يكن يريد أن ينزل]. فغضب رسـول الله ﷺ وتركها، فقدمت، فأتت عائشـة فقالت: يومي هذا لك من رسول الله ﷺ إن أنت أرضيتيه عني.

فعمدت عائشة إلى خمارها، وكانت صبغته بورس وزعفران فنضحته بشيء من ماء، ثم جاءت حتى قعدت عند رأس رسول الله ﷺ، فقال لها رسول الله ﷺ: ما لك؟ فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء فعرف رسول الله ﷺ الحديث فرضي عن صفية.

وانطلق إلى زينب فقال لها: إن صفية قد أعيا بها بعيرها، فما عليك أن تعطيها بعيرك؟

قالت زينب: أتعمد إلى بعيري فتعطيه اليهودية؟

فهجرها رسـول الله ﷺ ثلاثة أشهر فلم يقرب بيتها، وعطلت زينب نفسها، وعطلت بيتها، وعمدت إلى السرير فأسندته إلى مؤخر البيت، وأيست أن يأتيها رسول الله ﷺ.

فبينا هي ذات يوم إذا رسول الله ﷺ فدخل البيت، فوضع السرير موضعه، فقالت زينب: يا رسول الله، جاريتي فلانة قد طهرت من حيضتها اليوم، هي لك، فدخل عليها رسول الله ﷺ ورضي عنها»[1]

---

(١) سنده قوي رواه النسائي في الكبرى ٥-٣٦٩ أخبرنا محمد بن خلف قال ثنا آدم قال نا سليمان بن المغيرة قال ثنا ثابت البناني عن أنس.. ابن خلف العسـقلاني صدوق التقريب ٤٧٧ وشـيخه ابن أبي إياس ثقة عابد من رجال البخاري: التقريب ٨٦ وبقية السند صحيح على شرط مسلم. والزيادة عند أحمد ٦-٣٣٧ من طريق شميسة وهي لم توثق.

كان بيت النبوة بيتاً كبقية البيوت.. يجري فيه ما يجري في تلك البيوت من غيرة وخصومة، لكن النبي ﷺ كان يقدم من خلال تلك الخلافات حلولاً لأمته، دون مثالية أو إسفاف.

حفصة تسب صفية

ربما وجدت حفصة بنت عمر في أصل صفية اليهودي مكاناً جيداً للوخز والإيلام، وإشباعاً لغيرتها منها، لكن صفية وجدت الإنصاف في كلمات زوجها العذبة الحانية.

يقول أنس: «بلغ صفية أن حفصة قالت: يا بنت يهودي. فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي.

فقال: ما يبكيك؟ فقالت: قالت حفصة إني ابنة يهودي.

قال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتقي الله يا حفصة»[(١)]

فأي نسب بعد هذا النسب، لكنها الغيرة البشرية التي تلم بالمرأة، والتي لا يجب أن تتحول إلى عداوة أو شحناء، أو إضرار بالآخر. والتعامل معها فن يجيده النبي ﷺ، ويتفنن في تشكيله لنساء الأمة ورجالها، وهن معذورات، فالرجل الذي يغرن عليه ليس كبقية الرجال. إنه محمد ﷺ، الذي كانت عائشة من فرط حبا ووَلَهِهَا به تتحسس فراشه وهو نائم، خشية أن يغادره.

ذات ليلة كان نائماً معها، فاستيقظت فلم تجده، فانتابها شعور تتحدث عنه فتقول: «افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه. فتحسست، ثم رجعت فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت.

فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر»[(٢)]

---

(١) سنده صحيح رواه عبد بن حميد ١-٣٧٣ وغيره من طريق عبد الرزاق أنا معمر عن ثابت البناني عن أنس ابن مالك وهو سند مشهور على شرط الشيخين.

(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.

إنه الحب الذي يذهل صاحبه، ويذهل عائشة حتى كررت فعلها مرة أخرى، ولكن بصورة أشد تأثراً.

تقول رضي الله عنها: «ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ؟ قلنا: بلى. قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي، انقلب فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع. فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويداً، وانتعل رويداً، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويداً، فجعلت درعي في رأسي واختمرت، وتقنعت إزاري.

ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع، فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف، فانحرفت، فأسرع، فأسرعت، فهرول، فهرولت، فأحضر، فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل فقال: مالك يا عائش حشياً رابية؟

قلت: لا شيء. قال: لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير. قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي... فأخبرته.

قال: فأنت السواد الذي رأيت أمامي. قلت: نعم. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني. ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم.

قال: فإن جبريل أتاني حين رأيت، فناداني فأخفاه منك، فأجبته فأخفيته منك، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك، وظننت أن قد رقدت فكرهت أن أوقظك، وخشيت أن تستوحشي. فقال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم.

قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[1] وتمر الأيام وينزل الله على نبيه ﷺ سورة النصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ وكان لنزول هذه السورة ظلالٌ مؤثرٌ ووقعٌ تتحدث عنها عائشة وابن عباس حديثاً مؤثراً فما هي:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٧٠.

آثار سورة النصر

تقول رضي الله عنه «ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) يصلي صلاة إلا دعا أو قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي»[1]

لم تترك هذه المرأة العظيمة هذا الأمر يمر دون استفسار، فهي لا تحب رسول الله ﷺ فقط، بل تحب سنته وتعشق التتلمذ على يديه، فتقول «كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه.

فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقال: خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا»[2]
وقد فسرها عمر وابن عباس بأنها:

نعي مبكر للنبي عليه السلام

في حوار جرى بين عمر رضي الله عنه وبين أشياخ بدر بحضور ابن عباس، سأل عمر أولئك الأشياخ: «ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴿٢﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾﴾

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري. أو لم يقل بعضهم شيئاً.

فقال لي: يابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله والفتح (فتح مكة) فذاك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم»[3].

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٥١.
(٢) صحيح مسلم ١-٣٥١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٣.

إذاً، فهل اقترب أجله عليه السلام.. هل آن الأوان للرحيل؟ لماذا راجع معه جبريل القرآن مرتين هذا العام بدلا من مرة واحدة كما يفعل كل عام؟ هل هي علامة الوداع أيضاً؟

لـم تكن تلك المشـاعر لتأخذ النبي ﷺ بعيداً عن هموم أمتـه وأمر دعوته.. كان يغرس الحياة في النفوس.. كان يشعلها ويأخذها إلى الإنجاز بلا حدود.

ذات يـوم خاطب أصحابـه محرضاً إياهم على زرع الحياة فـي تلافيف الموت.. خاطبهم خطاباً لا يعرف حدوداً للإبداع ولا زمنا للتوقف فقال لهم: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليفعل»[1] مالذي سـيجنيه غارس فسيلة نخل تحتاج إلى سنوات لتنمو وتثمر؟ ما الذي سيعود عليه من غرسها والقيامة ستقوم بين لحظة وأخرى؟

لا شيء سوى أن الإسلام جاء لتظل حياة المسلم إبحاراً نحو اللا نهايات، وإبداعا دون توقف.

كما كان ﷺ ينظر إلى ما بعد الموت، فالموت مرحلة لا أكثر في حياة المسـلم. لقد اسـتدعى ﷺ أسـامة بن زيد وأمَّره على جيش، وأمره بالتوجه نحو الشام. ولما أحس من بعض الرجال نوعاً من التبرم بإمارة أسامة الأسمر: «فقالوا فيه؟ فقال النبي ﷺ: قد بلغني أنكم قلتم في أسـامة، وإنه أحب الناس إلي»[2] «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله! وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[3]

كانـت كلمات تواصل التذكير والغسـل لبقايا لوثات الجاهليـة التي لا تكف عن العـودة كلما سـنحت الفرصة، وكانت كلماته عليه السـلام كالوداع لأسـامة وللدنيا، واقتراب الوداع مرير، فهل سـتحتمله القلوب؟ هل سـيقوى عليه قلب فاطمة وعائشة وبقية أمهات المؤمنين؟

ذات يوم كانت عائشة تشتكي رأسها فقالت: «وارأساه.

---

(١) سـنده ثلاثي صحيح رواه الطيالسـي ١ - ٢٧٥ حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن زيد عن أنس مرفوعا وهشام ثقة من رجال الشيخين التقريب ٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٦٢٨.

فقال رسـول اللـه ﷺ: ذاك لو كان وأنا حي، فأسـتغفر لك وأدعـو لك. فقالت عائشة: واثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذاك[1] لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك.

فقال النبي ﷺ: بل أنا وارأسـاه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهـد، أن يقول القائلـون، أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبـى الله ويدفع المؤمنون»[2] «ادعي لي أبا بكر وأخاك، حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[3]

كانت كلمات كالوداع، فقد ألم بالنبي ﷺ مرض بدأ يزداد شدة يوماً بعد يوم.. مرض أقعـده وأثقل حركتـه حتى عن التنقل بين أبيات زوجاته، وذلك بعد عودته من دفن بعض أصحابه رضي الله عنهم.. تقول عائشة رضي الله عنها: «رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسـي وأنا أقول: وارأسـاه. قال: بل أنا والله يا عائشة.. وارأساه. ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي، فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليك ودفنتك؟

فقلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك، رجعت إلى بيتي فأعرست ببعض نسائك.

فتبسـم رسول الله ﷺ، وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه، حتى استعر به وهو في بيت ميمونة، فدعا نسـاءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي. فأذِنَّ له. فخرج رسول اللـه ﷺ بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن العبـاس ورجل آخر[4] تخط قدماه الأرض، عاصباً رأسه حتى دخل بيتي»[5]

كان مشـهداً يدمي القلب لمن رآه.. نبي الله لا يسـتطيع السير على قدميه، وهو الذي كان يقود الجموع قبل أشهر إلى تبوك ومكة.

---

(١) أي لومت أنا.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٨.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٥٧.

(٤) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-٢٢٦-٢٢٩ واللفظ له والبيهقي في الدلائل ٧-١٦٩: حدثني يعقوب بن عتبة عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشـة يعقوب ثقة التقريب ٦٠٨ والزهري ثقة ثبت- التقريب ٥٠٦.

ها هي قدمـــاه تخطان على الأرض خطوطاً، وآثاراً كآثار المســـافرين.. المغادرين بالقلوب والأرواح.

فنـــزل عليه الوحي في تلـــك الأيام يخبره أن الله يخيره بـــين لقائه أو البقاء حياً، فكانت الإجابة كما تبوح آلام عائشة حيث تقول: «غمر رسول الله ﷺ واشتد به الوجع فقال: أهريقوا علي من سبع قرب، من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم.

قالـــت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمـــر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حســـبكم حســـبكم»[1] لقد «قال بعد ما دخل بيته واشتد وجعه: هريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لَعَلِّي أعهد إلى الناس.

وأُجْلِسَ في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا: أن قد فعلتن. ثم خرج إلى الناس»[2] «فصلى بهم وخطبهم»[3] ليخبرهم بجوابه لوحي الله، ويبدو أن هذه الخطبة التي ارتجلها يوم الأربعاء قد تكون:

آخر خطبة للنبي ﷺ

يقول ابن عباس: «خرج رســـول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأســـه بخرقة، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنه ليس من الناس أحد أمن علي في نفســـه وماله مـــن أبي بكر بن أبي قحافة، ولو كنـــت متخذاً من الناس خليلاً لاتخـــذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإســـلام أفضل. ســـدوا عنـــي كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر»[4]

كان أبـــو بكر محوراً من محـــاور تلك الخطبة الوداعية.. وكان أبو بكر أكثر الناس استيعاباً لمعناها، وأشد الناس تأثراً بها، فقد سالت دموعه وسالت، ولم تتوقف إلا بعد أن رجاه الحبيب محمد ﷺ وناشده أن يتوقف عن البكاء، وكيف لا يبكي وهو يرى نبيه وصاحبه، وصديق طفولته وشبابه وشيخوخته يهم بالرحيل.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وهو جزء من الحديث السابق

(٢) صحيح البخاري ١-٨٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٤.

(٤) صحيح البخاري ١-١٧٨.

أبو سعيد الخدري كان هناك.. يصف مشاعره التي حيرتها دموع أبي بكر وأحزانه، ثـم يبوح فيقول: «خطب النبي ﷺ فقال: إن اللـه خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله.

فبكى أبو بكر رضي الله عنـه [وبكى، فقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا]. فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ! إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله؟ فكان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا.

قـال ﷺ: يا أبا بكر، لا تبك. إن أمن النـاس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته. لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»[1]

ثم فاض بالوفاء.. وللوفاء عنوان هو الأنصار، خاطب عليه السـلام أمته ليوصيها بأحب الأقوام إليه (الأنصار) وكان المرض قد أعيى جسده الشريف فلم يستطع القيام، فجلس على المنبر من شدة الألم، وكان «عليه ملحفة[2] متعطفاً بها على منكبيه، وعليه عصابة دسـماء[3] حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً، أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»[4]

كان ﷺ يخطـب رأفـة ورحمة بأمته، من أن تمزقها الخلافـات بعد رحيله، بعد هـذا الحب الغامر والأخوة الحانية.. بعد هذه الفتوحات وعلو التوحيد وأهله، ونظافة الجزيـرة من الأصنـام والأوثان والجاهلية. كان يخطب امتنانـاً لمن آزره وعاضده في مسـيره الطويل المضني.. كان يخطب مؤكداً أن العواطف نحوه سـتتأجج وتجمح بعد رحيله، ولا بد للعواطف من سـياج وإلا جمحت بأهلها، وسـاقتهم بعيداً عن التوحيد الذي جاهد من أجله.

---

(١) صحيح البخاري ١-١٧٧ والزيادة عند مسلم ٤-١٨٥٤.
(٢) أي لحاف.
(٣) تميل للسواد، أو عليها أثر الزيت .
(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٨٣.

يقول أحد الصحابة «سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً. ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»[1]

ثم نهض ﷺ نحو بيت عائشة الملاصق للمسجد، ليمكث فيه ما تبقى من أيامه التي يبدوا من شدة مرضه أنها قليلة. وكان الصحابة رضي الله عنهم يقومون بعيادته، والاطمئنان على حاله..

أحدهم عبد الله بن مسعود الذي يقول: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً؟ قال: أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم.

قلت: ذلك بأن لك أجرين. قال: أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[2]

خرج ابن مسعود وجاء غيره، بينما كان المرض ضيفا ثقيلا.. لا يريد مغادرة جسده الطاهر. اشتد مرضه ﷺ وألمه حتى أغمي عليه فنادوا عمه العباس، فتألم لمنظر حبيبه، فاقترح أن يقدم له علاجاً يسمونه: (اللد) واللد هو أن يسقى المريض دواءاً من أحد شقي الفم، فوافق من كان موجوداً على اقتراح العباس، ففتحوا فم النبي ﷺ ولدوه، فلما أفاق بعد مدة احتج عليهم، وأمر بمعاقبة كل من شارك في ذلك بعقاب ظريف.

تقول عائشة: «ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته، وتتام به وجعه حتى غمر، واجتمع عنده نساء من نسائه: أم سلمة وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين، منهم أسماء بنت عميس، وعنده عمه العباس بن عبد المطلب. وأجمعوا على أن يلدوه.

فقال العباس: لألدنه. فلد فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: من صنع بي هذا؟ قالوا: يا رسول الله، عمك العباس – قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض وأشار نحو أرض الحبشة –.

---

(١) صحيح مسلم ١-٣٧٧.

(٢) صحيح البخاري ٥-٢١٣٩.

قال: ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشـينا يا رسـول الله أن يكون بك وجع ذات الجنـب. فقـال: إذن ذلك لداء، ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لد، إلا عمي.

تقول عائشة: فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة - لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا»[1] وهو عقاب أشـبه بالمزاح، أما ما يعانيه عليه السلام، فكان أثرا من آثار أمر كاد يودي بحياته في سابق الأيام، وهو الآن يحدث عائشة عنه.. عن:

آلام سم اليهودية

يخاطبهـا وهي تمرضه فيقول: «يا عائشـة ما أزال أجد ألـم الطعام الذي أكلت بخيبـر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السـم»[2] أي انقطاع عرقي من أثر ذلك السم.

وجاء يوم الخميس

يقول ابن عباس «يوم الخميس، وما يوم الخميس؟

ثـم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشـتد برسـول اللـه ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع [فقال عمر: إن رسـول الله ﷺ قـد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابـاً لن تضلوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا] فقالوا هجر[3] رسول الله ﷺ. قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، وأوصى عند موته بثلاث:

---

(١) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١١ معلقا ووصله الحاكم وله شاهد عند الدارمي١-٦٠

(٣) تعب وبدأ يهذي من شدة الألم.

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم. ونسيت الثالثة»[1]

كان ذلـك الكتاب يحمل نوعاً من اجتهاد النبي ﷺ الذي لم ينزل به وحي، وإلا لو كان وحياً لوجب عليه تبليغه كبقية رسالته لأن الله يقول له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

إذاً فعـدم تبليـغ جزء من الوحي هو عند الله عدم تبليغ للرسـالة، وهو أمر لا يمكن التخلي عنه مهما كان السبب، أما هذا الكتاب الذي كان النبي ﷺ ينوي كتابته، فقد تراجع عنه، لأنه محض اجتهاد.. حرصاً منه على اجتماع أمته. فاكتفى ﷺ بتلك الوصايا الثلاث. ولـم تكن هي الوصايا الوحيدة، فقد كان يوصي كل من يدخل عليه بوصية. كهذه الوصية التي تقرب الإنسان إلى ربه، وتقرب الإنسان إلى الإنسان أيضاً، والتي تفيض راحة ورحمة لمن يمتثل لها.. الصلاة والرفق بالمملوكين، ولعل أجمل الرفق بهم هو إعتاقهم.

تقول أم المؤمنين هند (أم سـلمة) رضي الله عنها: «كان عامة وصية نبي الله ﷺ عند موته: الصلاة.. الصلاة. وما ملكت أيمانكم، حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره، وما يفيض بها لسانه»[3] من حرصه على الأخذ بهما.

كان النبـي ﷺ في يوم الخميس هذا يصلي بالناس وهو جالس، ولما حانت صلاة المغـرب حمل عليه السـلام ليصلـي بالمؤمنين فصلى بهم وقـرأ ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ...﴾

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١١١ والزيادة عند مسلم ٣-١٢٥٩.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٦-٣١٥ وغيره عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال حدث سفينة عن أم سلمة. رجاله أئمة ثقات وسعيد أثبت الناس في قتادة وله شاهد عن علي.

كان الرجال والنســاء ينصتون إلى ذلك الصوت الخاشع الذي أنهكه المرض. تقول إحدى النســاء اللواتي كن خلف تلك التلاوة وخلــف ذلك النبي الإمام وهي أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما: «ســمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً، ثــم مــا صلى لنا بعدها حتى قبضه الله»(١) فقد صلى ثم أُخذ إلى بيت عائشــة، حيث كان يتنفل جالساً، ولما حانت صلاة العشاء.. حاول عليه السلام النهوض فلم يستطع.. حــاول مرة، ومرتين، لكن جســده لم يســاعده، فقد أقعده الألم، وأمســى يعاني من الإغماء تلو الإغماء، بينما كان الشوق يفتك بالصحابة.. ينتظرون خروجه بلهفة وحزن عظيمين. لكنه لم يخرج، ولم يستطع النهوض من مكانه. كانت عائشة رضي الله عنها تعانــي معه، وتحكي معاناته فتقــول: «ثقل النبي ﷺ فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماء في المخضب.

ففعلنا، فاغتســل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفــاق فقال ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثــم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقــال: أصلى الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليــه، ثم أفاق فقــال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رســول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة العشاء الآخرة.

فأرســل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس»(٢) وعندما سمعت عائشة اسم أبيها على لســان النبي ﷺ، وهو يجعله أحق الصحابة بالصلاة، وإمامة المؤمنين، بعد أن جعله إمامهم جميعا في الحج شعرت ببعض القلق..

عائشة التي تحب أباها خشيت عليه من التشاؤم الذي لا مبرر له، إلا في حزنها، فهي مشــفقة على أبيها حزينة على زوجها.. ترحل بها الهموم والمخاوف فتقول للنبي عليــه الســلام: «إن أبا بكر رجل رقيــق، إذا قرأ غلبه البكاء، [إنــه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطيع أن يصلي بالناس] فقال: مروه فيصلي، فعاودته.

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١١.

(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

قال: مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف. [فقلت لحفصة قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة. فقال رسول الله ﷺ: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل للناس. فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً]»[1] وكأن حفصة ترى أن عائشة ورطتها حتى قال لها حبيبها ما قال.

ذهب المبعوث إلى أبي بكر «فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر - وكان رجلاً رقيقاً -: يا عمر، صل بالناس. فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر»[2]

كانت ليلة ثقيلة على سماء المدينة وأهلها.. ليلة تخنق صدورهم بالهموم والتفكير بنبيهم، لكن، لعل هذا الفجر يحمل فرجاً.

وجاء الفجر فلم يستطع النبي ﷺ النهوض أيضاً، فصلى أبو بكر رضي الله عنه فجر الجمعة بالمؤمنين، وحان وقت صلاة الجمعة، فجاء المؤمنون من كل أطراف المدينة، وعاد أسامة، فكانت:

عودة أسامة بن زيد

ومن معه من الجيش إلى المدينة تعني تأجيل السفر، فلعلهم يحظون بخطبة النبي ﷺ والصلاة خلفه، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد خرج أبو بكر رضي الله عنه وسلم على المصلين، وارتقى درجات المنبر وخطب الناس.. فلا أدري أي شعور كان يخالجهم ويخالج أبا بكر وهم الذين اعتادوا على سماع صوته العذب على هذا المنبر منذ عشر سنوات، وهم يشعرون بأناته وآلامه خلف تلك الستارة الصغيرة.. لا يستطيع الحراك مما به من الألم، بل لا يستطيع حتى الكلام.. لا بد أن دموعاً غزيرة سالت، وشهقات علت، ونحيباً طال من الرجال والنساء جميعاً.

(١) صحيح البخاري ١-٢٤١ والزيادة له ١-٢٤٠ و١-٢٤٠.
(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

تهادت خطوات الأمير الأسـمر (أسامة) رضي الله عنه إلى بيت النبي ﷺ يعوده، فكانت هذه القصة التي أبكت قلب أسـامة وهو يقول: «لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت، وهبـط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسـول اللـه ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي، فعرفت أنه يدعو لي»[1]

ومضى يوم الجمعة والنبي عليه السلام على فراشه لم يخرج، وجاء يوم السبت، فصلى أبو بكر الفجر، ثم جاء الظهر فصلى بهم أيضاً، فكانت المفاجأة عندما رأى المصلون

النبي ﷺ يخرج للصلاة

وذلك بعد أن أذن بلال رضي الله عنه وأقام الصلاة، فتقدم أبو بكر للصلاة وكبر وأمهـم، وأثناء الصلاة خرج علي بن أبي طالـب والعباس رضي الله عنهما.. يحملانه عليه السلام من غرفة عائشة التي تقول: «إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بني رجلـين أحدهما العباس لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر.. فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر

قال: أجلسـاني إلى جنبه. فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ»[2] فتحول المسجد إلى ساحة من البهجة والسـعادة التي لم تدم طويلاً. فقد أدخل عليه الصلاة والسـلام إلى بيت عائشة من جديد.

يقول أنس رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ صلى خلف أبي بكر في ثوب واحد، وبرد مخالفاً بين طرفيه. فلما أراد أن يقوم قال: ادع لي أسـامة بن زيد فجاء فأسـند ظهره إلى نحره»[3] فأخذه إلى بيته.. حيث تفاقم المرض عليه.. وكانت فاطمة وأمهات

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٦٧ حدثني سعيد بن عبيد بن السباق عن محمد بن أسامة عن أبيه أسامة. سعيد ومحمد بن أسامة تابعيان ثقتان التقريب٢٣٩ و ٤٦٧.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٤٣.

(٣) سـنده صحيح رواه البيهقي في الدلائل ٧-١٩٢ من طرق عن سـعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى ابن أيوب حدثنا حميد الطويل عن ثابت عن أنس وهذا السند على شرط البخاري وقد رواه كثيراً انظر مثلاً صحيح البخاري (١-١٥٧ و١-٢٠٩).

المؤمنين عليهن السلام لا يتوقفن عن زيارته، بينما كان الألم لا يتوقف عنه. وبعد أن خرج أسامة والعباس وعلي رضي الله عنهم رأى العباس بفراسته تقاسيم الموت في وجه النبي ﷺ.

خرجوا من عنده فـ«قال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا.

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده. وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ»(١)

كان العباس وغيره لا يعلمون من خليفة النبي ﷺ، ولا كيفية انتخابه؟ فهم بل العرب كلهم لأول مرة يجتمعون تحت راية دولة واحدة. لذا كان العباس يريد معرفة من يخلف النبي ﷺ، لكن علياً كان أبعد نظراً، لأن الخلافة ليست منحة منه عليه الصلاة والسلام، وقد تحدث عليه الصلاة والسلام بكلام خطير ودقيق وهام عن الخلافة، وعن الصفات التي لا بد أن تتوافر في الخلفاء، وما يحل للخليفة، وما لا يحل له، وعن أنه لا يعطي الإمارة من سألها، وأشياء كثيرة قبل أن يأتي العباس إلى المدينة.

بينما لم يتحدث عليه السلام عن شخص بعينه يجب أن يتولى من بعده، مما يعني أنه سيترك للأمة أمر انتخاب الأصلح والأنسب. والصحابة رغم عدالتهم وجهادهم يظلون بشرا لهم وجهات نظر مختلفة، وآراء مختلفة، ومواهب مختلفة، ومزايا مختلفة، ولا يمكن أن يجمعوا على شخص بعينه. لكن هناك ميزات إذا جمعت برز صاحبها، كما برز أبو بكر الذي عينه عليه السلام للصلاة أكثر من مرة دون غيره، وعينه للحج بالأمة كلها.. ودون أن يسعى للإمامة، أو يقدم طلباً لها.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٥.

النبي ﷺ هو الذي اختاره وعينه رغم رفضه لها في البداية، وبعيداً عن ذلك وبينما كان عليه السلام تبرحه الآلام، وتزداد به الأوجاع ويزداد انشغالها بجسده.. كان مشغولاً بأمته.. مشفقاً عليها أن تضل كما ضلت اليهود والنصارى.

تقول عائشة ويقول ابن عباس رضي الله عنهما «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه. قال -وهو كذلك-: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا»(١)

فبعد وفاة أي نبي تزداد العاطفة، وتجيش المشاعر، فتطيش بدعاً وخرافات، وزخارف ومزارات.. حتى يتحول ضريحه من قبر إلى وثن يطاف به ويتمسح، ويستقبل، وتشد الرحال إليه، ويذبح عنده، وتحيط به السرج والشموع والمصابيح، ويطلى بالذهب ويرصع بالجواهر. وفي النهاية ينصرف الناس عن الخالق، ليتعلقوا بمخلوق لا يملك من أمره شيئاً إلا ما وهبه الخالق سبحانه وحباه به. عندها ينهدم ما بناه النبي ﷺ خلال أكثر من عشرين عاماً، ويتسرب الشرك من جديد، لكن بدلاً من عبادة الصنم الذي على شكل صورة، يصبح وثناً على شكل قبر، وبالتبرير نفسه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

كان عليه السلام يخشى ذلك ويحذر منه.. رغم ما هو فيه من المعاناة والحمى، التي يزداد اشتعالها داخل جسده الشريف، مما أعجزه عن الخروج للصلاة، حيث صلى أبو بكر في الناس العصر والمغرب والعشاء والفجر، والناس يترددون على المسجد، وفي الطرقات وفي الأسواق فلا يرون حبيبهم ونبيهم فيها، فيزداد شوقهم وحزنهم حتى:

جاء يوم الأحد

وتوالى الزائرون من أهل بيته وغيرهم، وكانت ابنته فاطمة عليها السلام في طريقها إلى هناك.. تنظر إلى هذا الأب الحاني فتدمع عينها، وتبكي وتتأثر لما هو فيه من الكرب، فيناديها ليخفف ما بها من حزن، ويهمس في أذنها، فتبكي مرة أخرى، ثم يهمس مرة ثانية فتبتسم ابتسامة تسرها وتحزن أحبابها.

---

(١) صحيح البخاري ١-١٦٨.

كانت عائشة الوفية هناك.. مأخوذة بهذا المشهد الحزين المبتسم.. هذا المشهد الذي لم يفارق قلبها وذاكرتها وعجبها فتقول: «أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحباً بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله. ثم أسر إليها حديثاً فبكت. فقلت لها: لم تبكين؟

ثم أسر إليها حديثاً فضحكت. فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن. فسألتها عما قال؟

فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ.

حتى قبض النبي ﷺ، فسألتها؟ فقالت: أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت.

فقال أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك»(١)

حفظت عائشة منزلة فاطمة عليها السلام، حين امتزجت مشاعر الحزن بالسرور في أعماق فاطمة، التي نهضت ثقيلة بعد ذلك إلى بيتها وطفليها.. ولا أدري كيف كانت نظرات طفليها وهما يشاهدان جدهما لا يستطيع اللعب معهما، أو حملهما كما كان يفعل بالأمس إلى المسجد.. ينظران إليه وينظر إليهما، لكنه لا يستطيع أكثر من التبسم في وجهيهما العذبين.. أي حزن يطوف بتلك الأعين البريئة.. وأي أسئلة أبكت أمهما وهي في طريقها إلى بيتها.. هل ستعود تلك الأيام الجميلة المفعمة بالمرح والفرح واللعب مع جدهما.. أم أنه سيرحل هذه المرة؟

تبكي فاطمة، ويقبل الليل ويخيم الحزن على المدينة، وتعاود الآلام حبيبها وناشر الحب بين جدرانها وبيوتها، وتعود فاطمة فتجده ثقيلا، و«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرباه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم»(٢)

وينزاح ذلك الليل شيئاً فشيئاً، ويزداد الألم به شيئاً فشيئاً.

---

(١) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٣٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

ويدخل فجر يوم الإثنين

ويصلى أبو بكر بالمؤمنين الفجر، فيحدث شـــيء مفرح كاد معه المصلون أن يفتتوا في صلاتهم، فبينما كان أبو بكر خاشعاً في صلاته ارتفع الستر الذي على يساره، وهو ستر بيت ابنته عائشة، فأطل الحبيب منها وهو يبتسم.

يقـــول أنس: «إن أبا بكـــر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشـــف النبي ﷺ ســـتر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ.

فنكص أبو بكر علـــى عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم.

[فقال: أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تـــرى له. ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ســـاجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم].

وأرخى الستر»(١) وعاد إلى فراشه فصلى الفجر، ثم ضعف ضعف:

الموت

الذي لا ينتظر أحداً من البشـــر.. حتى الأنبياء منهم، وفي لحظات الكرب وشدة ســـكرات الموت.. كانت فاطمة تشاهد حركة أبيها من شدة الألم، وذلك «لما ثقل رسول الله ﷺ، جعل يبسط رجلاً ويقبض أخرى، ويبسط يداً ويقبض أخرى.

قالت فاطمة: يا كرباه لكربك يا أبتاه...

قال رســـول الله ﷺ: أي بنية، لا كرب على أبيـــك بعد اليوم»(٢) ثم رفع طرفه إلى السماء، وكأنه يرى منزله من الجنة.

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤٠ والزيادة عند مسلم ١-٣٤٨.

(٢) ســـنده صحيح رواه أبو يعلى ٦-١١١ حدثنا القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا ثابت البناني عن أنس. عبيد الله بن عمر القواريري وشيخه ثقتان ثبتان التقريب ٣٧٣ و ١٧٨.

تقــول عائشــة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يقــول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير. فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. فقلت: إذاً لا يختارنا. وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا»(١).

وتقول رضوان الله عليها: «كان رســول الله ﷺ إذا اشــتكى منا إنســان مســحه بيمينه، ثم قال: أذهب البأس رب الناس، واشــف أنت الشــافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.

فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال: اللهم اغفر لي، واجعلني مع الرفيق الأعلى»(٢) «وأخذته بحة وهو يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشــهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

قالت: فظننته خير حينئذ»(٣)

وهنا دخل عبد الرحمن بن أبي بكر أخو عائشــة، وفي يده سواك فكان النبي ﷺ ينظر إلى السواك في يده، فتقول عائشة: «دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله ﷺ [وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك فأشار برأسه.. أن نعم.

فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم](٤) فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن. فأعطانيه فقضمته.

ثــم مضغتــه»(٥) «ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ، فاســتن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه، [وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.
(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.
(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٩٣. وكلمة (هو) ليست في النص.
(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.
(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه. يقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات][1]. فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه، ثم قال:

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

ثـم قضى»[2] «ومالت يده»[3] «فمـات في اليوم الذي كان يـدور علي فيه في بيتي. فقبضه الله، وإن رأسـه لبين نحري وسـحري، وخالط ريقه ريقـي»[4] «في آخر يوم من الدنيـا، وأول يوم من الآخرة»[5] «فلما خرجتْ نفسـه لم أجد ريحـاً قط أطيب منها»[6]. عندها بكت فاطمة والدها بحرقة.. بكته بقلبها ودمعها وقالت: «يا أبتاه أجاب رباً دعاه

يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[7]

أما عائشـة الشابة المفجوعة، فقد أذهلها ما حدث، وتحدثت عن ذهولها فقالت: «مات رسـول الله ﷺ بين سـحري ونحري، وفي بيت لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سـني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألدم مع النسـاء وأضرب وجهي»[8].. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجـال، ولم يبك عمر بن الخطاب. بل قام يخطـب غاضباً فيمن حوله، ومهدداً من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات. فطلب بعض الصحابة من رجل من أهل الصفة اسمه

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٦.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٦) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٢١ ثنا عفان ثنا همام أنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عفان ثقة ثبت التقريب ٣٩٣ وشيخه بن دينار ثقة وبقية السند لا يسأل عنه وقد مر كثيراً.

(٧) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

(٨) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي الدلائل ٧-٢١٣ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه سمعت عائشة. يحيى ووالده ثقتان وقد مر معنا كثيراً.

(سالم بن عبيد) أن ينادي أبا بكر، فقد اشتد غضب عمر حتى لقد قال من شدة الصدمة: «لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.

فسكتوا، وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله.

قالوا: يا سالم، اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه.

قال سالم: فخرجت فوجدت أبا بكر قائماً في المسجد[1].

قال أبو بكر: مات رسول الله ﷺ؟ قلت: إن عمر يقول: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.

فوضع يده على ساعدي، ثم أقبل يمشي حتى دخل، فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي ﷺ، حتى استبان له أنه قد مات.

فقال أبو بكر: إنك ميت وإنهم ميتون»[2].

وصل أبو بكر من بيته الذي يقع في مكان شرقي المدينة يقال له (السنح) «أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم[3] رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها»[4] ثم:

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج إلى هذه الجموع المفجوعة بنبيها، فشاهد عمر يهدد من يقول أنه مات، ويهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم، فرجع بعضهم عن النفاق. لكن

---

(١) مسجد خاص به في منطقة السنح.

(٢) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٤-٢٦٣ أنبأ قتيبة بن سعيد حدثنا حميد ابن عبد الرحمن عن سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد. ونبيط صحابي صغير ونعيم تابعي ثقة: التقريب ٥٦٥ وهو ابن أبي هند وتلميذه ثقة: التقريب ١-٣١٩ وحميد الرواسي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢٤٨ وقتيبة ثقة ثبت : التقريب ٤٥٤.

(٣) أي توجه نحوه.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

كلمات عمر كانت كلمات مفجوع مصدوم.. كان ظرفاً ليس له سوى أقرب الناس من النبي ﷺ، وأكثرهم صحبة له.

خرج أبو بكر بحزن ويقين كالجبال، ليزيل عن العقول كلمات عمر، وتخاريف الفاجعة. أخذ الأمة مما هي فيه إلى كتاب الله، فأفاقت العقول، ورضيت بقضاء الله. لم ينههم عن الحزن ولا عن البكاء، ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف، والانجراف في تيارها، فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة. فما هي:

خطبة عمر

تقول عائشة: «فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ، فقبله. قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً. والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً.

ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك. [وعمر رضي الله عنه يكلم الناس. فقال: اجلس. فأبى. فقال: اجلس. فأبى.

فتشهد أبو بكر رضي الله عنه. فمال إليه الناس وتركوا عمر][1] فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ، فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

فنشج الناس يبكون»[2] بكاء المفجوع الذي أدرك الحقيقة، وأفاق مما هو فيه من صدمة.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤١٩.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٤١.

كان ابن عباس هناك، وقد وصف حال الصحابة بعد خطبة أبي بكر فقال: «والله لـكأن الناس لم يعلموا أن الله أنـزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها من الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[1]

كان أبـو بكر رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة.. أعاد الأمة إلى صوابها، وقال لها في غياب نبيها المفجع: إن هذا النبي الحبيب يظل بشـراً وعبداً لله، وأن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين، وليس من هديه عليه السـلام. فلم يبق سـوى الصلاة عليه، واتباع رسالته والمشي على خطاه، وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي قال عنه النبي ﷺ وهو حي: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله»[2]

أمـا عمـر رضي الله عنه، فكان أكثر المسـتجيبين لتلك الآيـات، وأكثر المتأثرين بخطبة أبي بكر، لدرجة أنه سـقط على الأرض من شدة التأثر، يقول رضي الله عنه: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها. علمت أن النبي ﷺ قد مات»[3]

كانت تلك اللحظات شـديدة الدقة والخطورة والحـزن، فقد رحل النبي ﷺ عن الدنيا، وهـي مصيبة ما بعدها مصيبة. كما كان هناك أيضاً الفراغ الهائل الذي تركه من بعده.. حيث إن الأمة اليوم دون قائد يرأسها. وهذا الفراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائداً عظيماً، فكيف إذا كان الراحل اليوم ليس مجرد قائد عظيم فحسب، بل نبي يأتيه الوحي من السماء، وتحمله الأمة كلها في قلوبها.

شعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ، فرشحوا سعد بن عبادة لخلافة النبي ﷺ، بينما توجه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام حزينين إلى بيت فاطمة، في الوقت الذي كان فيه أبو بكر مشغولاً بالأمة، والأمة مشغولة بفجيعتهاوبحزنها على نبيها. لكن أبا بكر يتجدد عظمة في مثل هذه الظروف الحرجة والعصيبة.

---

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٦١٨.
(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٧١.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

انطلق رضي الله عنه إلى حيث أخوانه الأنصار، بعد أن سمع باجتماعهم ليرى ما يجري هناك.. خشية أن تفترق الأمة بعد توحيدها، أو تتمزق بعد تلاحمها، أو أن تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين الذين التفوا حول أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

ولما وصل أبو بكر وجدهم قد التفوا حول رجل مريض، وقد غطوه. كان ذلك الرجل هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة، وهم يريدون مبايعته بالخلافة. لكن عمر بن الخطاب كان له رأي آخر، في ذلك المكان الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون والمسمى بـ:

سقيفة بني ساعدة

دعونا نتجه إلى سقيفة بني ساعدة، والذي سيأخذنا إلى هناك شاب من أهل بيت النبي ﷺ.. هو عبد الله بن عباس الذي يقول إن عمر بن الخطاب قال: «كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، [فاجتمع المهاجرون يتشاورون، فبينا هم كذلك يتشاورن إذ قالوا: فانطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيباً] فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان. فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك.

فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني، أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد. فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك.

فكرهت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها، حتى سكت.

فقال: ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم.

فأخذ بيدي، وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف. [فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: [سيفان في غمد واحد!! إذاً لا يصطلحا]، يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه][1]. [قلت: يا معشر الأنصار، يا معشر المسلمين، إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، أبو بكر السباق المتين. [من هذا الذي له هذه الثلاث:

إذ هما في الغار، من هما؟

إذ يقول لصاحبه، من صاحبه؟

لا تحزن إن الله معنا، مع من هو؟

فبسط عمر يد أبي بكر رضي الله عنهما فقال: بايعوه.

---

(١) سند الزيادة حسن رواه أحمد ١-٢١ وغيره من طرق عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود وعاصم ابن أبي النجود إمام القراء حسن الحديث من رجال الشيخين التقريب ١-٣٨٣ والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها] ثم أخذت بيده، وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده][1] فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة.

فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة.

فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم، فيكون فساد، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه»[2]

كل هذه الأحداث جرت بسرعة كبيرة، خلال يوم الاثنين الذي مر بحزن وسلام، فقد أصبح للدولة الإسلامية قائد جديد وللمسلمين إمام كفوء لقيادتها، وفي زمن قياسي، وباقتناع الأكثرية.. تقبل الأنصار قيادة أبي بكر المهاجر إلى أرضهم، لأنهم رجال تثقفوا بالكتاب، والسنة وآمنوا بالله ورسوله، ورضوا أن يؤمهم رجل ارتضاه لهم النبي ﷺ، وهو حي بين أظهرهم، فيكف لا يرضونه بعد مماته.

ارتضوه وهم الذين ما كانوا ليقبلوا رجلاً من غيرهم، لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة، بل ما كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيماً من الخزرج، ولن يرضى الخزرج أن يتأمر عليهم زعيم من الأوس لو كانوا لا يزالون على ثقافتهم الخشبية الجاهلية.. ثقافة الأصنام التي أزاحها الإسلام عن قلوبهم وعقولهم إلى غير رجعة.

أما أبو بكر فلم يشغله حزنه على نبيه عن مسؤوليته الضخمة تجاه أمته، فهذا الرجل العظيم هو الذي أعاد للمفجوعين رشدهم، وهو الذي ساقته طول صحبته لنبيه

---

(١) سند الزيادة صحيح رواها ابن إسحاق ومن طريق الضياء في المختارة ١-٢٨٨ حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر قال وهو سند صحيح فعبد الله بن حزم الأنصاري تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين وبقية السند سند البخاري والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٥٠٦.

عليه السلام إلى النظر للأمور بمنظار أبعد وأكثر اتساعاً، فاستحق أن يواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات، بعد أن استقر الوضع السياسي، ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ في يوم أسود، عاشه أنس بن مالك فقال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسـول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شـيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء»(١)

ومضى ذلك اليوم لترحل شمس الاثنين بالفتنة جثة هامدة.. مضى الإثنين الحزين

وجاء يوم الثلاثاء

وقبـل أن يصلـي أبو بكر في النـاس صلاة الصبح.. قام عمـر فتوجه إلى المنبر مخاطبـاً الصحابـة، ومعتذراً عما بدر منه بالأمس من أقـوال، وداعياً بقية الصحابة لمبايعة أبي بكر رضي الله عنه.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ، فتشهد، وأبو بكر صامت لا يتكلم.

قـال: كنت أرجو أن يعيش رسـول اللـه ﷺ حتى يدبرنا - يريـد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى المسلمين بأموركم، فقوموا فبايعوه. وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر»(٢)

وبعـد أن انتهـى عمر من خطبته نزل عن المنبر، وطلـب من أبي بكر الصعود كي يبايعه المؤمنون، لكن أبا بكر رفض، فلم يزل عمر يلح عليه حتى صعد.

يقول أنس: «سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر.

---

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٥٨٨ وغيره من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس، جعفر صدوق زاهد : التقريب ١-١٣١ وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة»[1] «فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، [فلما قعد أبو بكر رضي الله عنه على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً رضي الله عنه، فسأل عنه؟ فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ.

ثم لم ير الزبير بن العوام رضي الله عنه، فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله.. فبايعاه]

فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله رسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[2]

فنهض الجميع إلى الصلاة خلف أبي بكر وقد اطمأنوا، فالأمة قد اجتمع أمرها على خليفة لرسول الله، ليعود الحزن إليهم ورسول الله ﷺ مازال مسجى لم يدفن بعد، وقد فقدوا الأمل بعودته ليؤمهم في الصلاة مرة أخرى.. فخالطت صلاتهم الدموع والوجد على أرحم الناس بهم، وأحناهم وأكثرهم رفقاً، ونشج البعض وهم يرون مكانه ومنبره، وبكى الأطفال الحسن والحسين وأمامة، فجدهم لن يحملهم إلى المسجد بعد

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٨٢ حدثني الزهري حدثني أنس. الزهري أوثق طبقته، والمقطع الذي بين المعقوفين سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٨٠ والبيهقي في الكبرى ٨-١٤٣ من طرق عن وهيب ثنا داود بن أبي هند ثنا أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري. أبو نضرة اسمه المنذر بن مالك بن قطعة تابعي ثقة: التقريب ٥٤٦ وداود تابعي صغير وثقة متقن: التقريب ٢٠٠ وتلميذه وهيب بن خالد بن عجلان ثقة ثبت، التقريب ٥٨٦.

اليوم، وازداد وجع أهل الصفة على الرحمة المهداة.. على من كان يقاسمهم شربة اللبن وكسـرة الرغيف، ويواسيهم بابتساماته وكلماته عندما يجوع مثلهم، فلا يجد لبطنه الخالي سوى حجر يربطه عليه.

وبعد أداء الصلاة استيقظت بقية الأوجاع من جديد، وتعالى النشيج وعاد الذهول، فقد حانت لحظات الوداع الأخيرة.. حان موعد الوداع المرير الذي لا يطاق.. وبدأ الإعداد لـ:

تغسيله ﷺ وتكفينه

فقد قال أبو بكر رضي الله عنه لأبناء عمه ﷺ: «دونكم صاحبكم (لبني عم رسول الله ﷺ) يعني في غسله يكون أمره»[١]

وكان ذلك في آخر النهار، فكان الذي تولى تغسيله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا أدري بالتحديد من هم الصحابة الذين شاركوه في تغسيله من أبناء عمومته، لكنهم كانوا في حيرة من أمرهم قبل أن يبدأوا بتغسيله عليه السلام.. هل يخلعون ثيابه، أم يغسلونه في ثيابه التي مات بها..؟

وقد كانت هذه الثياب «إزار غليظ مما يصنع باليمن، وكساء من التي يسمونها الملبدة»[٢] وعائشة رضي الله عنها «تقسم بالله إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين»[٣] وبينما هم في حيرتهم تلك نزلت

آخر المعجزات عند غسله

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟

فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه.

---

(١) جزء من حديث سالم الصحيح وهذه رواية البيهقي ٨-١٤٥.
(٢) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.
(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

فقاموا إلى رسول الله فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم»[1] أي أنهم يدلكون القميص على جسده الطاهر عليه الصلاة والسلام بعد سكب الماء على الثوب، وكان علي رضي الله عنه يتأمل رسول الله ﷺ وهو يغسله، وكأنه يبحث عن شيء فيقول: «غسلت رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً ﷺ»[2] وبعد أن انتهوا من غسله ندمت عائشة قائلة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»[3] أي أنها تمنت لو غسله نساؤه، فهن في نظرها أولى من الرجال، وكأنها تتذكر ابتسامته عليه السلام لها قبل أسبوع وحديثه العذب عندما «رجع إلي رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه.

قال: بل أنا يا عائشة وا رأساه ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ثم دفنتك..؟

قلت: لكأني بك أن لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك. فتبسم رسول الله ﷺ»[4] وكأنها فهمت من هذا الحديث أن تغسيل الزوج لزوجته والعكس هو الأولى، لكن ذلك لم يحدث، وشرف الله علياً ومن معه بتغسيل نبيه، وفي آخر غسلة قام بها:

مزج الماء بالكافور

في آخر غسلة لجسد النبي ﷺ وهي التي أرشد إليها عليه السلام من يغسلون الموتى وهي تساعد على نقاء جسد الميت ونظافته، وقد حضر الصحابي عبد الله بن

---

(١) سنده صحيح مر معنا كثيرا رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٤ ومن طريقه الطبري ٢-٢٣٩ وغيره: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة.

(٢) سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٦١ والبيهقي في الدلائل ٧-٢٤٣ والكبرى ٣-٣٨٨ من طرق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن علي رضي الله عنه وسعيد إمام طبقته وكذلك تلميذه ومعمر بن راشد إمام ثقة ثبت فاضل انظر التقريب ٢-٢٦٦.

(٣) هو آخر حديث عائشة السابق عند ابن إسحاق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حبان ١٤-٥٥١ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن بداية مرضه ﷺ.

مغفل رضي الله عنه ذلك العمل فروى ذلك لمن حوله قائلا: «إذا أنا مت فاغسلوني واجعلوا في آخر غسلة كافوراً»[١] ثم قال: «فإني رأيت رسول الله ﷺ فعل ذلك به»[٢]

وبعد أن انتهى علي ومن معه من تغسيله ﷺ قام بـ

تطييبه عليه السلام

فقد طيبه بمسك ثم احتفظ بباقيه، كي يحنط به عند موته. يقول أحد أصحاب علي: «كان عند علي مسك فأوصى أن يحنط به، وقال علي: وهو فضل حنوط رسول الله ﷺ»[٣] أي باقي المسك الذي طيب به النبي ﷺ، ولما انتهوا من تطييبه بدأوا بـ:

تكفينه ﷺ

فجاء عبد الله بن أبي بكر الصديق بحلة يمانية غالية.. اشتراها لكي يكفن فيها النبي ﷺ، فكفن فيها، ثم تشاور الصحابة، فأحسوا بأن الأمر فيه تكلف، فنزعوها عنه، ثم كفن عليه الصلاة والسلام في ثلاث أثواب قطنية بسيطة.. ليس من ضمنها قميص أو عمامة.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أما الحلة فإنما شبه على الناس فيها أنها اشتريت له ليكفن فيها، فتركت الحلة، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي.

(١) سنده حسن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٢) سنده حسن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ١-٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٣) سنده صحيح رواه الحاكم ١-٥١٥ وغيره من طريق: حميد بن عبد الرحمن الرواسي ثنا الحسن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي وائل قال وأبو وائل مخضرم ثقة وتلميذه العجلي صدوق رمى بالتشيع والرفض وقيل رجع عنه: التقريب: ٢-٣١١ والحسن بن صالح ثقة فقيه عابد رمي التقريب ١٦١ وحميد ثقة من رجال الشيخين التقريب ١٨٢.

ثم قال: لو رضيها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها، فباعها وتصدق بثمنها»(١).

ولما فرغوا رضي الله عنهم من تكفينه أرادوا:

الصلاة عليه

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قد سألوا أبا بكر فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ..؟ قال: نعم»(٢) وكان بيت النبي ﷺ ومسجده محاطاً بجموع الصحابة رجالاً ونساء وأطفالاً ينتظرون الصلاة عليه، لكن بيت عائشة لا يتسع لهم جميعاً، فقد قدم صحابة من أطراف المدينة وما حولها، ولا يمكن أن تحرم هذه الجموع المحبة المفجوعة من الصلاة على نبيها ووداعه والدعاء له، فسألوا أبا بكر رضي الله عنه عن كيفية الصلاة على النبي ﷺ..؟ فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ قال: نعم. قالوا: وكيف يصلى عليه؟ قال: يدخل قوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون»(٣)

فنظموهم مجموعات مجموعات، وحددوا أحد أبواب عائشة للدخول، وآخر للخروج بعد أداء الصلاة. يقول أحد الذين شاهد تدفق أمواج الحب تلك: «لما قبض رسول الله ﷺ قالوا: كيف نصلي عليه؟

قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالاً أرسالاً، فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر»(٤) فتحولت الحشود إلى مجموعات صغيرة ودخلت بترتيب وسكينة وخشوع مخضبة بالدموع والبكاء، فتحول المسجد وبيت عائشة إلى ساحة من النحيب والأنين، والرضا بقضاء الله والحمد للذي لا يحمد على مكروه سواه، ولا أدري ما حال المكان بعد دخول أمهات المؤمنين وبقية النساء.. لا أدري ما حال الفقراء والمساكين وأهل الصفة وهم يصلون على كافلهم والحاني عليهم..؟ وكيف هي حال المدينة كلها في ذلك اليوم الثقيل المؤلم..؟

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٩.

(٢) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٣) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢-٢٨٩ أخبرنا عفان بن مسلم والأسود بن عامر قالا أخبرنا حماد بن سلمة قال أخبرنا أبو عمران الجوني أخبرنا أبو عسيم شهد ذلك.. وأبو عمران الجوني هو عبد الملك بن حبيب تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٥١٨ وحماد إمام معروف وكذلك تلميذه عفان والأسود هو المعروف بـ: شاذان وهو ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٧٦.

انتهى الرجال والنســاء والأطفال من الصلاة على النبي ﷺ، فإذا الدنيا مســاء، وإذا الشمس قد غربت فلم يجدوا بداً من:

دفنه ليلاً

في غرفة عائشــة، وذلك لأنه المكان الذي توفي فيه، وقد ســألوا أبا بكر عن ذلك فقالــوا: «يا صاحب النبي ﷺ هل يدفن النبي ﷺ؟ قال: نعم. قالوا: وأين يدفن؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه، فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة»(١)

وتقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النبي ﷺ قالوا: أين يدفن فقال أبو بكر: فــي المكان الذي مات فيــه»(٢) لكن الصحابة قد تحيروا من ذهولهم في كيفية شــكل قبره.. هل يضرحون له أم يلحدونه..؟

تقول عائشــة الحزينة.. عائشة التي فقدت دلال حبيبها وعنايته: «لما توفي رسول الله ﷺ كان رجل يلحد، وآخر يضرح فقالوا: نســتخير ربنا، فبعث إليهما فأيهما سبق تركناه فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللحد فألحدوا له»(٣)

والضريح شــق مستطيل في الأرض، أما اللحد فشــق مستطيل كذلك، ولكن في أسفله، وبالتحديد في جهة القبلة منه ميل في زاوية القبر، يوضع فيها الميت على جنبه الأيمن تجاه القبلة.

وصل الرجل الــذي يلحد، فحفر لحداً للنبي ﷺ، وعاونه بعض الصحابة.. كانت المساحي تحفر قلب عائشة ومن معها، وتدمي قلوب المؤمنين والمؤمنات الساهرين حول بيت نبيهم ﷺ.

---

(١) جزء من حديث سالم بن عبيد الصحيح.

(٢) ســنده صحيح رواه ابن ســعد ٢-٢٩٢ أخبرنا أبو الوليد الطيالســي أخبرنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشــة وأبو الوليد الطيالســي هو هشــام بن عبد الملك ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب وبقية السند على شرط مسلم ١٨٣٦.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٣-١٣٩ وابن ماجه ١-٤٩٦ من طريق المبارك بن فضالة حدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك والمبارك صدوق وهو مدلس لكنه صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة حميد الطويل وله شاهد قوي صحيح السند رواه ابن سعد بالسند السابق.

تقول عائشـــة رضي الله عنها: «ما شـــعرنا بدفن النبي ﷺ حتى ســـمعنا صوت المساحي من آخر الليل»[1]، وكان عدد الذين دخلوا القبر أربعة رجال أو أكثر.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه دخل قبر النبي ﷺ علي والفضل وأسامة»[2] وقال أحد الصحابة: «إنهم أدخلوا عبد الرحمن بن عوف، فكأني أنظر إليهم في القبر أربعـــة»[3] «كأني أنظر إليهم في قبـــر النبي ﷺ أربعة، علي والفضل وعبد الرحمن بن عوف وأســـامة أو عباس»[4] وبعد أن أتموا حفر قبره الشـــريف ودخلوه.. فرشوا على أرض القبر كساء أحمر يسمى قطيفة.

يقـــول ابـــن عباس رضـــي الله عنهمـــا: «جعل في قبر رســـول اللـــه ﷺ قطيفة حمراء»[5].

وبعد أن فرشـــت تلك القطيفة قال علي رضي الله عنه: «إنما يلي الرجل أهله»[6] ويبـــدو أن عبـــد الرحمن خرج متأثراً من القبر، فنزل بـــدلاً منه قثم بن العباس رضي الله عنهم جميعاً، وحانت ساعة الوداع المريرة.. حان وضع الحبيب في قبره، فلن تراه العيون بعد اليوم إلا يوم القيامة.. حانت ساعة النحيب المر في ليلة كان السهر والحزن هـــو الجليس لأهل المدينة، حيث حمل النبي ﷺ فاســـتلمه علي ومـــن معه في القبر، فأدخلوه في اللحد على جنبه الأيمن باتجاه القبلة، ثم جعلوا اللَّبِنَ منصوباً على اللحد، وكان ســـعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشـــهد المنظر ويقول لمن حوله: «ألحدوا لي لحداً، وانصبوا علي اللبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ»[7]

---

(١) ســـنده قـــوي رواه عبد الرزاق ٣-٥٢٠ عن ابن جريج وغيره عن عبـــد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة عن عائشة.. عمرة تابعية ثقة أكثرت الرواية عن عائشة وأبو بكر بن محمد عمرو بن حزم وابنه ثقتان وابن جريج ثقة وقد توبع لأنه مدلس كما رواه ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر وفاطمة بنت محمد عن عمرة عائشة.

(٢) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب. إسماعيل ثقة ثبت: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٣) سنده صحيح وهو الحديث السابق.

(٤) سنده صحيح وهو لفظ عبد الرزاق.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

(٦) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشـــعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشـــعبي حدثني أبو مرحب وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٧) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

وبعد أن فعل علي ومن معه ذلك خرجوا ليهيلوا التراب على القبر، وكان آخر من خرج من القبر قثم بن العباس.

يقول علي رضي الله عنه: «أحدث الناس عهداً برسـول الله ﷺ قثم بن عباس»[1] لكن المغيرة بن شـعبة كان يرقب المشـهد بألم.. كان يفرك دهاءه كي يمس النبي عليه السـلام في قبره قبل أن يهال التراب عليه: «فلما وضع في لحده ﷺ قال المغيرة: قد بقـي من رجليه شـيء لم يصلحوه. قالوا: فادخل فأصلحـه، فدخل وأدخل يده فمس قدميه فقال: أهيلوا علي التراب.

فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف سـاقيه، ثـم خرج فكان يقول: أنا أحدثكم عهداً برسول الله ﷺ»[2].

أهالوا التراب والدموع عليه، وبكاه من في بيت عائشة، ومن في المسجد، ومن في الطرقـات والمنازل.. بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.. بكوا محمداً الذي كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب التي تمر بهم.. محمداً الذي فارق الحياة جسـداً، لكنه بقي سـنة ومنهجاً.. نهض الصحابـة من عند قبره مثقلين بالكمد.. محملين بسـنته وقرآن ربه وربهم.. نهض الصحابة بعد دفنه ولم يعكفوا عند قبره، ولم يحولوا ذلك القبر إلى مزار مرصع بالجواهر مطلي بالذهب، بل إن عائشـة استمرت في السكن في بيتها ولم تفارقه، أما الصحابة فلم يضيعوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا بقراءة القرآن.

لقد علمهم عليه الصلاة والسـلام كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته إلى العالم لينقذوه بها كما أنقذهم هو قبل ذلك بها. فصلى الله عليه وسلم، وجزاه عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وجمعنا به في جناته في الفردوس.

---

(1) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٧ حدثني أبي؛ إسحاق بن يسار عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل عن مولاه عبد الله بن الحارث عن علي وهو سـند صحيح فوالد ابن إسحاق تابعي ثقة وكذلك مقسم وعبد الله بن الحارث مجمع على توثيقه انظر التقريب ١-٤٠٨.

(2) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٨١ وغيره من طريق عن حماد بن سلمة عن أبي عمران يعني الجوني عن أبي عسـيب أو أبي عسيم قال بهز إنه شهد الصلاة على رسـول الله ﷺ.. وأبو عسيب صحابي وأبو عمران الجوني اسمه عبد الملك بن حبيب وهو ثقة من كبار التابعين: التقريب ١-٥١٨ وحماد إمام ثقة معروف.

الفهرس

زعيم اليمامة يحاول اغتيال النبي ﷺ ٥
غزو نجد ٥
أول من سن المقاطعة الاقتصادية ٨
قريش تأكل الدم بسبب حصار اليمامة الاقتصادي ٩
أبو سفيان في المدينة ٩
ليلة المؤامرة على خزاعة عند نبع الوتير ١٠
الشعر يستغيث النصر لخزاعة ١١
فتح مكة ١٢
حاطب ينذر قريشاً معركة فاصلة ١٣
مساءلة حاطب ١٤
أبو رهم خليفة رسول الله ﷺ في المدينة ١٦
أبو سفيان يهرب من مكة المختنقة ١٧
الطفولة أيضاً في طريق النبي ﷺ ١٩
ماذا عن العباس بن عبدالمطلب ٢٠
عمر يريد قتل أبي سفيان بن حرب ٢١
إسلام أبي سفيان ٢٢
النبي ﷺ يمر أمام أبي سفيان ٢٤
أين والد الصديق؟ ٢٥
هذا الأمان لا يشمل أربعة من مشركي قريش ٢٧
ما مصير هؤلاء الأربعة الذين أهدر دمهم ٢٧
الشعر يحدد مكان دخول النبي ﷺ لفتح مكة ٢٨
طواغيت قريش يلوذون بالكعبة ٣٢
ثأر خزاعة من بني بكر ٣٣
تحطيم الأصنام ٣٤
بيان النصر الأول ٣٥

من هذه العائلة وما هي قصة السدانة؟ ٣٦
لماذا رفض النبي ﷺ دخول الكعبة؟ ٣٧
حب الأنصار ثم باقي البشر ٣٩
أحداث في بيت أم هانئ ٤٠
البيان رقم (٢) للدولة الإسلامية في مكة ٤٢
قرر النبي ﷺ البقاء في مكة ٤٤
اكتبوا لأبي شاه ٤٨
هوازن متوترة ٤٩
الجريمة والواسطة ٥٠
النبي ﷺ يأمر بقتل امرأة ٥٢
غزوة حنين بين مكة والطائف ٥٤
بعض الصحابة يريد تقليد المشركين ٥٤
غطفان وغيرهم ينضمون إلى هوازن ٥٦
ماذا أحضر المشركون معهم؟ ٥٦
وادي حنين وأرضها ٥٧
القبض على جاسوس هوازن ٦٠
كيف سارت المعركة على أرض حنين ٦٠
الغنائم والرماة يهزمون المسلمين ٦١
ثم هرب بعدهم الأعراب ٦٢
إسقاط راية المشركين ٦٦
نزلت المعجزة ٦٦
شاهت الوجوه ٦٧
حبس الغنائم في الجعرانة ٦٩
إقامة الحد على شارب الخمر ٧١
حصار الطائف ٧١
غزوة أوطاس - وقتل دريد بن الصمة ٧١
التمرد والفرار من أسوار الطائف ٧٣

آخر محاولة لفتح الطائف ٧٥
العودة إلى الجعرانة ٧٥
النبي يريد رد الغنائم على هوازن ٧٦
توزيع الغنائم ٧٦
قصة الأنصاري وخيوط الشعر ٧٧
الاحتجاج على توزيع الغنائم ٧٨
مولد أول الطوائف المتطرفة ٧٩
هوازن كلها تدخل في الإسلام ٨٣
وفاء نذر نذره عمر في الجاهلية ٨٣
هل ستحصل هوازن على ما طلبته ٨٥
مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان ٨٦
أداء العمرة.. ..... ٨٨
إعادة أدراع صفوان بن أمية ٨٨
صفوان بن أمية في المدينة ٨٩
مارية تلد ابناً للنبي ﷺ ٩٢
غزوة بني جذيمة.. ومأساة عاشق وحبيبته ٩٣
قصة عاشق حبيش ٩٥
تجهيز جيش تبوك في ساعة العسرة ٩٨
في مثل هذه الظروف يشرق عثمان بن عفان ٩٩
عمر يحاول منافسة أبي بكر ٩٩
بعض المنافقين يعتذر عن المشاركة في غزوة تبوك ١٠١
عند الوداع بكى الرجال ١٠١
علي يتخلف عن تبوك ١٠٤
النبي ﷺ وهو في حالة غضب ١٠٦
ثلاثة رجال من الأغنياء يتخلفون ١٠٧
أبو خيثمة يلحق بالنبي ١٠٩
المنافقون لا تنفع معهم حتى المعجزات ١١٠

الصيام في السفر الشاق ١١٢
الوصول إلى ديار ثمود ١١٢
خطبة النبي ﷺ ١١٣
نحو وادي القرى ١١٤
طريق مفروش بالدروس والمعجزات ١١٤
مجاعة على أرض تبوك ١١٦
إرسال رسالة إلى قيصر الروم ١١٧
دومة الجندل ١١٩
النبي ﷺ يبشر أصحابه بخمس ١١٩
درس آخر في الصلاة ١٢٣
درس في الأحكام الجنائية ١٢٤
أمر مرعب سيحدث على أرض تبوك ١٢٤
المنافقون يسخرون من النبي ﷺ وصحابته ١٢٧
صراخ الجاهلية داخل معسكر المؤمنين ١٢٨
حصار المهاجرين اقتصادياً ١٣٠
محاولة اغتيال النبي ﷺ ١٣١
الصبيان الذين تسابقوا نحو ثنية الوداع ١٣٤
صوت الدف في بيت النبي ﷺ ١٣٥
صور مجسمة في بيت عائشة ١٣٦
الصحابة الثلاثة الذين غابوا عن تبوك ١٣٧
خالد بن الوليد يعود مصحوباً بأكيدر ١٤٤
أين زينب.. أين أم كلثوم....؟ ١٤٥
فاطمة تريد أن تثبت ذلك لزوجها ١٤٨
ملفات النفاق وأهله ١٤٨
عام الوفد ١٤٩
وفد الطائف (ثقيف) ١٤٩
وبعد إسلام ثقيف ووحشي.. ..... ١٥٤

النهي عن اتخاذ مؤذن يطلب أجراً على أذانه ١٥٥
وفد جميل من المشرق ١٥٧
وفد البحرين ١٥٧
قدوم وفد تميم ووفد من اليمن ١٥٩
كل الصحابة كانوا يحدقون بوافد اليمن ١٦١
الأشعريون في طريقهم إلى المدينة ١٦٣
النبي يثني على أهل اليمن ١٦٣
هدم كعبة اليمانية ١٦٣
قصة الرجلين اللذين طلبا إمارة اليمن ١٦٤
حجة أبي بكر رضي الله عنه ١٦٧
وفد مزينة ١٦٩
وفد بني أسد ١٦٩
وفد بني محارب ١٧٠
أفضل وافد: ضمام بن ثعلبة من هوزان ١٧١
النبي ﷺ يرسل خالداً إلى اليمن ١٧٢
جذور الخوارج ١٧٣
ابن صياد وهل هو المسيح الدجال؟ ١٧٦
قصة الدجال الحقيقي والجساسة ١٧٩
وفد اليمامة ١٨٣
كذاب اليمن الأسود العنسي ١٨٤
أبو رجاء العطاردي يعترف ١٨٥
قدوم عدي بن حاتم ١٨٦
وفد نصارى نجران ١٨٧
عبد الله بن سلول مريض ١٨٨
ابن سلول يطلب ثوب النبي ﷺ ١٨٩
قائمة بأسماء المنافقين ١٩٠
موت إبراهيم عليه السلام ١٩٢

الشمس قد كسفت يوم موت إبراهيم ١٩٣
صفة صلاة الكسوف ١٩٤
رمضان العام العاشر مختلف ١٩٦
قصة حجة النبي ﷺ البداية كانت ترغيباً ١٩٧
ثم دعوة للحج ١٩٧
مواقيت الحج المكانية ١٩٨
ملابس لا تجوز في الإحرام ١٩٩
محظورات الإحرام ٢٠٠
أسماء المواقيت المكانية ٢٠٠
توقف في واد يقال له وادي العقيق ٢٠١
متى غادروا المدينة ٢٠١
ما معنى عمرة في حجة ٢٠٢
الوصول إلى الميقات ٢٠٢
الاشتراط ٢٠٣
الروحاء حيث الذكريات والوعود والتشريع ٢٠٤
حكم الهدي إذا جرح أو أصيب ٢٠٦
تاريخ الوصول إلى مكة ٢٠٦
التمتع ٢٠٦
ماذا عن النساء في دورتهن ٢٠٧
الاغتسال قبل دخول مكة ٢٠٨
ما هو أول شيء فعله ٢٠٨
الطواف ٢٠٩
هل هناك أدعية مخصوصة أثناء الطواف ٢١٠
بعد الطواف ٢١٠
السعي بين الصفا والمروة ٢١٠
السكن في الحجون ٢١٢
علي بن أبي طالب وأبو موسى يصلان من اليمن ٢١٣

جاء اليوم الثامن من ذي الحجة ٢١٤
وجاء اليوم التاسع (يوم عرفة) ٢١٥
التكبير والتلبية يوم عرفة ٢١٥
الخطبة يوم عرفة ٢١٥
صلاة الظهر والعصر في عرفة ٢١٦
الوقوف عند جبل عرفة ٢١٦
أي الأماكن من عرفة يجوز الوقوف بها ٢١٧
فضل يوم عرفة ٢١٧
أهمية الوقوف بعرفة بالنسبة للحجاج ٢١٧
مغادرة عرفة نحو مزدلفة ٢١٧
أهمية الوقوف بمزدلفة ٢١٨
التوجه نحو المشعر الحرام ٢١٩
إلى منى لرمي جمرة العقبة ٢٢٠
مر بطريقه بوادي محسر ٢٢٠
حجم الحصى ٢٢٠
توقف عن التلبية عند الرمي ٢٢١
عظمة هذا النبي يوم الرمي ٢٢١
نحو المذبح ٢٢٢
سنته في نحر الإبل ٢٢٢
سنته في ذبح الغنم ٢٢٢
السماحة في مكان الذبح ٢٢٣
التيسير في أمر لحوم الهدي ٢٢٣
ماذا عن الذي لا يستطيع النحر؟ ٢٢٤
الحلق بعد النحر ٢٢٥
خطب الناس يوم النحر ٢٢٦
لا حرج ٢٢٧
طواف الإفاضة ٢٢٨

التوجه نحو بئر زمزم للشرب منه ٢٢٩
العودة بعد الإفاضة إلى منى ٢٢٩
سنته عليه السلام وطريقته في الرمي ٢٣٠
الاكتفاء بالرمي يومين فقط ٢٣١
المبيت في منى واجب على كل الحجيج ٢٣١
للرعاة أن يرموا بالليل ٢٣٢
طواف الوداع واجب ٢٣٢
ماذا عن المرأة الحائض وطواف الوداع ٢٣٢
عائشة تريد أداء العمرة ٢٣٣
شكوى زوجته صفية من جملها ٢٣٥
حفصة تسب صفية ٢٣٦
آثار سورة النصر ٢٣٨
نعي مبكر للنبي عليه السلام ٢٣٨
آخر خطبة للنبي ﷺ ٢٤١
آلام سم اليهودية ٢٤٤
وجاء يوم الخميس ٢٤٤
عودة أسامة بن زيد ٢٤٧
النبي ﷺ يخرج للصلاة ٢٤٨
جاء يوم الأحد ٢٥٠
ودخل فجر يوم الإثنين ٢٥٢
الموت ٢٥٢
خرج أبو بكر في وقت أبي بكر ٢٥٥
خطبة عمر ٢٥٦
سقيفة بني ساعدة ٢٥٨
وجاء يوم الثلاثاء ٢٦١
تغسيل النبي ﷺ وتكفينه ٢٦٣
آخر المعجزات عند غسله ٢٦٣
مزج الماء بالكافور ٢٦٤

تطييبه عليه السلام ٢٦٥
تكفينه ﷺ ٢٦٥
الصلاة عليه ٢٦٦
دفنه ليلاً ٢٦٧

* * *

صدر للمؤلف

- (الفقه السهل) نشر مكتبة العبيكان.
- (التوارة والقرآن والإنجيل) نشر مكتبة العبيكان.
- (الجنة حين أتمنى) توزيع مكتبة العبيكان.
- (العقل العربي اللامفكر فيه والمسكوت عنه في مقاربات العقل العربي) توزيع مكتبة العبيكان.

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging